

ابن الميز وعصية

صورة
من كفاح شعب اليمن

تأليف
قايم غالب أحمد حسين أحمد السبائي
محمد بن علي الألوحي
عبد الله المجاهد السامي محمود إبراهيم زايد

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أفضل المرسلين .
اللهم انا ما قصدنا بهذا العمل الا وجهك الكريم فان كنا قد أصبنا
— وهذه عقيدتنا — فاللهم أجرنا .
وان كنا قد بعدنا عن الطريق فاللهم غفرانك يا أرحم الراحمين .
المؤلفون

إِنِّي وَمَنْ بَيْتِ الْأَمَامِ عَصَابَةٌ
فِي الْعَدِّ قَدْ زَادُوا عَلَى الْآلَافِ
مُسْتَرْزِقُونَ مِنَ الرِّعَايَا لِيَتَّهِمُوا
قَنَعُوا بِأَكْلِ فَرَائِضِ الْأَصْنَافِ
بَلْ يَأْخُذُونَ مِنَ الرِّعَايَا كُلِّ مَا
يَحْوُونَهِ كُرْهًا بَلَا اسْتِنْكَافِ
أَتُظَنُّ مِنْكُمْ يَلِي أَمْرِ الْوَرَى
يَلْقَى قَرَابَتَهُ بَلَا اسْتِخْفَافِ
لَا بَلْ يَقُولُ عَطَاهُمْ لِي لَازِمٌ
بَلْ ذَلِكَ الْمَقْصُودُ فِي اسْتِخْلَافِ
أُعْطِيَ الصَّغِيرَ مَعَ الْكَبِيرِ مُعَمَّمًا
دَاتِ الْخِمَارِ وَرَبَّةِ الْأَشْنَافِ
وَإِذَا أَرَادَ خِلَافَ هَذَا أَشْعَلُوا
فِي الْأَرْضِ نَارِي فِتْنَةٍ وَخِلَافِ
أَغْنَى بِهِمْ مِنْ يَزْعُمُونَ بِأَنَّهُمْ
رَأْسُ الْوَرَى وَالنَّاسُ كَالْأَخْفَافِ

محمد بن اسماعيل الأمير

تقديم

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله .

وبعد :

فيشرف المراكز الاسلامية الثقافية باليمن أن تقدم للشعب العربي عامة وللشعب اليمني خاصة باكورة انتاجها في هذا البحث عن « ابن الأمير وعصره » .

وهو محاولة لكشف النقاب عن فترة من تاريخ اليمن . وما أحوج اليمن العظيم الى أقلام الباحثين لتجلو عن تاريخه هذا الغموض .

ونسأل الله تعالى أن يوفق ويعين على أن تتمكن في الفترة القادمة من تقديم انتاج يرضى وجه الحق ويخدم تاريخ الأمة العربية ويعرف العالم بحقيقة شعب اليمن ذى الحضارة العريقة والمعدن الكريم والجهاد الطويل في خدمة العروبة والاسلام .

انه سبحانه ولى التوفيق .

المشرف على المراكز

مقدمة

ولد محمد بن اسماعيل الأمير في عام ١٠٩٩ هـ وتوفي في عام ١١٨٢ هـ فامتدت حياته ثلاثة وثمانين عاما .

وتمثل هذه الفترة من حياة ابن الأمير مرحلة من أخطر المراحل التي مرت في تاريخ الشعب اليمني وأكثرها تأثيرا في المجتمع وفي الاتجاهات الفكرية والمذهبية .

وقد ولد ابن الأمير في عهد محمد بن أحمد بن الحسن الملقب بالمهدي صاحب المواهب الذي حكم اليمن ما يقرب من ثلاثين عاما ، تلك الشخصية الغريبة الأطوار التي تمثل الجشع والبطش والظلم والاستهانة بالعهود والمواثيق ، وتمثل شهوة المسعور الى الدماء وتمثل الملك المتقلب الذي لا يثبت على حال ، وتمثل أحمد حميد الدين ذلك الطاغية الذي صنع هو وأبوه انتفاضات اليمن العظيمة بما اصطنعوه من جور واستحدثوه من خيانات وغدر واهدار للحرمان وتمزيق لشعب اليمن العريق .

ومحمد بن أحمد صاحب المواهب أحد أفراد أسرة القاسم بن محمد بن الرشيد الذي وثب على ملك اليمن هو وأبناؤه من بعده منذ عام ١٠٠٦ هـ ورسم الطريق لتقاليد بربرية في نظام الحكم وسياسة الرعية توارثتها الأسرة حتى قضت عليها ثورة السادس والعشرين من سبتمبر عام ١٩٦٢ .

وعاصر ابن الأمير عشرات من الأئمة الطامعين وخمسة من الأئمة الحاكمين بعد صاحب المواهب آخرهم المهدي عباس ١١٦١ - ١١٨٩ هـ .

وقد عاش الرجل حياته في صراع دائم وجهاد مستمر .
حارب الأفكار المضللة بين العلماء حتى تأمروا عليه وكادوا له كيذا .
فاوم الشعوذة في صفوف الشعب حتى طاردوه وهموا بقتله مرات عدة
هاجم قدسية الأئمة الزائفة وحكمهم الظالم .

وكاذ من الممكن أن نبدأ بالمقبلى أو الجلال أو الوزير أو بنشوان الحميرى أو بشيخ الاسلام الشوكانى . ولكننا أردنا أن نتوسط الحلقة حتى نجتمع بابن الامير صورة من سبقه وبعض الصور ممن لحقه .

فان يفهم ابن الأمير حق الفهم الا اذا درسنا أسرة القاسم منذ تملك القاسم بن محمد اليمن حتى ولو كانت هذه الدراسة عجالة سريعة .

ولن يفهم عصر أسرة حميد الدين بما فيه من آثام الا اذا تعرفنا على النهج الذى سار عليه آباؤهم من قبل وأن الأبناء كانوا يتتبعون من سبقهم فى البغى والعدوان والتضليل .

وان يتكشف للشعب العربى — وقد أبعد عن ظروف اليمن وتاريخه وكيف كان يحكم فى عهد الأئمة .

لن تتكشف له الرسالة الانسانية والخدمات التى قدمت للعروبة والاسلام عندما آزرت ثورة الثالث والعشرين من يوليو الرائدة ثورة السادس والعشرين من سبتمبر .

لن يكون ذلك الا اذا عرفوا مدى الشقاء الذى عاش فيه اليمن بين برائن الأسر الحاكمة .

الا اذا قرأوا عن القاسم بن محمد ذلك السفاح الذى كان يكمن فى شوارع صنعاء لخصومه فيغتالهم بيديه .

الا اذا عرف المتوكل اسماعيل الذى استصفى الأموال واعتبر اليمن اقطاعية خاصة يتصرف فيها كيف شاء .

الا اذا عرف المهدي صاحب المواهب الذى كان يجمع المال من حله وغير حله حتى جمع من الأموال ما لا يخطر لعقل ببال .

الا اذا عرف القاسم الرهيب الذى لم يجف سيفه أبدا من دماء ضحاياها .

الا اذا عرف الحسين بن القاسم الذى كان يحقد على أهل صنعاء فينزل القبائل فى ديارهم يطردون أهلها لا يفرقون بين عالم وجاهل .

الا اذا عرف المهدي عباس الذى امتدت يده الى الأوقاف فاحتواها .

الا اذا عرف أن خيانة الأبناء للآباء وتآمر الأخ على أخيه كان طبيعة متوارثة في هذه الأسرة •

الا اذا عرف أن كل هذه المآسى تجمعت في أسرة حميد الدين وأضافوا اليها مبتكرات من الفساد لا يرقى اليها خيال الأبالسة .

الا اذا عرف أن اليمن العظيم ذا الحضارة الموهلة في القدم كان ممزقا شر ممزق وأنه لم يجتمع شمله في حكم مركزي حضارى منذ ألف عام الا في عهد الثورة الرشيدة .

اذا عرف العرب كل هذا علموا أن رائد العروبة جمال عبد الناصر عندما مد يده لثورة اليمن كانت هذه اليد المخلصة تمثل غوث الانسانية واستجابة المسلم وايمان العربى بواجبه الحتمى .

سنرى سيرة المنصور محمد بن يحيى ومن بعدها يحيى بن محمد ثم الطاغية أحمد - تكرر ا لسير آباءهم من قبل ولم يحاول واحد منهم أن

، اى ادماء والاستهانة بالأرواح واغتصاب حقوق الناس باسم الدين • وعرض السلطان الغاشم متسترين وراء الشرع واحاطة الشعب بسور من الجهالة العمياء والانعزالية الممزقة حتى يخلو لهم اليمن يمتصون خيره ويلعبون في أشلائه .

وابن الامير فوق هذا أحد أفراد العلويين لم يطمع فى ملك ولم يتطلع الى نفوذ بل ترفع عن هذا فى كبرياء يدعو الى الاكبار . وكان على صلات طبيعة بكل الأسر التى حكمت أو طمعت فى الحكم يحترمون ويقدرونه ويهابونه فى الوقت نفسه .

لذلك فقد كان رأيه خير حكم على العصر والمعاصرين والحاكمين والمحكومين جميعا .

ولقد كان ابن الامير بعيد التأثير وعميقه فى الشعب والقادة ، واستطاع أن ينتزع من الأسر الهدوية جماعة من أحرار الفكر الذين يؤمنون بمبادئه ويفرغون أنفسهم لخدمتها . وفرض على العلماء الذين ساروا شوطا بعيدا

في تشويه المذهب الهادوي أن يحدوا من شططهم وأن يراجعوا أنفسهم قبل كل خطوة تبعدهم عن الطريق أكثر مما بعدوا .

ويكفي أن نعلم أن الأئمة خافوا ابن الأمير حيا وميتا حتى كان المنصور محمد بن يحيى جد الطاغية أحمد يردد دائما في مجالسه :
(محمد بن اسماعيل الأمير ليس منا أهل البيت) .

(ان الأمير أفسد ثلاثة بيوت عظيمة في اليمن : بيت المتوكل بشهارة وبيت شرف الدين بكوكبان وبيت اسحق بصنعاء) •

والبيوت التي أفسدها — على حد تعبير المنصور — هي التي خدمت كتاب الله وسنة رسول الله في مدارسها ، وكان هذا يعتبر في نظر الطغاة افساد ، وهم يعلمون حق العلم أنه اصلاح للعقيدة وافساد لسطوة الطغيان .

لكل هذا فانا قمنا بدراسة أسرة القاسم فترة تقارب المائتي عام ولتتضح شخصية ابن الأمير على أن يمسك بالراية بعده الامام محمد بن علي الشواكاني ليقود قافلة التاريخ الى أسرة حميد الدين .

ويجدر بنا قبل أن نبدأ في تاريخ أسرة القاسم بن محمد بن الرشيد أن نشير الى أننا استبعدنا كثيرا من الحقائق التي قد تشق على القارىء أو التي تخرج بهذا البحث عن هدفه من دراسة ابن الامير وعصره •

كما أننا استبعدنا تلك الأخبار التي تناولت الجرائم الخلقية المسفة تعفنا لأقلامنا أن تخوض في هذه الأحوال وتنزيها للقارىء سمعه وبصره ، من أن يقع على ما يؤذيه ، وحماية للأجيال البرينة — عدة اليمن ومعقد آماله وآمال الأمة العربية — من كل قبيح مستنكر .

وسيكون هذا البحث من قسمين :

القسم الاول : أسرة القاسم

القسم الثاني : ابن الأمير

القِسْمُ الْأَوَّلُ

أَسْرَةُ الْقَاسِمِ

* نسب أسيرة القاسم

* الطريق الى الحكم

* من القاسم الى المهدي صاحب المواهب

* من القاسم الرهيب الى العباسي الجشع

الفصل الأول

نسب الأسرة القاسمية

يبدأ تاريخ هذه الأسرة بالقاسم بن محمد بن علي بن محمد بن علي بن الرشيد ويتدرج النسب بعد ذلك حتى ينتهي الى الامام الهادي يحيى بن الحسين بن القاسم الرسى ثم الى الحسن بن علي رضى الله عنه وكرم وجهه عليه.

وقد ولد القاسم بن محمد رأس هذه الأسرة في عام ٩٦٧ هـ ونصب نفسه اماما على اليمن في عام ١٠٠٦ هـ وقام ملك القاسم على أنقاض أسرة شرف الدين ومن ثم تناول الصراع الذى حدث بين الجانبين تاريخ أسرة ابن الرشيد بالتنفيذ والتمحيص .

كنا نميل الى عدم الخوض فى هذه الآراء التى أثرت حول النسب، فلعل شهوة الحكم وتنافس الأسر أدى الى بعض النتائج التى لا تسعفها الأدلة التاريخية .

وما حاجتنا الى هذا وقد ظن المؤرخون الظنون بالرجل الذى قدم الى اليمن وادعى أنه الامام الهادي يحيى بن الحسين بن القاسم الرسى وهو رأس الأسر الهادوية فى البلاد .

ما حاجتنا الى أن نتعرض الى نسب القاسم بن محمد وشخصية الهادي الرسى مشكوك فيها وقد تناولها كثير من المؤرخين بالتمحيص ومال كثير منهم الى أن الرجل قد اتحل هذه النسبة انتحالا وتظاهر بالتقوى والورع وتسلل بهما الى شعب طيب كريم أكرم وفادته وأحسن لقاءه ، فما كان من الهادي وبنيه الا أن وثبوا على ملك اليمن وراثته يتداولونها قرابة ألف عام .

كان من الممكن أن تتجاوز عما قيل فى نسب القاسم بن محمد بل كان من اليسير علينا أن نؤكد هذا النسب الى يحيى الرسى فما دام الأصل مطعوناً فيه فما بنى على الأصل تبع ولكن التوغل فى هذه الحقيقة التاريخية قد يخرج هذا البحث عن أهدافه * الا أن مشكلة النسب هذه ارتبطت أشد الارتباط بأساليب الحكم وفرضت على الحاكمين اتجاهات ذات تأثير فى الشعب اليمنى ، فى أفكاره وتقاليده فى حياته العامة والخاصة .

وهذه التغييرات والمؤثرات تجعلنا نحرص على إبرازها ونتبع العوامل المحركة لها حتى نتعرف الأجيال الحاضرة والمستقبلية على أدق صورة من هذه الحقبة التاريخية .

والحقائق التاريخية التى قيلت والظروف والملابسات التى أحاطت بنشأة الأسرة القاسمية والأدلة التى تناولها المؤرخون ذات اتصال عميق بتاريخ

ن نسوق رأى المؤرخين فى نسب أسرة القاسم
محاويين ان نوجز هذه الأدلة مبتعدين بالقارىء عن متاهات
الأسماء والروايات معقبين على ذلك بالمرجحات التى جعلتنا نسيل الى
الرأى الذى نقوله به *

(١)

من الثابت أن أسرة القاسم بن محمد نشأت فى بنى مديخة من بلاد الشرف وأن محمد بن على بن الرشيد هو أول من استوطن هناك فى أول القرن العاشر الهجرى . وبنو مديخة من الموطن التى لم يكن بها فى القرنين التاسع والعاشر وما قبلهما أية أسرة من أبناء الهادى يحيى بن الحسين ومن الطبيعى ألا يكون بنو مديخة على علم بأنساب الهادويين فمن السهل على أى متسلل اليهم اذا أحسن خطته وآتقنها أن ينتحل من النسب ما يشاء .

والأسر الهادوية كانت معروفة ومحصورة وفى أماكن محددة باليمن وكانوا يحرصون على إبراز أنسابهم وتسلسلها لارتباطها بالحكم ولم ينبت

فى تاريخ هذه الأسر أن كان أحد أبناء الهادى الرسى يدعى الرشيد . بل أن اسم الرشيد غريب على اليمينيين وهو أقرب مايكون الى الأسماء الشائعة بين الفرس والأتراك .

وهذا يرجح الرأى القائل بأن محمد بن على بن الرشيد قدم الى بنى مديخة فى أوائل القرن العاشر مع الحملة التركية واستوطن فى هذا المكان وتزوج من أسرة يمنية من الشرف وحتى يطيب له المقام وتيسر له سبل الحياة ادعى هذا النسب وشجعه على هذا الادعاء أن الرجل قد درس المجتمع اليمنى وعرف الظروف المحيطة به فوجد فى هذا النسب خير سند له وأيسر طريق للحياة فى مجتمع تتحكم فيه العصبية والقبلية والتشيع .

ثم بعد : أغلب الظن أن الرجل قد امتدت به الأطماع الى أكثر من تيسير سبل العيش له ولأبنائه وأنه قد أراد أن يمهد لهم الطريق السهل اليسير الى ملك اليمن .

وليس بغريب على جندى شريد قادم مع حملة تركية أن يطمع فى ملك فقد رأينا محمد على الكبير تتقاذفه شواطئ الاسكندرية حتى كتب له النجاة من الغرق ثم ها هو بعد أعوام يطمع فى ملك مصر ويعمل لذلك حتى يصل الى مطعمه بعد أن خان شعبا وثورة وقادة .

نقول اذن ليس بغريب على ابن الرشيد أن يطمع فى ملك اليمن فلما تعرف على المجتمع اليمنى وجد طريقه الى غايته يعتمد على دعامين :

اثبات نسبه الى العلويين .

التظاهر بالتقوى والورع وانتحال الزهد .

(٢)

هناك اختلاف كبير بين أفراد أسرة ابن الرشيد وبين أفراد الأسر الهادوية فى الملامح العامة .

تقاسيم الوجوه مختلفة وهياكل الأجسام متفاوتة وألوان البشرة لا تقارب بينها .

وقد كان القاسم نفسه ذا ملامح فارسية أو تركية فهو فى الرجال ربة معتدل مفتول القامة عظيم القوة الى السمن أقرب واسع الجبهة عظيم العينين طويل اللحية عريضها اذا وقف تدلت لحيته الى سرتة واذا جلس غطت صدره. ومن الغريب أن نجد بين العلويين خاصة أو بين اليمينيين عامة رجالا بهذه الصفة لهم مثل تلك اللحية الكثة المبالغ فى طولها وعرضها وتلك الجبهة الواسعة التى تلفت الأنظار .

والكن الرجل وجد فى هذه الملامح مع تظاهره بالتقوى ما يعينه على ما هو فيه .

(٣)

ثم ان الفترة التى اتحلت فيها الاسرة نسبها كانت فترة مضطربة مليئة بالحروب والخلافات والتمزق وكان الاستعمار التركى فى هذا الوقت من عوامل الضعف فى المجتمع . ومما يشجع طامعا فى الحكم ويمهد له الطريق فى الوقت نفسه أن ينتسب الى الاسرة التى تتداول الملك منذ مئات السنين .

فاذا قدر له ان يختار بقعة من الأرض وجماعة من الناس بعيدين عن تيارات الحكم وصراع المتنافسين اذا قدر له ذلك تم له ما أراد فى أسرع وقت وبأبسط صورة .

ولعل كثيرا من الناس قد حاولوا ما حاوله ابن الرشيد وغالب الظن ان كثيرا منهم نجح الى ما سعى اليه وان قلة قليلة قد تكشفت أمرها الى الناس .

ولنسق اليك تلك الحادثة التى رواها الامام الشوكانى عن أحد الأفاقيين اتحل فيها شخصية ولد من ابناء المهدي صاحب المواهب ، ولولا "صدفة وحدها لما تمكن انسان من اكتشاف هذا التحايل .

ولندع الكلام الى الشوكانى فى البدر الطالع اذ يقول (١)

(١) اليد الطالع : ٢٣٥/١ .

(ذلك ان رجلا يقال له محمد حسين من اولاد المهدي صاحب المواهب غاب عن المواهب نحو عشرين سنة ثم لم يشعر أهله بعد هذه المدة الا وقد وصل رجل يزعم أنه هو فصدقه أهل الغائب كزوجته ووالدته واخوته وشاع انه دخل بالمرأة واستمر كذلك أياما .

فوصل بعد ذلك رجل من بيت النجم الساكنين في زييد وقال لأهل ذمار وعاملها : ان هذا لم يكن الغائب بل رجل من بيت صعصعة المزينة أهل شمسان صعلوك متحيل متلصص كثير السياحة .

وكان عند وصوله قد لبس الثياب المختصة بآل الإمام فطلبه العامل فصمم على أنه محمد بن حسين من آل الامام . وشد من عضد دعواه مصادقة أم الغائب وزوجته واخوته) .

ثم يقول الشوكاني (وكان صاحب الترجمة « قاضي ذمار » حكم له بأنه محمد بن حسين اجتنادا الى الظاهر وهو اقرار الأهل) . هذا ما حدث من ادعاء نسب وزوج وأم وأخوة ثم قضاء القاضي وفي عصر قريب من عصر القاسم .

فهل على بنى مديخة والشرف من لوم أن جاءهم رجل تركي أوفارسي يتلفع بلباس ظاهره التقوى والقراة من الهادويين . هل عليهم من لوم أن صدقوه وقد جهلوا من نسب هذه الأسر ما علمته الام من ولدها وخبرته المرأة من زوجها وعهده الأخوة في أخيهام .

(٤)

كان الأئمة يسيطرون على عقول الشعب بوسائل غريبة متوارثة فكل امام يملك تنطلق السنة الدعاة من حوله تروى عنه الكرامات والشواهد على صحة امامته .

وليس من هذه الأدلة اختيار الشعب له أو رضاهم عنه أو قدرته على ادارة دفة الحكم ورغبته في الاصلاح ورفع الظلم عن الرعية .

ولكنها قصص خيالية تؤكد اتصاله بالملائكة وتحكمه فى الجن وسيطرته عليهم اذ هو سلطان الأنس والجن .

كما تتناول هذه القصص رؤى يخلقها النائمون ويدعيها الامام نفسه عن اتصالهم برسول الله صلى الله عليه وسلم وبرأ سيرته السمحة من كل ادعاء .

وكان القاسم يبت أعوانه ومريديه فى البلاد للترويج لدعوته وابرار مؤهلاته بالسيطرة على الجن والأنس والاتصال بالملائكة ولم يكن هو أقل من اعوانه نشاطا ولا ادعاء فى هذا السبيل .

بل كان الرجل قد وهب قوة فائقة وذكاء حادا وخيالا بارعا وقدرة على اختيار القصص القريبة من أذهان الشعب والسيطرة عليه وتخديره .

ومن اراد التأكد من كل ذلك فليرجع الى السير التى كتبت عن الأئمة وليرجع الى الجرموزى مؤرخ سيرة القاسم ليرى الى أى مدى وصلت هذه الشعوذة على أيدي الرواة وعلى ألسنة الرواة عن القاسم نفسه :

روى الجرموزى عن القاسم أنه كان يتردد على سوق بيت عذاقة من بابيه وكان المسيح الدجال يتردد أيضا على هذا السوق ولكن بصفه خفية ليضل الناس ويفسد عليهم دينهم فاكشفه القاسم اذ كان لا يراه أحد من الناس غير القاسم فتتبع المسيح حتى أخرجه واضطره الى الفرار ولم يعد الى سوق بيت عذاقه بعد ذلك .

آين ذهب المسيح ؟ ولماذا لم يتردد على اسواق أخرى كثيرة فى اليمن وغير اليمن ليفتن الناس .

لم يتحدث القاسم ولا الجرموزى عن ذلك ولعلهما تركا الأمر لقاسم آخر يكتشف المسيح فى سوق آخر من اسواق المسلمين .

وكثير من الروايات المماثلة التى أريد بها تضليل الشعب وارهابه والسيطرة عليه فكريا وروحيا .

وغالب الظن ان القاسم لم يكن يصدق صحة نسبه العاوى ولكنه عمل
بشتى الوسائل على تدعيم هذا الادعاء الذى بدأ به جده .

وليس بغريب على من يزعم أنه يطارد المسيح الدجال فى الأسواق
أن ينتحل نسبا الى ابن أبى طالب رضوان الله عليه .

ولما كانت الأسر الهادوية كفيلة بان تدافع عن كيائها وتتدارك الملك
الذى يوشك ان يفلت من يديها فقد وضع القاسم واتباعه فى اعتبارهم
محاربة هذه الأسر فى الوقت الذى يدعمون هذا النسب .

وألفت كثير من الكتب لخدمة هذه الأغراض جميعها تكون مرجعا
للدعاة ومنهجيا دراسيا للهجر « المدارس » التى أنشأها القاسم فى شتى أنحاء
اليمن .

وهاهو كتاب بغية المريد خير شاهد على ذلك اذ يطالعك عنوانه
بالغرض الذى ألف من أجله .

(بغية المريد فيمن ولده السيد على بن محمد بن على بن الرشيد) وكان
المؤلف أكثر توضيحا لهدف الكتاب عندما قال فى مقدمته :

(فانه لما طرق سمعى من ابناء السادة الاعلام أهل الوقت يسأل عن
نسب بعض أهله من عصبتة ونسبه بصيغة الاستنكار علمت يقينا انه قد
جهل النسب من نفسه وأهله فضلا عن غيره) .

أرأيت الى صاحب الكتاب وهو أحد افراد الأسرة يدافع عن استنكار
العلويين وانكارهم انساب ابن الرشيد وقد أجهد الرجل فكره فادعى أن
أصل الأسرة قدم من الشام « بلاد صعدة » .

وكان القاسم يسابق الأسر الهادوية فى انكارها عليه نسبه اذ يعمل
على التخلص من هذه الأسر والقضاء عليها وعلى نفوذها كلية فى اليمن .

وقد رسم الطريق له ولأبنائه من بعده لمحاربة الهادويين ومطاردتهم
ليشغلهم بمعركة البقاء عن معركة الحكم وقضية النسب معا .

والقاسم نهابة للفرص يحسن الاستفادة منها فى براعة وحذق وقد

استباح لنفسه ان يغتال منافسيه ويتخلص منهم بشتى الوسائل فماذا عليه ان يستعمل سلاح الخيال والادعاء وهو سلاح هين ما أيسره ، قوى ما أقطعه اتاحت له الفرصة ان يتصل باحد ائمة عصره ليكون من اعوانه وهو الحسن بن على بن داود ، وشاءت الصدفة أن يقبض الأتراك على الحسن ويسوقونه الى الآستانة ليموت هناك .

وكان موته هذا قد أكسبه قدسية فى نفوس الشعب وأكسب القاسم حرية فى أن يروى عن الحسن ما شاء له خياله البارع وشاءت له أطماعه الواسعة .

فتارة يدعى ان الحسن عرف عن طريق الملاحم أو الجفر « وهو التنجيم الذى يزعم الرسيون أنه علم توارثوه عن جعفر الصادق رضى الله عنه » عرف ان القاسم ستؤول اليه الامامة فاخبره بذلك وأوصاه بعدة وصايا .

اذا صدق الناس هذا هل يمكن لأحد ان ينازع القاسم فى الامامة بعد حقائق العلم هذه التى أكدت حقه فيها ؟

وهل يمكن لأحد أن يرجع الى الحسن ليسأله ويتأكد منه عن صحة ما عرفه ونقل عنه من الملاحم ؟

صفوة القول أن ابعاد الحسن عن اليمن ثم موته فى تركيا كانت فرصة انتهلها القاسم ، وليكن من بين الوصايا التى أوصاها الحسن له التخلص من تلك الأسر الرسية الراسخة فى الحكم وفى النسب معا :
جاء فى بغية المريد ما يلى :

(وكان مما أوصى الامام الحسن بن على الامام القاسم أن ييوتات فى اليمن الغالب عليهم الميل الى الدنيا :

بنى شمس الدين	أهل كوكبان
ومنهم الحمزات	اينما كانوا « وابن الامير منهم »
ومنهم السادة القواسم	« ابناء القاسم العياني »
الغلب عليهم العيب	« الغدر »

واستشعر الامام ذلك وتطلبه فوجد الأمر كذلك . فلا زال مشغولا بحرب بنى شمس الدين .

وكان يكثر التبهل الى الله والدعاء اليه ان يخذل الحمzat ويبدد شمنهم وكان قد دعاهم الى نصرته والجهاد بين يديه .

فاتفق ذات يوم — وهو يوم عيد — وكان فى جبل برط فنظر الى تراب ثائر فى بلاد الجوف فقال لمن عنده من أهل برط : ما هذاك التراب الثائر ؟

فقال له : تقع الخيل من ملعب الأشراف يلعبوه أيام العيد .

فتوجه الامام الى القبلة وشال يده ودعا عليهم بأن قال :

(اللهم انك تعلم أنى قد دعوت هؤلاء لنصرتى فيما يجب لك من ازالة المنكرات فلم يجيبوا وأنا فى هذا الجبل غريبا وحيدا أنتظر نصرتك لى والفرج عنى فأسألك أن تبدد شمل هؤلاء وتهلكهم عددا ولا تجمع لهم شملا ولا رأيا ولا كلمة مسموعة وسلطهم على بعضهم بعضا واكفنا منهم وعنهم) .

وتحليل هذا الكلام يطول ويخرج بنا عما نهدف اليه من القصد ولكن أمورنا نود أن نشير اليها اشارة عابرة نستعين بها مع القارىء على وضوح الرؤية :

— ان القاسم حدد فى هذه القصة الاسر التى عزم على القضاء عليها هو وأبناؤه من بعده .

— انه دمنغ هذه الأسر بانها تميل الى الدنيا وانها تطلب الحكم لهذا الغرض وزعم أنه تحقق من كلام الحسن فوجده صحيحا . وبالتالي فهو رجل زاهد مصلح لا يطلب الملك الا للاصلاح وازالة المنكرات .

— انه بدأ فعلا بتنفيذ خطته حيال بنى شمس الدين بالحرب الساخنة وبالحرب الباردة حيال الحمzat وذلك لأنهم كانوا كثرة ومنتشرين فى اليمن لا يقوى عليهم .

— نود أن نلفت النظر الى الطريقة التي لجأ اليها الرجل فى الدعاية ضد الأسر التي كان يخشى منها وصورة التقى الورع المتبتل الى الله يتجه الى القبلة وقلبه يغلى حقدا وضغينة على بنى عمه ان كان ثمة قرابة بينه وبينهم .

ترى لو كان هؤلاء الحمزات من غير العلويين بماذا كان يدعو عليهم وماذا تتوقع أن يكون الدعاء لو كانوا من كفار التأويل فضلا عن الكفار المشركين .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد الرسول الكريم ، الرحيم الحليم ، الذى لاقى من أهل الطائف العذاب الأليم ، عندما ذهب اليهم يدعوهم الى الاسلام بعد أن يئس من استجابة كفار مكة ، فما كان من أهل الطائف الا أن أغروا به العبيد والصبية يقذفونه بالحجارة حتى دميت قدماه

وعندما عرض عليه جبريل أن ينزل بهم عقاب السماء اتجه محمد عليه السلام الى ربه قائلا « اللهم اهد قومى فانهم لا يعلمون » .

لقد رأى القاسم كثرة الحمزات فأطارت عقله ورأى تقع الغبار فتصور الحرب المتوقعة بينه وبينهم فطار لبه وشاء له أسلوبه المشعوذ العميق أن يدمعهم بكل نقيصة تنتزع بقية اكبار من نفوس الناس من حوله بهذا الدعاء المسموم الذى جهر به حتى حفظه الناس من حوله وتناقلوه بعدماته مآثرة من مآثره وإكرامة من كراماته ..

والأخبار التي تروى عن القاسم بن محمد لا تنتظم فى مبدأ ولا هدف واحد سوى مبدأ الوصول الى الحكم . ففي حين أننا نراه يطارد المتصوفة ويحمل عليهم ويلجأ فى بعض الحالات الى أن يغتالهم بنفسه كما فعل بالمتصوف صاحب صنعاء . تراه هينا لينا بل ومادحا مع صوفى آخر التقى به فى الحجرية .

وفى قصة صوفى الحجرية هذا كثير من الأدلة التي تدعم رأينا الذى نقول به لذلك فما علينا من بأس ان سقنا اليك مقتطفات منها نقلا عن بغية المريد .

(دخل « أى القاسم » بلاد خولان الطيال فلم يجد ما يريد فرحل الى المشرق الأقصى من بلاد الرصاص فوجدهم لا التفات لهم الى الهدى بل هم كالأنعام فطلع جبل يافع فلم يجد منه نصرة وانما هم لصوص يخرجوا من بلادهم للاطماع ويعودوا بها ثم عزم الى جهة الحجرية والمعافر فوجدهم على مذاهب شنيعة) .

وتقف هنا وقفة يسيرة لنلاحظ أن الرجل كان يلح على بلاد المشرق واليمن الأسفل لأنه كان يعلم أن أهلها لن يناقشوه الا فى أمر واحد وهو أحقيته بالامامة أما فى الشمال — موطن الهادييين — فانهم سينكرون عليه نسبه أولا — وقد أنكروه — فضلا عن انكارهم الامامة المترتبة على النسب .

ومع التجاوز عن تلك الصفات التى وصم بها القبائل التى مر بها لا شئ الا لأنها لم تصدقه ولم تستجب له فانه قد أوصى بنيه بهذه الروايات أن ينتقموا منهم أن تغلبوا على الحكم وكان أبناء القاسم — والحق يقال — أوفياء لوصية أبيهم فقد أذاقوا هذه القبائل ألوانا من الهوان تستعصى على الخيال .

ولا نحب أن نترك صاحب البغية أكثر من هذا فلنرجع اليه حيث يتم الرواية :

(ثم بلغه « القاسم أيضا » خبر السيد صاحب الجعدى وكان على منهج المتصوفة ويدعى الكشف ولما وصل الامام عنده فحال أن دخل عليه قال : مرحبا بالامام القاسم .

وكان الامام فى السيادة لايؤبه له فقال :

انما أنا من الأشراف أو السادة أو ما هذا معناه فقال :

لا بل أنت الامام الداعى وستملك البلاد أنت وأولادك وتحكم فيها برأيك .

فأخبر الامام أنه وجده رجلا صالحا) .

ونرجو أن يكون القارىء قد لاحظ كما لاحظنا تلك العبارة التى أفلتت من المؤلف دون أن يعى ماوراءها ولعلها أفلتت من القاسم نفسه الذى روى هذه القصة وهى قوله :

(وكان الامام فى السيادة لايؤبه له) .

ومعنى ذلك أن أحدا لم يكن يعترف له بهذا النسب وانما شغل الناس عن هذه القضية فيما بعد ما واجهوه من ظلم أو ما غنموه فى ظل الدولة القاسمية . أو هذا وذاك وما عفت عليه الأيام .

ثم هى سنة الحياة مع الغالب .

والناس من يلق خيرا قائلون له — ما يشتهى ..

والقاسم مع الحاحه على الدعوة وتصميمه وتلفه عليها يفاجأ بكلام الجعدى ولذلك فهو يقول كالمتشكك :

« انما أنا رجل من الأشراف » .

كأنك صدقتنى فى الأولى عندما صدقتنى فى الثانية .

ولا أقل بعد ذلك من يبادل الرجل مدحا بمدح وثناء بثناء فيقول

انه وجده رجلا صالحا .

(٥)

ومما يؤكد أن أفراد الأسرة القاسمية كانوا يحسون بضعف نسبهم وكانت هذه الحالة النفسية تؤثر على تصرفاتهم وتدفعهم الى أن ينتهزوا كل مناسبة لتأكيد هذا النسب أو نفى كل ما يشير الشبهة حوله .

وقد كان الطاغية يحيى يضيق بسواد وجهه وأنفه الأفطس أيما ضيق وكان معارضوه يعرفون نقطة الضعف هذه فيغمزونه منها .

وقصة الرجل الذى كان يتعرض له فى الطريق ويحمل عنبا أسود وينادى عليه عندما يراه « الأسود الأسود » قصة مشهورة ..

بل ان أباه كان أكثر ضيقا بلون ابنه وملامح وجهه وقد جاء يسوما يعلمه أنه ينوى التسرى بجارية سوداء فما كان من الوالد الا أن صفعه ثائرا وهو يقول :

(عاد لحنا بنسوى نخرتك الى اليوم يا يحيى) .

وكان الرجل يخاف أن يتأصل اللون والأنف « النخرة » المفرطح في ذريته .

وقد تكرر هذا الموقف بالنسبة لمحمد بن يحيى الذى كان أميرا على الحديدية وقد تناهى الى أبيه أنه انتزع زوجة تركية من زوجها بغيا واعتداء فلم يعترض على هذا التصرف . وبعد فترة علم أنه مال الى جارية من جوارى « الهيج » فغضب غضبا شديدا وأرسل فى طلبه ووبخه قائلاً : « قد رضينا بالتركية لتحسين النسل وتريد الآن أن تزيد السواد ونحن نحاول أن نتخلص منه من كذا عام » .

ومهما يكن من شىء فقد جنب رأس الأسرة نفسه وجنب أبنائه من بعده مئوية الصراع المذهبى ووفر عليه وعليهم جهدا كبيرا عندما أكد نسبه الى الهادويين .

فهو يعلم حق العلم أنه لو طمع فى الملك بدون هذا السلاح فان قول عبد الله بن حمزة سيصدق عليه ويطارده حتى يقضى عليه وعلى أتباعه :

أما الذى عند جدودى فيه فيقطعون لسننه من فيه
ويؤتمنون جهرة بنيه لأن حق الغير يدعيه

الفصل الثاني

الطريق إلى الحكم

(١)

قلنا من قبل أن تاريخ الأسرة بدأ بالقاسم بن الرشيد وأن القاسم قد أعد اعدادا طيبا للدور الذي لعبه بعد ذلك للوثوب على حكم اليمن . وان دراساته ومميزاته الشخصية قد لعبت دورا كبيرا في نجاحه فيما أعد له .

وقد كان الرجل الى جوار ذلك يلبس مسوح الرهبان ويتظاهر بالثالنية الدينية ووجد الفرص كلها مواتية للوصول الى حكم اليمن . فالحرب قد أنهكت أسرة شرف الدين والأتراك جميعا وأنصار الدعوة الاسماعيلية كادت تخذ أنفاسهم في مواطن قوتهم والبلاد ممزقة كل ممزق ..

وبرغم كل هذا فقد كان الشعب يجاهد الأتراك ويحاربهم كلما وجد الى ذلك سبيلا فما أيسر على القاسم والحالة هذه من أن يختطف جهاد الشعب وملك اليمن لقمة سائغة وبنفس البراعة التي اتتهجها أبناؤه بعد ذلك المنصور وابنه يحيى حميد الدين .

وقد أرسل القاسم دعائه في كل مكان يدعون له وينشرون الدعايات من حوله ويختلقون الكرامات التي لا يصدقها عقل فالجن خدم له والملائكة من أنصاره والمسيخ الدجال يفرع عنه رؤيته هربا . وهو نفسه لا يتورع أن يؤكد هذه القصص المختلفة بروايات يرويها وتلقفها أجهزة الدعاية من حوله تنتقل بها في أطراف اليمن .

ولم يكن الأمر يقتصر على بث الدعاية وارسال الرسل والدعاة . بل ان الرجل بعين الحاذق الخبير كان يتتبع الرجال الذين يخشى منهم على

دعوته سواء كانوا منافسين أم مناوئين وسرعان ما يتخلص منهم بشتى الوسائل : السم والاغتيال والوقعة . تلك الوسائل التى ظلت شيمة هذه الأسرة والتى عرف الشعب اليمنى منها الكثير فى عهد الطاغية يحيى .

ومما يدهش العقول ويحز فى النفوس أن هذه الاغتيالات كانت تغطى بستار الكرامات فتارة الجن هى التى قتلت وتارة الأفاعى هى التى انتقمت وتارة الغيرة الدينية هى التى دفعت الى هذا القتل ومن شاء فليرجع الى الجرموزى ليقرأ عشرات من هذه الحوادث وتلك الخرافات .

وما دام الرجل يريد ملكا فلا ضير عليه أن جمع بين الغيرة على الدين والغيرة على الوطن فى سبيل ذلك .

فما أن أهل عام ١٠٠٦ هـ حتى أعلن نفسه اماما على اليمن من جبل قارة وقد قاربت سنه الأربعين عاما فمولده فى عام ٩٦٧ هـ

وبدأت الحرب بينه وبين الأتراك يهاجمهم ويطاردونه حتى اذا اطمأن الى حصوله على منطقة الجبال وتأمين جانبه فى السيطرة عليها وقع الصلح معهم وبقي هذا الصلح بين الجانبين الى أن توفى فى عام ١٠٢٩ هـ .

وان المتتبع لتاريخ هذه الفترة التى اشتعلت فيها نيران الحرب بين القاسم وبين الأتراك تنكشف له بعض الحقائق الواضحة :

أولا : أن الخراب قد حل بأنحاء اليمن حتى اذا توصل القاسم الى مكاسب شخصية تجاهل ما أصاب البلاد فى سبيل هذا الكسب .

ثانيا : أن الصراع مع الأتراك قد استغل فى التخلص من المنافسين الحقيقيين للقاسم باسم التحرير ..

ثالثا : ان حرب التحرير كانت قائمة بين الشعب وبين الأتراك وكل ماصنعه القاسم أن استغل الشعور العام للوصول الى الحكم .

(٢)

وهذا الداعى الذى يتزهد ويتظاهر بالتقوى كان لا يؤمن الا بالسيف وازهاق النفوس وسلب الأموال وبث الحزازات بين الناس وتسليط

القبائل بعضها على بعض « التخطيط » — وظلت هذه سنة بيت القاسم حتى وصلت أسرة حميد الدين فكان « الخطاط » سيبلها الى حكم اليمن وفرض سيطرتها على القبائل واستصفاء أموال من يغنى منهم واضعاف من يقوى وتفقيت من يكثر .

فالرجل الذى يرى تقع الخيل فيفزع الى الله ويتجه الى القبلة ويرفع يديه داعيا بلحيته الكثة المستطيلة المستعرضة حتى تملأ صدره . يقدم عليه ابنه محمد المؤيد من حبس كوكبان (١) ورأى فى عنقه سبحة فقال له :

ما هذه ؟

قال : سبحة .

فقال :

بل اجعل مكان هذه هذا السيف . وقلده اياه وقال :

شمر للجهاد انما هذه من صفة القاعدين .

ويكتب كتابا الى أحد أتباعه وهو الشيخ أبو زيد فيحكى له ما فعله اليمنيون من أتباعه باليمنيين من خصومه فيقول :

(وبقيّة من المخذولين فى بلاد وادعة صار القتل فيهم كل يوم وقد قتل الجند المنصور الى اليوم فوق مائة قتيل وتغنموا منهم غنائم حسنة من السلاح والدراهم) .

ثم لا يكتفى بالجريمة التى ارتكبها هو وجنوده فى وادعة بل شاء له ضميره أو شاءت له أطماعه أن ينتقل بالقتل والنهب الى جهة أخرى . واليك جزءا من الرسالة تتعرف منه على هذه الحقيقة :

(وكذلك اذا تفضلتم أن تتقدموا الى حجبور وتخربوا بيت ابن عرجاش وتنهبوا ماله وتأخذوه خاسئا حسييرا ذليلا خاسرا فى الدنيا والآخرة وأنتم تقدرّون على ذلك) .

أرأيت الى هذا الفضل والتفضل على الجريمة واستباحة أموال الناس ودمائهم .

(١) بغية المرید .

ثم هاهو القاسم لا يريد أن يترك للرجل بقية من تردد الى ما يدفعه اليه دفعا فيواصل رسالته : (وليس فى تراخيكم وصياتكم لبلاد أعداء الله فائدة فان أهل البلاد لا يحنوكم « لا يتركونكم » ان ظفروا بكم والعياذ بالله) .

(وكذلك أخرجوا أموال أهل بيت مأخوذ وبيت جحوش وسحنة أقماهم الله « أحرقهم » وبعدهم من رحمته وأسكنهم النار بحق جدى محمد رسول الله) .

ولا تستطيع أن تنكر على القاسم هذه البراعة فى السيطرة الفكرية على أتباعه .

انظر اليه كيف يؤكد أن هذا العذاب الذى سيقع بخصومه سيتبعه عذاب أشد وأنكى فى الآخرة .

ثم هذه العبارة الأخيرة (بحق جدى محمد رسول الله) فهى لا تحتاج الى تعليق .

قلنا اننا لا نستطيع أن ننكر على القاسم براعته ولكننا ننكر عليه كل الانكار هذه الأحقاد التى بشها فى القبائل حتى تأصلت فى النفوس وصارت عادة وتقليدا أن تغير قبيلة على أخرى وأن تثور الحروب بين أبناء الوطن الواحد والملة الواحدة .

وبين رعى الأحقاد والغارات والأطماع استبيحت الأموال وسفكت الدماء واعتدى على الحرمات وأصبحت الوحدة السياسية فى اليمن هى القبيلة هى العصبية وهى القومية وهى المبدأ حتى اذا تمكن كل ذلك أحاط بالحكام الشعب الحضارى العريق بسور من الجهالة والانعزالية لا يتسرب منه شر ولا ينفذ اليه خير .

والقاسم يث سمومه هذه بعد دراسة للسجتمع اليمنى وتعرف على علاقات القبائل ببعضها فهو قد طوف فى اليمن كما رأيت بتلك السمات الشخصية المؤثرة الجبهة الواسعة والعينين العظيمتين واللحية الطويلة العريضة ومسوح الرهبان التى تستر وراءها والمتالية الدينية .

وكما وضع فى خطته التخلص من ثلاث أسر قوية فى اليمن ، كذلك وضع موضع التنفيذ القضاء على كل شخصية يشتم منها المنافسة القوية له ولدعوته حتى ولو اضطر الى أن يغتال بيده وأن يقتل بنفسه .

واذا كان قد أباح لنفسه أن يسلط أتباعه على معارضيه وأن يتفاخر بعدد القتلى الذين يتساقطون وبالغنائم الحسنة التى تنهب ويدفع القبائل لتخرب وتقتل وتعيث فبا أهون عليه والحالة هذه أن يمد يده الى الأرواح فينتزعها وبكل قسوة :

جاء فى ترجمة القاسم للإمام الشوكانى هذه القصة التى تؤكد المعانى التى أوردناها اليك والتى قد تكون موضع غرابة ودهشة . ولكننا لا نبغى من وراء هذا الا أن نسوق اليك الحقائق وبكل صدق .

يقول الشوكانى فى البدر الطالع :

(حكى الحسن بن الحسين حفيد القاسم أن صوفيا بصنعاء كان شديد الخلاعة وكان يأكل الحشيش أكل الحمار ويستبيح المحرمات عامة فكمن له الامام القاسم فى بعض الأزقة كمون الأفعوان حتى اذا مر به ضربه بعمود فأخرج دماغه من بين الآذان .

ثم خرج من المدينة خائفا يترقب) .

كأن المسألة غيرة على الدين فحسب وازالة للمنكرات ولكن القصة اذا تناولها القارئ المدقق تكشف له بعض الضوء الذى يمكن أن ينير الطريق . فغالب الظن أن هذا المتصوف كان — القاسم يخشى منه على السياسة التى وضعها لنفسه فاذا علمنا أن بعض الرواة الآخرين يذكرون أن الرجل كان تركيا تكشف لنا السر فى اختيار هذا الصوفى دون بقية الأتراك من القادة والمحاربين .

فقد كانت خطة القاسم أن يوهم الشعب بأن الأتراك كفار وألا صلة بينهم وبين الدين .

فاذا ظهر منهم رجل متصوف حوله الأتباع ويكثر فى حضرته

المريدون . بدأ كثير من الناس يترددون فى تصديق ما يشيعه القاسم عن كفر الأتراك .

فاذا أضفنا الى ذلك أن القاسم كان يتتبع المتصوفة بالحرب والعداء الشديد لتخوفه منهم ومن أتباعهم وأنهم بسيطرتهم على جانب من الشعب يحولون بين دعوته وبين النفوذ الى أعماق العامة .

فى حين يؤمن هو بأن السيطرة على النفوس والتضييق على العقول وقصر الفراسة عليه وعلى أبنائه هو السبيل الوحيد لوصوله الى الحكم واحتكار هذا الحكم لأبنائه من بعده .

لهذا فقد اغتال القاسم هذا الصوفى يسيده على تلك الصورة التى تقشعر منها الأبدان .

فلو كان هذا التركى — على فرض أنه تركى — يجاهر بتعطى الحشيش وباقتراف المحرمات لوقف المجتمع فى صنعاء ضده . ولكان أى قاتل له محل اكبار الجميع ولوجد له مأوى يأوى اليه ويحميه من الأتراك ولما احتاج الى أن يخرج منها خائفاً بترقب . بل لوجد المكان الذى يخفى فيه لعملية الاغتيال بدلاً من كسونه فى أحد الأزقة .

وغالب الظن أن قصة الحشيش والمحرمات انسا هى تبرير لجناية ارتكبها القاسم فى شبابه وما أكثر المبررات التى اختلقها القاسم وأبناؤه من بعده لكل الجنايات التى ارتكبوها .

وقد مر عليك من هذا قليل من كثير .

(٣)

كان القاسم يعلم أن دعائم الدولة التى يهدف الى اقامتها تحتاج الى تثبيت عقائدى يضمن لها البقاء .

لذلك فقد أحاط الشعب اليمنى بسور من الرهبة الروحية والسيطرة الفكرية .

وكان السبيل الى هذا ابراز تلك الأفكار السياسية المغرضة التي أقحمت على المذهب اقحاما ونسبت الى زيد بن علي رضى الله عنه تلفيقا .

فأنشأ كثيرا من الهجر « المدارس » فى المساجد وأنشأ من حولها مساكن الطلاب ونشط أتباعه يعلمون فقها هادويا قاسميا لا يقصد به الا تنقيس الأسرة وتكفير الخارجيين عليها واغراق العقول فى غيبوبة مذهبية لاتفريق منها ولا تعى ما يدور حولها من ظلم واستبداد وامتصاص للخيرات ولا يتطمع حر الى أن ينازع فى حكم أو يرفع مصلح رأيا باصلاح .

وفى الوقت نفسه يسهل قيادة الشعب وتحريكه الى الأغراض الخفية وغير الخفية لسادة الحكم والمسيطرين عليه .

وقد ساهمت الأسرة الحاكمة من أبناء الرسى فى هذا الذى صنعه القاسم وبنوه فى عقول الناس ومذاهبهم •

وكان من أبعد أهداف هؤلاء أن يحولوا بين اليمينيين وبين انطلاقة الفكر وحرية رأى وأن يكونوا حراسا على العقول فيما يقدم اليها من أفكار .

فبرغم أنهم يدعون الانتساب مذهبيا الى الامام زيد بن علي — رضى الله عنه — وهو ينادى بأن كل مجتهد مصيب وكان تلامذته أئمة مجتهدون — ومن غير العرب — يعتز هو بهم وبنوتهم ويفخرون به وبأستاذيته ويجلوونه أيما اجلال كالامام أبى حنيفة النعمان ..

برغم هذا فقد حرموا على العلماء الاجتهاد وألزموهم بالتقيد بالمذهب فقط . وأصبح الامام الحاكم بعد هذا مصدر التشريع ومناطق الأحكام يضيف الى الفقه أحكاما تدعم سلطانه وتؤكد سيطرة الأسرة وتسوق الناس بارهاب الدين مع رهبة الملك . أو هى تضيف الى المعتقدات شيئا جديدا يباعد بين أتباعهم وبين تعاليم امامهم الأكبر زيد بن علي رضوان الله عليه .

فزيد بن علي كان ثائرا على الملك العضود والحكم المتسوارث بين الأسر ولم يثبت عنه رأى أو حكم يقول بأن الامامة من أصول الدين أو

أنها محصورة ومتوارثة فى أبناء على — كرم الله وجهه — عامة أو أبناء فاطمة الزهراء — رضى الله عنها — خاصة .

وتجاهلت كتب الفقه هذه الحقائق وتجاهل الأئمة ما علموه منها أو هم جهلوه فى حقيقة الأمر وانطلقوا يؤيدون ملكهم فكريا وعقائديا فى تلك الهجر التى أنشأها القاسم فى اليمن ودعمها أبناؤه من بعده .

وأصبح أساس العلم هو الامامة ومن هم أصحابها وأصبح كل معارض لهذا الأساس كافرا أو عاصيا حتى ولو كان هذا المعارض من أتباع زيد والمؤمنين بتعاليمه كفرقة المطرفية أحد الفرق الزيدية التى لا تشترط حصر الامامة فى أبناء فاطمة الزهراء .

وإذا أراد القارىء أن يعرف ما حدث للمطرفية من الهادوية فليرجع الى تاريخ عبد الله بن حمزة الرسى الذى حكم بكفرهم وقتل منهم الآلاف المؤلفة وخرب مدنها وقراها وسبى نساءهم وذرائعهم ومنعهم من دخول المساجد حتى أنه كتب على واجهة مسجده الذى بناه فى ظفار :

أقسمت قسمة حالف بروفى — لا يدخلنك ما حبيت مطرفى
والدين الاسلامى السمح الذى بعث به محمد بن عبد الله — صلوات
الله عليه — رحمة للعالمين ونورا للانسانية وحربا على استبداد الأسر
واذلال العبيد .

هذا الدين الحنيف أصبح فى تعاليم القاسم كما يقول :

ياذا المرید لنفسه تثیتا ولدينه عند الاله ثبوتاً
أسلك طريقة آل أحمد واسألن سفن النجا ان يسألوا ياقوتا
لا تعدلن بآل أحمد غيرهم وهل الحصاة تشاكل الياقوتا

والاسلام لا يعرف فى الناس حصى وياقوتا ولا أسود ولا أبيض ولا عربى ولا عجمى اذ المسلمون سواسية كأسنان المشط لا فضل لفرد على آخر الا بالتقوى : « يأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم » .

وقد أرهقت هذه الأفكار أحرار الناس ارهاقا شديدا حتى اضطر
كثير منهم الى مقاومتها بشتى الطرق . وكانوا يعارضون أحكاما منحرفة
بأحكام وقرآن كريم وأحاديث نبوية شريفة .

كما كانوا يعارضون الشعر بالشعر ولتستمع الى نشوان الحميرى وهو
يقول :

آل النبى همو أتباع ملتة من الأعاجم والسودان والعرب
لو لم يكن آله الا قرابتة صلى المصلى على الطاغى أبى لهب
ولولا أن الحديث يطول لتبعنا من أمثال هذه الآراء الكثير والتي
اتهمت الى أن يستبيح فيها القاسم دماء المخالفين عليه ويستحل أموالهم
وأعراضهم . وقد أشار الشوكانى الى بعض ذلك فى قوله :
(وله نظم فى المواعظ والعلوم والزجر والتهديد) .

واذا كنا قد لمسنا بعض الرفق فى الأبيات السابقة للقاسم والتي قسم
عباد الله فيها الى حصى وياقوت . فما هذا الرفق الا لأن الأبيات تناولت رأيا
خالصا يتدارسه طلاب العلم ويقوم بشرحه أرباب العلم . حتى تكون هذه
التعاليم راسخة فى النفوس جارية على الألسنة عقائد ثابتة لا تناقش عند
العامّة ولا يجرؤ الخاصة على نقضها .

وآل أحمد فى عرف القاسم هم آل القاسم فحسب لاغيرهم من العلويين
أو الهاديين فاذا تناول أحد العلويين من غير بيت القاسم على التطلع الى
الملك والسلطان كان الرد عليه مثلما كان رده على عبد الله بن على المؤيدى
حين دعا لنفسه محارضا له :

ان كنت تبغى ديم دين محمد فأنا المريد أقيم به بدعائم
أو كنت تخبط فى ذنوبك بأطال نسأنا المزيل ظلامها بعزائم
لولا اشتغالى بالحروب وأسفلها لوجدت نفسك لقمة للاقم
واغوثاه . يالثرات الملك . يالنفوس الظامّة الى الدماء المتعطشة
الى الحكم .

رحبائك يارجل ما لدين محمد وما أنت فيه مع المؤيدى من نزاع انك
واياه تتنازعان الحكم وقد يباح لك فى شرعة هذا الصراع أن تجعله لقمة
للاقم أو أن تكمن له فى أحد الأزقة بعمود من حديد فتضربه لتخرج رأسه
من بين أذنيه أما أن تهدد العالم الاسلامى بهدم دين محمد كله فهذا مالا
يقبله عقل ولا يقره شرع .

(٤)

وكان لابد أن يصاحب وصول القاسم الى الحكم ايجاد سياسة بعيدة
المدى تقطع الأمل بين الشعب اليمنى وبين التفكير فى الحكم والانتقاض
على الأسرة .

وأقوى الوسائل التى انتهجها القاسم ومن جاء بعده توسيع الهوة بين
الشعب وبين السادة .

الالاحاح على الشعب حتى يحس بالضعفة والعجز وعدم القدرة على
امتلاك أمره بنفسه وحاجته الدائمة الى من يقوده ويوجه خطواته .

والارتفاع ببطقة السادة واحاطتها بهالة من القدسية الرهيبة :

الهادوى سيد والفاطمية شريفة وسيدة . فاذا كان من أسرة القاسم
أكدوا هذه السيادة بقولهم سيدى وسيدتى .

ويحرم تقديم اليمنى على السيد فى صف أو كلام أو مصافحة أو ركوب
أو مآكل أو كل مايوحى بشرف أو تشريف .

وكل مناسبة يجتمع فيها الناس كالجمع والأعياد والأعراس والمآتم
والذكر عقب الصلوات فمن الآداب المرعية والتقاليد المتبعة الاشارة الى
السادة والاشادة بهم وبكراماتهم .

وخطبة الجمعة لابد أن ينص فيها على ذكر القاسم صراحة والا لم
تصح خطبة ولا صلاة . وستأتى الاشارة الى المحنة التى وقع فيها ابن الأمير
بسبب اختصاره لخطبة الجمعة وعدم ذكر القاسم . وكيف تألب السادة عليه

وهددوا المهدي العباس بأنهم سيقتلون ابن الأمير ان لم يحبس ، وحبس ابن الأمير لأنه لم يذكر في خطبة الجمعة القاسم بن الرشيد .

ويحرم زواج اليمنى بشريفة وان حدث هذا وجب التفريق بينهما .
وأشاعوا الوهم بين الناس أن من تجرأ على هذا الزواج التهم البرص أعضاءه .

حتى جدران المساجد ومنابرها ومحاريبها ترصع بأسماء الأسرة ومناقبها .

خرافات أريد بها اذلال الشعب العظيم حتى لا يتطلع الى حكم نفسه في يوم من الأيام .

ولم تكن الفروق بين المذهب وبين بقية المذاهب الاسلامية لتصل الى هذه الدرجة التي وصلت اليها على أيدي بيت القاسم ودعاتهم .

فقد تعمدوا هذه الفرقة وعمقوها في نفوس الشعب لتزيد العصبية وتشتت الشمل ومن ثم تتاح لهم فرصة استغلال هذه الخلافات ليجنى صانعوها خيرات هذا البلد الطيب .

فلا غرابة اذ أن كان أصحاب المذاهب الأخرى كفار تأويل أو منافقين لا يمثلون الأحكام الشرعية الا كرها .

وكان الحرص على أن يفهم الشعب أن الدين الصحيح هو ما يقدمه السادة وغير ذلك — ايمان مزيف كان هذا الحرص يدفع بعض العلماء الى خرافات تثير الشفقة والسخرية معا .

ولتستمع الى هذا الذي رواه صاحب بغية المريد عن ابراهيم بن أحمد الكينعي . عندما ذهب لأداء فريضة الحج فرأى الناس يفدون من شتى بلاد المسلمين ويتضرعون الى الله ويبتهلون كما كان يفعل الكينعي تماما .

وهاله أن يرى هؤلاء الناس يلتفون حول الكعبة ويكون وتهمر الدموع من أعينهم خشية من الله ورجوعا اليه .

وكان الرجل قد خاف أن تؤثر هذه المناظر فى الشعب اليمنى عندما يرى غيره من أصحاب المذاهب تعمر قلوبهم بالايان وتفويض عيوتهم خشية ورهبة ولا فرق بينهم وبين هؤلاء .

كأن الرجل خاف من كل هذا على انقياد الشعب خاف أن تتفتح العيون والقلوب على الأخوة الاسلامية السمحة والفكر الاسلامى الواسع والاحترام المتبادل بين وجهات النظر المختلفة مادامت تلتقى كلها حول الايمان بالله الواحد القهار والايان برسوله صلى الله عليه وسلم ، بالكتاب الكريم والسنة المطهرة وليختلف المسلمون فيما يصح الاختلاف عليه ماداموا يتفقون فيما يجب الاتفاق عليه .

خاف الكينعى أن يتطرق الى ذهن بعض العامة ما يشككهم فى السادة وما يقدمه السادة من علم .

واذا بالرجل يقص هذه القصة والعهد على صاحب البغية فيما رواه :
(سمعت أهل المذاهب المختلفة يكون ويتضرعون الى الله . فسألت الله عز وجل أن يرينى الحق .

فاذا بهاتف أسمع صوته ولا أرى شخصه فى جوف الليل وهو يقول :
« لا يغرك بكأؤهم وان بكوا فالحق مع القاضى الحسن بن محمد النحرى وعصيته »

والقاضى الحسن هذا أحد دعاة المذهب الهادوى . والعلماء الذين نشطوا وراء — هذا الهدف اما أن يكونوا قد غرر بهم وعاشوا بما قدم لهم من كتب لاتنفخ أعينهم على غيرها .

واما أن يكونوا ممن يسعون لكسب المنافع الدنيوية فى مكر ودهاء .
فالقضاة والعمال والدعاة وخطباء المساجد وأئمتها يجب أن يكونوا من المتعصبين لبيت القاسم وكل خارج عن هذه الدائرة فهو بعيد عن دائرة الحكم وفتات موائده .

ومن هنا زادت الحالة سوءا على الشعب اليمنى فبجوار الاقطاع الذى تحولت اليه البلاد فى أقصى صورته نشأت طبقة من الأسر تتوارث الوظائف صاغرا عن كابر تستبيح من الحقوق والمظالم ما شاءت لها أطماعها واحتكرت العلوم التقليدية تتناول منه ما يؤهلها لما تتوارثه .

وكان هؤلاء الموظفون يؤمنون فى قرارة نفوسهم أن كل ظلم يباشرونه انما هو حق من حقوقهم فكما تورث الاقطاعيات بسا فيها من أراض زراعية وما عليها من سكان وحيوانات وطيور وخيرات وما يقدر عليها من فرض الزكاة أيضا . فكذلك تورث الأعمال الوظيفية بما يستتبعها من رشاوى ومظالم وانتهاب لأموال الضعفاء . فليس العمل الذى أسند الى هؤلاء عن كفاءة وانما هو عن وراثة .

وبذلك ابتعد عن أداة الحكم وسلطان الأئمة العناصر الصالحة ، ابتعد ذوو النفوس العالية والضامير الحية والتصق بالدولة ماشئت أن تتصور من طعام الناس .

ومن هنا ندرك القيمة العظيمة لثورة السادس والعشرين من سبتمبر . فقد حطمت ذل الرجعية وسجن الشعوذة المذهبية وقضت على الاقطاع الحقيقى والاقطاع الوظيفى وأفسحت الفرصة للكفاءات لتعمل وتبنى وتخدم اليمن العظيم ، تعيد له حضارته التى تأمر عليها مشعوذون أفاقون تناهى ظلمهم حتى خرج على حدود التصور واشتد عسفهم حتى ألحقهم بوحوش الغاب .

وقد دعا ابن الأمير صراحة الى القضاء على الأسر الحاكمة بل قد تمنى أن يحصدهم السيف حصدا لا رحمة فيه وسنؤكد هذه الحقيقة من شعر ابن الأمير ومذهبه .

ولكن انظر اليه وهو يسخر من هؤلاء الذين يعملون فى وظائف الدولة وقد أحاطوا أنفسهم بهالات كاذبة وتلفعوا بالقاب براقة يتجملون بها حيناً ويتسترون وراءها أحيانا :

تسمى بنور الدين وهو ظلامه وهذا بشمس الدين وهو له خسف
وذا شرف الاسلام يدعوه قومه وقد نالهم من جوره كلهم عسف
رويدك يامسكين سوف ترى غدا اذا نصب الميزان وانتشر الصحف
بماذا تسمى هل سعيد فجيذا أو اسم شقى بش ذاك الوصف

(٥)

وكان كل امام يبدأ دعوته بايهاهم الشعب بأنه يسيطر على الجن ويتحدث
الى الملائكة وأوهموا الناس أن الامام يملك من الجن ما يملك من الانس .
فالامام ملك الجن والانس ويسوقون الناس سوقا بهذه الخرافات وأمثالها
حتى كان المواطن العادى مطاردا بشبح الامام أنى سار وأين كان يعتقد أن
عليه رقيبا يحصى حركاته ويسجل سكناته ، ويرجع الى جميع الكتب التى
ألئت فى تاريخ الأئمة وقد تولى أتباع كل امام كتابة تاريخه وجمع كراماته
التي لم تتوفر لأنبياء الله ورسله .

وأصبح سلطان الجن يسوم الناس فى حياتهم وأفكارهم وكثر تردد
هذه الترهات حتى صارت بديهية من البديهيات وحقيقة مسلمة لا تقبل
نقاشا .

وكل حادثة تستغرب أو ظاهرة تدهش الناس ما أسرع ما يرجعها
المؤرخ الى الجن أو الى كرامات الامام .

ومازلنا نذكر أن الأتراك عندما دخلوا اليمن للمرة الثانية ومدوا
شبكات سلكية للبرق تناول الناس هذه الظاهرة بالتفسير . فلم يكن أيسر
عليهم من أن يرجعوها الى الجن . ومن أقدر من الجن على هذا الاختراع
الغريب :

(وفى هذا العام قطع المجاهدون السلك ويسميه العجم « التلغراف »
وهو من صنع الجن بلا خوف) .

والحديث فى هذا المجال يطول ولكننا سنعطى القارئ بعض الأمثلة
حتى يلمس من كان بعيدا عن اليمن وظروفه صورة من هذا الذى قلنا به .

بدأت حركة الأحرار تظهر فى عهد الطاغية يحيى حتى صارت حديث الناس وتفتحت بعض الأذهان على المظالم الواقعة على الشعب وبدأت الألسنة تتحرك بالنقد مما لم يكن معهودا من قبل وأحس الأتباع من حول يحيى بالخطر فتلطفوا بالحديث مع الامام يوجهونه الى شىء من اعتدال السيرة والقصد فى العسف والجور والتحايل على ابتزاز الأموال دون اللجوء الى الأساليب التى درج عليها هو وبنوه ، ولكن يحيى استمع الى كل هذا الذى قيل له فى شىء من الاشفاق على خاصته وكثير من الاستخفاف بما يقولون ورأى أن يجرى استفتاء عاما يؤكد فيه لأتباعه أن الشعب مرتبط به أوثق ارتباط وفى الوقت نفسه يشعر هو بمدى سلطانه على العامة فيزهو بذلك ويفخر . ولعله أراد من وراء هذا الاستفتاء أيضا أن يؤكد للخارجين عليه فى عدن أن كل مايسعون اليه نفخات فى رمد .

وكان هذا الاستفتاء من نوع غريب على بقية شعوب العالم وعلى كافة ملوك الأرض ولكنه ليس بغريب على يحيى وعلى الشعب المسكين الذى فرض عليه أن يعيش فى وهم كبير .

أصبح الناس فى يوم من الأيام فاذا بالامام يتحدث فى مجلسه أن السلطان الأحمر وهو ملك الجن قد قتل وأن شعب الجن أصبح هملا بدون سلطان يحكم تصرفاتهم ويقيد أفعالهم ويراقب جانياتهم .

وما هى الا سويغات حتى تصدر ضعاف النفوس من العلماء ، وكبار الأتباع يروون الخبر عن الامام ويضيفون له ماشاء لهم خيالهم وشاءت لهم ضمائرهم حتى شملت الناس رهبة قاتلة .

وأ تبع الامام هذا بان أرسل برقيات الى العمال والقضاة والأمراء ليحذروا الجن فى هذه الفترة التى ستشيع فيها فوضاهم حتى يتمكن الامام من احكام سلطانه عليهم وتعيين سلطان أحمر آخر يحل محل القتل وعلى كل فرد من الشعب أن يحصن نفسه من سطوة الجن واعتدائهم بأن يسم جبهته بقليل من القار وأن يرصع باب بيته بكثير من القطران .

وأصبح الناس فاذا بأوعية القار قد وضعت فى الطرقات واذا بالحديث على كل لسان فهرعوا صغيرهم وكبيرهم يقتتلون على القار وسار الرجال والصبية ملطخة وجوههم بالقار وقبع النساء فى البيوت على تلك الحال ولم ينس صاحب بيت أبواب بيته من هذه الأوسمة السوداء .

هل رأيت استفتاء أغرب من هذا الاستفتاء الذى أجراه يحيى حميد الدين .

لقد جمع خاصته بعد أن رأوا مارأوا وقال لهم : مثل هذا الشعب لا يمكن أن يشترك فى الثورة على امامه .

وحادثة أخرى تروى عن الطاغية أحمد بعد مقتل أبيه وفراره من تعز وما كاد يصل حجة حتى أمر فحيكت عشرات الجلايب البيض كل جلباب يبلغ فى الطول عشرين ذراعا + ولكى يؤكد للشعب حجة أنه أمام حقيقى مؤيد بسلطان الجن وأن شعبه الخفى قد اعترف به قبل أن يبايعه أهل اليمن. أعلن فى الناس يوما من أول أيامه بحجة أن الجن ستطوف بالمدينة هذه الليلة وأن على الناس أن يلزموا بيوتهم حتى لا يؤذيه طوافو الجن .

واختفى الناس من المارة وتلصصوا من نوافذ المنازل فى رهبة قاتلة فاذا بهم يرون جماعات من الجن تلبس جلايب بيض متناهية فى الطول وتحمل رؤوسا سوداء لا يكاد يدرك الرأى لها جسما ولا يتعرف لها على ملامح .

وأستغفر الله لم تكن جنا هذه التى رآها الناس وانما هم جماعة من أتباع الامام وخاصته قد اختفت داخل الجلايب وحملتها على عصى طوال وفى رأس كل عصى رأس من الصوف .

ومن ذا الذى لا يصدق بعد هذا أن أحمد حميد الدين هو الامام المختار ومن لم تحركه الأطماع حركته الأوهام ليندفع الناس الى صنعاء يفعلون بها وبأهلها ما تعف الأقلام عن تدوينه فما صنعه التتار فى بغداد أهون وأقل بشاعة مما صنعه أتباع الامام بأهل صنعاء بعد ثورة ١٩٤٨ .

وكان أحمد داهية لا يشق له غبار فى هذا السبيل استعمل المسجلات ليحصى على زائريه كلامهم ثم يستمع الى مادار فى المجلس ليعيده عليهم .
ومن ذا الذى أخبره بهذه الأحاديث غير الجن .

وكان يتحرك مع حرسه وأتباعه فعثر جواده فى جانب صخرة فأوقف
الركب واستدعى السجائين الموكلين بالقيود وأرسل فى طلب سلاسل
الحديد الغلاظ وأحكمت القيود حول الصخرة ووضعت أقفال الحديد .

ثم التفت الامام الى خاصته يفسر لهم ما فعل :

« انما هو مارد من الجن خرج علينا ورام حربنا فأردنا أن تؤديه »
ولم تكن الجن وحدها من مصادر تدعيم حكم الامام فالبرق والمطر
والخارجون على الامام الذين يغتالون بالسهم والخناجر وتلقى تبعة قتلهم
على أمور غيبية لا تعلم ، كل هذا من أسباب النصر الذى لا يتوفر الا لامام .

ثم تلك الرؤى التى يخترعونها اختراعا عن رسول الله صلى الله عليه
وسلم والتى أتقنوا تلفيقها حتى أصبحت من لوازم كل امام يدعى لنفسه
سواء نجح فى الدعوة أم فشل فيها .

ولنرجع الى مثال واحد من ذلك فختاره لك من سيرة المنصور الحسين
ابن القاسم الشهارى الذى لم يكد تخلص له الامامة عاما كاملا وما قدر له
السيطرة على زمام الملك بعد أن تنازل له المهدي صاحب المواهب عام ١١٣٧
وأجبر على هذا التنازل اجبارا وكان قائد الثورة على المهدي هو القاسم
ابن حسين فلم تفلت السلطة من يديه حتى خلع المنصور حسين وانتزع
البيعة لنفسه متلقبا بالمتوكل .

صفوة القول أن المنصور لم يملك ولم يحكم ولم ينله من الامامة الا
اسمها فترة عام أو يزيد قليلا ثم فارقه اللقب الى غير رجعة .

ومع هذا فقد انطلقت أبواق الدعاة تقول وتروى وتقص ومن بين ما
قالت تلك القصة التى رواها نشر العرف عن محمد بن اسماعيل الكبسى :

لما حج (١) المنصور حسين سنة ١١٢٣ هـ اجتمع فى مكة بنصوح باشا أمير المحمل المصرى وسأله عن أحوال اليمن فأخبره بمثلما كان قد أخبره بمكة المولى عبد الله بن أحمد بن المتوكل على الله اسماعيل من سوء الحالة فى اليمن فكان من قول نصوح باشا « للمنصور » أن مثلك من العلم يتعين عليه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ودعوة الناس الى ما فيه صيانتهم وحفظهم .

وقال السيد عامر بن محمد بن عامر فى بغية المرید أنه أخبره بعض السادة الثقة أنه قال له حاكم حبور السيد العلامة محمد بن اسماعيل بن ابراهيم جحاف أنه لما حج أخبره رجل أصله من اليمن وقد صار مهاجرا بأهله فى طيبة أنه رأى فى المنام النبى صلى الله عليه وسلم يقول ان هذا الأغا صار بجوارى يفعل المنكرات وقد أمرت بضرب عنقه ثم التفت النبى صلى الله عليه وسلم وأشار الى رجل وقال له :

وأنت : اليمن فيه ظلم كثير فقد أمرتك أن تزيل المنكرات وتفعل وتفعل .

قال وعرفت الرجل فى المنام وليس له خبر فى المدينة فلما وصل الزوار واذا ذلك الرجل الذى أشار اليه النبى صلى الله عليه وسلم معهم فأقبل الرجل الرائي اليه وقبل يده وقال له :

من أنت ؟

قال : شريف من اليمن .

قال ما اسمك ؟

قال : الحسين بن القاسم .

قال : سيدى تفضل تكون ضيفى .

وجد عليه ولم يقبل منه عذرا فأسعده ، فلما خلا به قال :

ياسيدى : لك حديث عجيب . وأخبره بما رأى وأن النبى صلى الله

عليه وسلم قال له فى المنام ما قال :

(١) نشر العرف لزبارة .

فأما الأغا التركي فأصبح يوم ثان وقد أمر الباشا بضرب عنقه ولا أعلم من خبره غير ما سمعت منى .

وأما الذى أشار اليه النبى صلى الله عليه وسلم فهو أنت بصورتك التى لا أنكرها وفقنى الله بك . ومرادى أن تشملنى بصالح دعاك .

قال السيد محمد حجاف :

فلما وعيت ما أخبرت به علمت عند دعوة الامام المنصور أنه المذكور . ولما خرج الى اليمن من مكة ونقل الى المهدي صاحب المواهب اجتماعه بنصوح باشا وما تكلم به أراد طلابه من شهارة واستمال بعض مشايخ الأهنوم وأمرهم بالقبض على « المنصور حسين » (٢) .

أرأيت الى القصة كيف ألفت فأحكمت أطرافها ، فلو صدقت الرؤيا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لامتد الأمر بالمنصور حتى يرفع الظلم ويزيل المنكرات .

ولكن هاهو الرجل لم يكد تتم له البيعة حتى يخلع فان لم يكن قد شارك فى الفتنة التى اعتصرت الشعب اليمنى اعتصارا فى هذا الوقت فلا أقل من أن يقال انه عجز عن أن يزيل الظلم ويرفع الجور .

(٦)

وكان الأئمة يتابعون أداة الحكم بالفتاوى والأحكام الشرعية التى يساندون بها عمالهم والتى تقضى على معارضيتهم أو تسلأ خزائنهم بالمال .

فاذا أرادوا أن يستولوا على أموال الأوقاف وأعيانها أصدروا حكما شرعيا مؤداه « ألا قرينة لكافر » .

فاذا علمنا أن الكافر عندهم نوعان كافر صريح وكافر تأويل ، علمنا أن كفر التأويل باب واسع يمكن أن يتسرب منه كل من رأى الامام فيه رأيا أو خالفه بوجه من الوجوه .

لهذا استطاعت أسرة القاسم أن تلغى وقف الغيل الأسود والغيل البرمكى .

وأن تتحايل على اخراج الأوقاف الى الملكية الخاصة بأن تباع العين تمويها ثم يعودون من طريق آخر فيشترون ماباعوه . وتصبح هذه الأوقاف من أملاك الأسرة . وتنتقل بصفة نهائية من القرية الى الملكية .

والأمثلة على ذلك كثيرة . ولما كان هذا البحث لا يتسع لتتبع هذه الأمثلة بالتنفيذ والتحليل والاستقصاء فاننا نكتفى بحكم واحد أصدره المتوكل على الله اسماعيل بن القاسم (١٠٥٤ - ١٠٨٧ هـ) .

وكان اليمن قد تخلص من الاستعمار التركي وامتدت أطماع المتوكل الى يافع وعدن ولحج وايين وحضرموت فوجه اليها جيوشا طاغية لاترحم ولا تبقى ولا تذر بقيادة ابني أخيه محمد وأحمد ولدى الحسن بن القاسم . وكانت هذه الجيوش تحتاج الى اعداد وميزانيات ضخمة والسبيل اذن هو العدوان على أموال الشعب .

ولكن ما دام هذا الملك يتستر وراء الامامة فلا بأس من أن يصدر حكما شرعيا :

(ا) تتحول فيه أرض اليمن من أرض عشرية تعطى الزكاة الى أرض كفرية تقدم الخراج . بحجة أن اليمن انتزع من الأتراك وأنهم كانوا يملكون هذا الوطن .

والأتراك كفار فما أخذ منهم غلبة ينطبق عليه ما ينطبق على خير .

(ب) أن الجيوش التي تغير على أرض المسلمين الآمنين جيوش مجاهدة فى سبيل الله .

(ج) كل مايفرضه الامام على الناس عامة أو على بعضهم خاصة حق مستحق ودين لازم يقدم طوعا أو يؤخذ كرها .

(د) أن يتحكم الامام فى أموال الناس وما يملكون من أرض وتجارة وحيوان تحكم السيد فى عبده أو ضربه السيد على عبده كنص الحكم الذى أصدره المتوكل .

هـ) الجهاد لا يقتصر على جهاد الكفار والبغاة ولكنه يمتد الى جهاد المنافقين وهم فى نظر الامام الذين لا يمثلون لأحكام الشرع الا كرها وخوفا من صولة الامام بجنده أو ببعض جنده .

الى آخر هذا الحكم الغريب الذى يجدر بنا أن نسوقه اليك وأن نتبعه برد أحد العلماء الأحرار عليه ومعارضته له مفندا الحكم بندا بندا :

يقول المتوكل اسماعيل :

(قال محققو العلماء :

ما أمر الامام على الناس أو على بعضهم من نفقة الجهاد مال حقا مستحقا وديننا لازما كالخراج . وضربه السيد على عبده .

ودليل ذلك أمر الله تعالى بالاتفاق فى الجهاد ترغيبا وترهيبا . وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم به .

وليس الجهاد مجرد ملاحمة الحرب ولكنه اعداد ما استطيع من القوة التى فى زماننا هذا الجند ..

ثم ان الجهاد لا يختص بجهاد الكفار والبغاة ولكنه ذلك مع جهاد المنافقين الذين لا يمثلون لأحكام الشرع الا كرها وخوفا من صولة الامام بجنده أو بعضهم .

وقد يكون ذلك من كثير من أهل الشوكة الذين يحتاجون الى فئة من المسلمين من الجند تردهم عن ذلك .

وقد يكون ذلك من أفراد من الضعفاء لكنهم كثير بالنظر الى جملة البلاد فلا يقوم بأمرهم الا الجند) .

(فعلى كل حال اعداد الجند والنفقة عليهم من أعظم الجهاد وهم مجاهدون الا من فسدت نيته .

فاذا تقرر ذلك فالمطالب التى وضعها الامام كالحق والدين اللازم .

فتداعى الناس فيما يلزم كل واحد منهم حيث وقع تقدير ذلك على قدر الأرض أو الملك أو المواشى مما يعين حكمه الشرع . ولا ريب فى ذلك . فكيف ينبغى أن يقال هذا مرجعه الى غير الشرع كما رأيناه من بعض الفقهاء .

فلنتيقظ لذلك والله ولينا وكفى) .

وقد تتبع الجلال هذا الحكم بضمير العالم المحقق الشجاع وبفهم المدقق وبثورية الأحرار .

يتساءل أولا عما يقصده المتوكل بالحكم الذى قال به محققو العلماء . هل المقصود به قياس الأرض العشرية على الأرض الخراجية وقياس الحر على العبد ؟

لا يعقل هذا فهو كقياس الأعمى على البصير والظلمات على النور .

أم يقصد المتوكل أن الامام يملك رقاب الناس وأموالهم ، أم هل يقصد أن أرض اليمن خراجية أصلا لا قياسا . فالمراد بقولكم كالخراج التماثل والقياس .

وعليه فان من الجائز فرض الضرائب على من لا يملك أرضا ولا بيتا ولا مالا ولا متجرا اذ هو ضربه السيد على عبده .

وهذا الحق الذى يدعيه المتوكل لم يقل به أحد من علماء الزيدية وانما نسب الى الامامية وهم الشيعة الاثنى عشرية .

وهم لا يجيزون هذا الحق الا لاثنى عشر اماما وليس المتوكل واحدا من هؤلاء الأئمة .

واذا ادعى المتوكل بأن أرض اليمن خراجية أصلا لا قياسا فان الجلال يعترض عليه فى ذلك بأنها كانت على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم عشيرة اذ أن أهلها أسلموا طوعا وذلك خبر لا ينكره انسان .

فما الذى جعلها خراجية . ما الذى أخرجها عن أصلها ؟ اذا كنت تزعم أن السبب فى تغيير وضع هذه الأرض استيلاء الأتراك فترة من الزمن على اليمن . فالأتراك فساق وليسوا كفارا ولا سييل الى تكفيرهم مع اقامة الأركان الخمسة .

ولو كانوا كفارا لما جازت ذبائهم ، وأنتهم تجيزونها ، ولا نكاح نسائهم وأنتهم تبيحون ذلك ، ولا دخول المساجد ولا البيت الحرام . وقد صليتم معهم وأديتم فريضة الحج بجوارهم وهناك فرق كبير بين الكفار وبين الفساق .

(ولا أحصر ما بين أحكام الكفار والفساق من الفروق الظاهرة) . وهكذا يتمشى هذا العالم الجليل مع أدلة بطلان هذا الحكم مادة مادة . وينتهى الى تحريم الاعتداء على أملاك الناس واخراجهم عنها الا بوجه من وجوه التمليك المعروفة لقوله عليه الصلاة والسلام « لا آكل مال امرئ مسلم الا بطيبة من نفسه » .

ويسوق الأدلة على أن ملكية الأفراد المسلمين لا تتغير باعتداء الكفار عليها . ويتساءل مستكرا :

(وكيف يملكون علينا ؟ !)

(عن ابن عمر أن غلاما أبق له الى العدو فظهر عليهم المسلمون فرده رسول الله صلى الله عليه وسلم الى مولاه) .

وقصة أخذ المشركين ابل رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيها الجدعاء وكانت امرأة أبى ذر ترعاها . وساقوها حتى أتوا دارهم وكان الى الليل وركبت امرأة أبى ذر الجدعاء وتسلفت بها وفى غمرة الخوف والحرص على النجاة نذرت أن نجها الله بها أن تنجرها .

ونجها الله فأخبرت رسول الله صلى الله عليه وسلم بنذرها فقال «بئس ما جزيتها » وأخذها ..

وما ذلك الا لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى أن الكفار لم يملكوا الناقة بأخذهم إياها ومن ثم لم تملكها امرأة أبي ذر فهي اذن قد نذرت ما لا تملك .

ثم ان تحريم مال الغير معلوم قطعاً فلا يعارضه الا صريح آية أو خبر متواتر أو اجماع .

وأين كل ذلك مما ساقه المتوكل من الأدلة .

فلا بد عند الاستدلال على جواز أخذ هذه الأموال والاستيلاء على هذه الأملاك من أحد هذه الأدلة القطعية فكل ما ساقه المتوكل ظني ولا يعارض الظني ما هو قطعي .

ألم تر أيها الملك أن الأحزاب عندما أحاطت بالمدينة استولت على جميع أموال المسلمين ولم نسمع أن النبي صلى الله عليه وسلم قسمها بين المسلمين بعد ذلك بل (أقر كل أحد على ما كان له) .

ان العلامة الجلال كان شديد الخوف من أن يعدو هؤلاء الطامعون على أموال الشعب وأملكه تسترا وراء هذا الحكم .

وقد صدقت ظنونه . فقد عدا الأئمة المتعاقبون على أرض اليمن انتزعوها من مالكيها بغيا وملكوها لأتباعهم . وتحول اليمن الى اقطاع كبير . وصار ما فى أيدي الناس عرضة لسطو الأئمة وأطماع عمالهم ووزرائهم .

وأصبحت الجنود التى يوجهها الامام لتسطو وتنهب وتروع عباد الله الآمنين أصبحوا مجاهدين فى سبيل الله .

وأخيرا يوجه الجلال الى المتوكل اعتراضا مدمرا . ويقول انك تزعم أنك امام والامام عالم مجتهد والمجتهد يقول برأيه هو لا برأى غيره اذ فرق بين المجتهد والمقلد .

(ثم قوله « قال محققو العلماء » لا ينبغى أن يكون معتمدا لمجتهد لأنه ان وجد الدليل اعتمد عليه وان لم يجده طلبه ولم يرجع الى اجتهاد غيره

ولا لمقلد أيضا . لأنه مأخوذ عليه الوقوف عند أهل مذهبه . وهذه المسألة مخالفة لقواعد المذهب . فأى فائدة فى « قال محققو العلماء » ؟)

واليكم بعض فقرات من كلام الهادى الجلال :

(ثم قال « وليس الجهاد مجرد ملاحمة الحرب .. الخ »
فنقول : اطلاق الجهاد على الأعداد ليس حقيقة الجهاد اللغوية ولا الشرعية . يعرف هذا كل أحد وان أطلق اسم الجهاد على الأعداد فمجاز لا يصلح دليلا) .

(وأما قوله « ان القوة فى زماننا الجند » . فلا شك فى فساد الزمان ولكننا لا نفسر الأحكام الشرعية تبعا لفساد الزمان ونفسر القرآن بخلاف ما بينه فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه .

والامام انما قام ليبين الأحكام الشرعية لا ليعمل على ما يقتضيه الزمان فيما قد حكم شرعا .)

(ثم قال « ان الجهاد لا يختص بجهاد الكفار والبغاة ولكنه ذلك مع جهاد المنافقين » وفسرهم بأنهم :

« الذين لا يمثلون لأحكام الشرع الا كرها وخوفا من صولة الامام .. الخ »

فالمعروف فى تفسير المنافق أنه من يظهر الاسلام ويبطن الكفر . فيا الله من الحكم بالكفر والنفاق على أمة محمد صلى الله عليه وسلم بمجرد المعاصى .

وهل هذا الا رأى الخوارج ؟ !) .

(ثم قال « وقد يكون ذلك من فرد من الضعفاء » . فنقول مهما لم يتحزبوا فلا يجب جهادهم واذا فعلوا جاهدهم المسلمون) .

وفى النهاية يخشى الرجل على حياته من نصيحة أوجبها عليه دينه فيقول :

(والله انى لم أرد بمقاتتى العناد ولم أقصد الا الاسترشاد وما جرأنى على هذا المقال الا أنى قد رأيت المولى قد تعرض برسائته هذه للمباحثة فى ميدان الاستدلال) .

ولعل هذا الحكم الذى أصدره المتوكل والرد عليه من الهادى الجلال يوضح حقيقة هامة وهى أن الشعب اليمنى لم يفقد أحراره فى أحلك العصور وأقساها . وأن مقاومته للطغاة ظلت على مدى السنين حتى توجت بالثورة الأخيرة المجيدة .

وهذا الحكم الذى عرضناه عليك لم يقتصر شره على العصر الذى صدر فيه فحسب وانما أخذ شره يزداد مع الأيام ويتفاقم مع تبدل الحكام ويمتد أثره المستطير حتى نال الرعية منه كل بلاء .

وتوالت الأيام وتناسى العلماء رأى الهادى الجلال وتذكر الملوك والحكام فتوى المتوكل واستندوا اليها واختفوا وراءها فى كل مال سلبوه وكل حق ضيعوه وكل جناية ارتكبوها .

وسنرى بعد هذا بنصف قرن أن ما توقعه الجلال قد حدث وأن اليمن قد عانت من هذا الحكم الكثير وكان كل امام تمتد يده الى أملاك الناس يقول فتوى المتوكل اسماعيل .

قالوا (١) امامهم اسماعيل عالمهم	أفتاهم بمقال فيه برهان
يقول ان جنود الترك كافرة	دانت لهم من جميع القطر بلدان
وبعدهم قد ملكناها بقوتنا	صارت الينا حلالا بعدما بانوا
وكل شخص من الزراع عاملنا	على الذى بيديه أينما كانوا
ابليس سول هذا والنفوس دعت	اليه رغبتها فيها لها شان

ويقول ابن الأمير :

خراجية صيرتم الأرض كلها وضمنتم العمال شر المعاشر

(١) من شعر الحسين بن عبد القادر الكوكبانى فى عهد المنصور حسين وسياتى الحديث عنه

وأصبحت أرض اليمن فى رأى بيت القاسم مثل أرض خير التى
انتزعت من أيدي اليهود عنوة .

فالترك كانوا قد حكموا هذه البلاد وسيطروا عليها ثم انتزعت منهم بعد
حرب . فمن حق الامام أن يتصرف فيها كيف شاء وكل يمنى فى ملكه أجير
أو عامل ومن حق صاحب السلطان أن يستبدل به غيره أو يتصرف فى هذه
الأرض كيف شاء .

وهكذا أصبح الأئمة يقطعون أتباعهم وذويهم البلاد اليمنية يتصرفون
فيها كيفما يحلو لهم وكثيرا ما كان الأئمة يتاجرون بهذه الأرض ويساومون
بها منافسيهم حتى يسكتوا عنهم ويخلوا بينهم وبين الأمامة. وكان من جراء
هذا أن تمزق اليمن شرمزق وعمقت أسباب الفرقة بين المدن والقرى
والنواحي ، بين القبائل بعضها البعض وانعزل الشعب لا يرى للدولة سلطانا
ولا حقا عليه لأن مرجعه فى كل أموره الى ذلك الاقطاعى المتسلط الذى
يتحكم فيه وفى مصادر رزقه . فهو الذى يملك الأرض والدور والمواشى
والدواجن وتورث الاقطاعية عنه اللهم الا اذا كان فى ورثته ضعف ورأى
الامام أن يساوم بها من هو أقوى منهم .

وسرى بعد قليل أن الاقطاعيات الكبرى كانت مستندا لأبناء القاسم
يرتكزون عليها فى طلب الملك فان لم يصلوا اليه فلا أقل من أن يوسع الامام
الجديد دائرة اقطاعهم أو أن يترك لهم ما فى أيديهم ويخلوا بينه وبين
الامامة .

ولنتتبع بعد أن مات المهدي أحمد بن الحسن ١٠٩٢ هـ أن ملك اليمن
كان يتنازعه الاقطاعيون من أسرة القاسم وأن المشكلة بينهم كانت استبقاء
ما بأيديهم أساسا وحبذا بعد ذلك الوصول الى الحكم .

وما أن يأتى عصر المنصور حسين عام ١١٣٩ هـ حتى نرى الشعب
يتلوى من حكم السادة ، من حكم الاقطاع .

الفصل الثالث

من القاسم إلى المهدي صاحب المواجه

(١)

مات القاسم في عام ١٠٢٩ هـ عن عدة أولاد منهم محمد والحسن والحسين واسماعيل وعبد الله .

وقد فارق الدنيا بعد أن مهد الطريق لدعوته ولأبنائه بالطرق التي أشرنا الى بعضها والتي جعلت اليمن تفتح أبوابها لنظرياته ولأسرته وليجتمع الى هذه الأسرة السلطة الزمنية والدينية .

فما أن سوى قبره في شهارة الا اعتلى ابنه محمد العرش متلقبا بالامام المؤيد بالله وتجمعت الأسرة من حول المؤيد تؤازره وتشد ملكه ولم تكن هناك معارضة الا ما كان بعد موت أخيه الحسن اذ عارضه ابنه أحمد بن الحسن ثم لم يلبث الخلاف أن انتهى بالصلح .

وقد رأت الأسرة أن التفافها حول المؤيد بما جبل عليه من انعزالية وانكباب على العبادة خير طريق لتدعيم سلطانهم وقد بقى الامام في شهارة وشرق الأخوة وغربوا يوطدون سلطان هذا الملك .

وقد كانت للحروب التي دارت بين الشعب اليمني وبين الأتراك في هذه الفترة فرصة لهذه الأسرة كي يتمكن كل واحد منهم من منطقة من مناطق اليمن ييسط فيها نفوذه ويستغل خيراتها ويبيع ويشترى في الحكم باسم القبائل المستوطنة في تلك المنطقة .

وكان اذا قام امام من الأئمة سارع ذوو النفوذ من هؤلاء السادة الى الدعوة لأنفسهم أو للدخول فى الصراع القائم بين المتنافسين . وما ذلك الا للوصول الى أحد أمرين :

— اما أن تمكنهم قوتهم والظروف المحيطة باليمن الى الوصول الى الحكم .

— واما أن يساوهم الامام الأقوى فيقهرهم على ما تحت أيديهم من بلاد ينفردون بها وبخيراتها وبشعبها استغلالا واستعبادا .

ولنتتبع صورا من هذا الاستغلال الذى يؤكد فكرة الأسرة عن ملك اليمن وشعبه اذ كانوا يعتبرون اليمن ملكا خاصا بهم لا يحق لأحد أن ينازعهم فيه . وأن ما ينشأ بينهم من خلاف لا يحق للشعب أن يشارك فى البحث عن أسبابه وانما على الشعب أن يقدم الجيوش الى سادته ليقتتلوا وليمزق اليمن بعضه بعضا .

وعلى الشعب أن يقدم القبائل لتنهب والبلاد لتخرب وماذا يضير القادة اذا « خططت » قبيلة على قبيلة أو خربت مدينة من المدن وماذا عليهم ان استبيحت الحرمات . أليس من مهمة المؤرخين أن يتجاهلوا ذلك كله وان ذكروا شيئا منه أعقبوه بقولهم وقد حدث هذا بدون رضى الامام وعلمه .

(٢)

بعد موت المؤيد عام ١٠٥٤ هـ قام المتوكل اسماعيل بن القاسم من ضران فدعا لنفسه يعارضه فى دعوته عدد من السادة وفى نفس الوقت يدعو عدد منهم لأنفسهم :

— أحمد بن القاسم من شهارة .

— محمد بن الحسن بن القاسم من اليمن « بلاد تعز وما حولها » .

— ابراهيم بن محمد بن أحمد بن عز الدين من صعدة .

أما أحمد بن القاسم فقد دارت بينه وبين أخيه حروب لم تكن كفة الحرب فى صالحه ولعل ذلك راجع الى ضيق ذات يده وعدم قدرته على

ارضاء أطماع الأتباع . وما زال ينتقل من شهارة الى عمران الى ثلا حتى أحس أن الموقف بدأ يفلت من يديه .

وانقاذا لكرامته توسط بعض ذوى رأى فاجتمع الاخوان وتناظروا حتى يتبين أغزرهما علما . ومن طبيعة الأمور أن يحكم بالغبلة لاسماعيل صاحب النفوذ الأقوى والمال الأكثر .

وليرجع الى الحكم الذى أصدره المتوكل اسماعيل ومناقشة الهادى الجلال له ليتعرف القارىء أن الرجل لم يكن العالم المتمكن من علمه بقدر ما كان الملك الذى يستغل السلطان لصالحه ويخضع الأحكام الشرعية لهواه . يأتى بعد ذلك محمد بن الحسن بن القاسم وكان التفاهم قويا بينه وبين عمه فسرعان ما تنازل عن الدعوة اليه حتى يغمض المتوكل عينيه عما كان يفعل بالبلاد التى تحت يده وحتى يبقى محمد أكبر قواد اسماعيل « يقبض حواصل أحسن البلاد » كما يقول المؤرخون .

وسنرى أن محمدا هذا قد سار سيرة عمه فى اليمن الأسفل فكان حكمه بلاء وشقاء .

وعندما ناقش الداعى محمد بن على الغربانى مساوىء حكم المتوكل كان أبرز هذه المساوىء ما يصنعه نجل الحسن فى اليمن الأسفل .

ومثل ما يفعل نجل الحسن فى اليمن الأسفل من أرض اليمن من خيل للمال سرا وعلن كثيرة تجرى على غير سنن

لا حق ما تؤتى بلا أثمان

الى آخر هذه القصيدة التى سنتعرض لها فى القسم الثانى من هذا الكتاب .

ويتولى من بعده أخوه أحمد بن الحسن وطل الرجال يعيثان فى اليمن الأسفل سفكا للدماء واعتداء على الحرمات ونهب للخيرات كل ذلك فى ظل الشعارات الدينية التى رفعها المتوكل اسماعيل . « كفار تأويل - بغاة -

نواصب — منافقون لا يمثلون لأحكام الشرع الا كرها وخوفا من اصوله
الامام بجنده أو بعضهم » .

(أما السيد ابراهيم فما زال أمره يضطرب فتارة يبايع وتارة يظهر بقاءه
على دعوته وتكرر منه ذلك ولم يكن معه ما يعول به من جند ولا أتباع) على
حد تعبير الامام الشوكاني في كتابه البدر الطالع ولا غرابة فالرجل بعيد عن
الأسرة ولا سبيل الى بقاءه على ما تحت يده الا أن يذكر بنفسه كل حين حتى
يترك لبعض شأنه . وساعده على أن تعاوده الأطماع تصرف المتوكل مع ابن
أخيه على بن أحمد بن القاسم فقد أقطعه البلاد الشامية منذ ١٠٦٦ هـ فضببطها
بالقمع والارهاب حتى اطمأن المتوكل لها فعزل «عليا» واستبدله بابنه الحسن،
فما كان من على الا أن رفع راية العصيان ونازع عمه الملك ودعا لنفسه
وأفسد عليه لواء الشام الى آخر أيام المتوكل . وبموت المتوكل اسماعيل عام
١٠٨٧ هـ تنازع الملك :

— القاسم بن محمد بن القاسم دعا لنفسه من شهارة وتلقب بالمنصور .
— أحمد بن الحسن بن القاسم مما يجاور صنعاء وتلقب بالمهدى .
— على بن أحمد بن القاسم الذى ظل على دعوته من أيام عمه من بلاد
صعدة .

وكان القاسم من القوة والنفوذ الدينى ما أرهب الأسرة فما أن علم ابن
الامام المتوفى محمد بن اسماعيل بدعوة القاسم حتى سارع بمبايعة المهدي
أحمد بن الحسن . وهاهو الحسين بن الحسن بن القاسم من رداع يبايعه
ويمده بالمال والمشورة .

والغريب فى الأمر أن ابن المهدي محمد بن أحمد (١) هو الشخصية
البارزة التى فضلت القاسم على أبيه ولعله وجد فى امامة القاسم ما يضمن
له البقاء فى اليمن الأسفل يتقاضى المال من حله وغير حله كما يقول
المؤرخون .

(١) هو المهدي صاحب المواهب الذى سيأتى ذكره بعد

وكان كل من القاسم والمهدى يرسل كتائبه الى أنحاء اليمن لتأكيد الدعوة واجتمعت الكتائب في ذيبين (وجهه (١) القاسم أخاه الى مدينة خمر في جند واسع وأنفذ من رؤساء الأهنوم رجلا يقال له أبو راوية الى بلاد حجة لحفظ تلك الأطراف) ودارت رحى الحرب بين الطرفين في حجة واستولى جند المهدى عليها وقبضوا على بعض أفراد الأسرة وقتلوا أبا راوية الذي يرمز له المؤرخون بما يشعر بازدرائه لأي فرد عادى من أبناء اليمن .

وكان المهدى من البراعة بحيث عرف كيف يستغل تلك القوى التي تجمعت من حوله ويلتهم ملك اليمن من ابن عمه فتوجه اليه واجتمع به (ووقع الاتفاق بينهما ثم بايع القاسم للمهدى وسلم الأمر له اختيارا . ونظرا في المصالح . وبقي القاسم في شهارة وكانت اليه هي وبلادها والشرفين) يأكل خيراتها ويتصرف في خراجها وزكاتها .

وليحاول كل أن يفهم هذا « الاختيار » الذي تمت به البيعة وذلك « النظر في المصالح » بعد تلك المذابح التي حدثت والقبائل التي مزق بعضها بعضا .

ولعل المصالح التي يمكن فهمها من كل هذا أن القاسم استغل بخيرات شهارة وبلادها والشرفين كما رضى على بن أحمد في صعدة أن يبايع المهدى على شروط مماثلة وفي له بها .

(٤)

ولم يلبث المهدى أن توفي في عام ١٠٩٢ هـ فقامت الدنيا ولم تقعد أبدا .

— من شهارة عاد القاسم بن محمد بن القاسم ليدعو لنفسه باسم المنصور .

— ومن رداع نادى الحسين بن الحسن بن القاسم لنفسه •

(١) نشر العرف لزيارة

— ومن المنصورة بالحجرية دعا محمد بن أحمد بن الحسن بن القاسم وتلقب بالناصر وسرى بعد أنه سيغير لقبه مرتين حتى استقر على لقب المهدي المشهور بصاحب المواهب .

— ومن صعدة دعا على بن أحمد بن القاسم .

— ومن صنعاء دعا محمد بن اسماعيل بن القاسم .

يا لليمن المسكين كل هؤلاء يلعبون في أشلائه ويمزقون وحدته
ويزرعون الحقد والبغضاء بين قبائله .

وليع الجيل الحاضر والأجيال القادمة — وجه اليمن المشرق ومعقد
آماله — ان ما ترسب في أعماق القبائل من فرقة وتنازع انما فرض عليهما
فرضا من رجال تستروا وراء الدين . يدفعون الشعب الى قتال يزعمونه
« قتالا دينيا مقدسا » ويجلسون في النهاية على موائد الصلح بنفوس طامعة
وأيد متنازعه وأنياب شرهة لا تشبع من الدماء وبطون خاوية لا تقنع من
الأموال والجبايات .

وما أصدق ابن الأمير عندما يصور حالة وطنه بقوله مخاطبا لأفراد هذه
الأسرة :

مزقتم شمل هذا القطر بينكم	كل له قطعة قفر وعمران
وكلكم رقى في ظلم قطعته	مراقيا مارقاها قبل خوان
نقدموا العدل والانصاف في أمم	قد طال منكم لهم ظلم وعدوان
تفسحوا يدا فرعاياكم مفارقة	أيدي سبا ما لها في الأرض أوطان

ولنجد الى تصفية الموقف بين الأئمة الخمسة :

أما صاحب رداع الحسين بن الحسن فقد اجتمع — ببوار ذمار —
بمحمد بن اسماعيل الداعي من صنعاء وبعد مفاوضات رضى الحسين أن يفوض
أمره الى القاسم صاحب شهارة وأن يرضى لنفسه بما يرضى به القاسم صاحب
شهارة .

وقد علمت من قبل أنه كان ينصر على القاسم أحمد بن الحسن ويمده
بالمال والمشورة ولكن سياسة الحكم وأطماعه تشرق بالناس وتغرب .
ثم التقى القاسم بالمؤيد فى السودة واتفقا على أن تكون البيعة للمؤيد
على أن يبقى القاسم بشهارة (واجرائه ما كان عليه من الحال والبلاد) (١) .
ومن الطبيعى أن يبقى الحسين بن الحسن فى رداع مسيطرا عليها وعلى
خيراتها .

وهكذا صفى الثلاثة الموقف بينهم وصار أمرهم الى المؤيد محمد بن
اسماعيل بن القاسم .

ثم لحق بهم على بن أحمد بن القاسم لما اطمأن على أن يترك له المؤيد
ما تحت يده فبايع واستمر على حاله فى بلاد صعدة آمرا ناهيا .
بقى الموقف بين المؤيد وبين الداعى من المنصورة محمد بن أحمد وقد
ترك له المؤيد ما تحت يده من اليمن الأسفل ليعيث فيه فسادا وحصل بذلك
على بيعته .

(٥)

وفى عام ١٠٩٧ هـ توفى المؤيد — مسموما أو ميتة طبيعية — بعد أن
أوصى لأخيه يوسف بن اسماعيل ونازعه فى دعوته :

— محمد بن أحمد بن الحسن بن القاسم وهو المعروف بالمهدى صاحب
المواهب — يوسف من ضوران ومحمد من المنصورة — ودخل حلبة التنافس
معهما أصحاب الأطماع القديمة .

- على بن أحمد بن القاسم يدعو من صعدة .
- الحسن بن الحسين بن القاسم يدعو من رداع .
- الحسن بن المتوكل اسماعيل ينادى من اللحية .
- الحسين بن عبد القادر يصيح من كوكبان .
- الحسين بن محمد بن أحمد بن القاسم من خمر .

(١) نشر العرف

وكان كل المطالبين بالامامة يحسون بالخطر من ناحية صاحب المنصورة محمد بن أحمد وكان هذا الاحساس قويا لدرجة أنه جمعهم فى صف واحد وجمع جيوشهم الجرارة فى اتجاه المنصورة ولكن الرجل استطاع أن ينتصر عليهم جميعا بعامل المفاجأة وعامل الحظ معا .

وقد كان للنصر الذى حصل عليه محمد بن أحمد والهزيمة التى منى بها هذا الجمع الحاشد من الطامعين أثر ثقيل على اليمن وقد تناوله الشاعر بقوله :

ثم استطار شجار فى الخلافة اذ سرى الخلاف كسرى النار فى الشجر
بصعدة ورداع واللحية بل وكوبان وضوران وفى خمر
وشمر الكل فى جر الجيوش فكم هناك من أسد فيما يروم جرى

وفى عهد المهدي ولد محمد بن اسماعيل الأمير وسرى حياة ابن الأمير وآراءه مرتبطة بهذه الفترة أيما ارتباط .

فلا بد لمن يريد أن يتعرف على ابن الأمير أن يتعرف على هذه المقدمة التى طالت بالقارئ ولا بد أن يلهم بطرف غير يسير من حياة المهدي صاحب المواهب .

فبعد عامين من اعتلاء المهدي للعرش ولد ابن الأمير وفى هذا العهد القاسى الغريب الملىء بأنواع الاضطراب والعسف والدماء المهرقة والأموال المغتصبة والحقوق المستباحة والحريات المقيدة المشردة نشأ ابن الأمير وتعلم .

ودفعته هذه الظروف الى أن يغير اتجاهه من اتجاه الأسرة المذهبية الى اتجاه مستقل بعيد عن العصبية مؤمن بالحرية الفكرية . مؤمن بالحرية العامة محارب للشعوذات والخرافات التى غلت الشعب فأثقلت قيوده . حريص على مصالح الشعب يتحایل على هذه المصالح أنى وجد الى ذلك سبيلا .

وما لنا تتعجل الأمور قبل أوانها فلنمض الى سيرة صاحب المواهب أولا
والى سيرة ثلاثة من الأئمة — أو بمعنى أصح — ثلاثة من الملوك حتى نخلص
لابن الأمير وقد تقشعت سحب التاريخ من حوله واتضح للقارىء عظمة هذا
العالم الجليل فى كل خطوة خطاها وكل رأى نادى به .

قلنا من قبل ان جموع الداعين قد تجمعت من الشمال واتجهت نحو
المنصورة وكان محمد بن أحمد قد تمكن من منطقة المعافر « الحجرية » وما
حولها منذ عام ١٠٦٦ هـ وكانت هذه المنطقة الى اب مصونة عن الجور
والجبايات فترة من الزمن قبل وصول المهدي فلما حل بها أخذ يجمع المال
من حله وغير حله حتى اجتمع له من الأموال مالا يخطر لعقل ببال فصال على
الرعاة ومد يده الى الأقطار وساعده ذلك مع ما جبل عليه من صولة قطاع
الطرق من التغلب على جيوش جرارة ساقها منافسوه وحاصروا بها المنصورة
حتى كاد الموقف يفلت من يديه . ولكنه وثب على الأمراء فى مضاربهم وعلى
غرة منهم فقتل منهم من قتل وقبض على الباقين ولم ينج الا من فر .

وفى هذه الاغارة أعمل هو وأتباعه السيوف فى بنى عمه حتى أشاع
فيهم ذعرا قاتلا جعل من ولى هاربا لا يتوقف الا فى بلاد صعدة .

وبايع يوسف بعد أن لقى الهزيمة من الخديعة وامتدت يد المهدي الى
اليمن يجمع المال من حله وغير حله ويتسابق سيفه الى رقاب الناس فى طيش
أعمى وفتحت السجون أبوابها للأحرار وللطامعين على السواء .

تحرك الى اليمن الأعلى فلما وصل الى « المحرس » ضرب أعناق جماعة
غير قليلة ثم ادعى أنهم لصوص .

ولما وصل الى ذمار ضرب عنق الفقيه زيد بن على الجملولى متهما اياه
بأنه دس السم للمؤيد وأنه سبق أن شاطر أهل صنعاء أموالهم وأنه كان
يتعاطى التنجيم .

ثم ها هو يضرب عنق ابن خليل من رؤساء القبائل وجماعة غير قليلة من
أتباعه .

وأحس بالخطر من ناحية عمه الحسين بن الحسن بن القاسم وكان الرجل لا شك يطمع فى الامامة وله أعوان وله مكانة فتربص به واستدرجه حتى تمكن منه وغدر به وقبض عليه وعذبه أشد العذاب ونكل به وأرسله يرسف فى الأغلال بليل الى سجن كوكبان .

وعاد بيت القاسم بعد هذه الحادثة الى التجمع وكان لم يمتض على حكم المهدي ثلاثة أعوام واتخذوا من مكانة الحسين مادة للدعاية ضد الملك لتجميع الأنصار وأغروا المنافس القديم يوسف بن اسماعيل أن يعيد الكرة ويدعو لنفسه مرة أخرى وأوهموه بكثرة الأنصار من الحيمة وخولان .

ولكن المهدي سرعان ما تغلب عليهم وقبض على يوسف وأكثر أنصاره .

وساقوهم فى القيود الثقيل مشيا على الأقدام من قرب صنعاء الى « ملاح » مع العذاب الشديد والاهانة المزرية وهناك كان المهدي قد أعد لهم حكما ممهورا بتوقيعات العلماء بأنهم بغاة سعوا فى الأرض فسادا فيصدق عليهم حكم القرآن بأن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض .

ولكن عالما واحدا وقف فى وجه المهدي ونادى ببطلان هذا الحكم فلم يستطع السفاح أن ينفذه فى الثائرين . فألقى بهم فى منزل خال من كل شيء بلا طعام ولا شراب ولا ماء ولا تراب ثم أمر ففرقوهم قلى السجون وبقي يوسف فى سجنه سبع عشرة سنة لم يطلقه الا فى عام ١١١٨ هـ .

ويتساءل الانسان ماذا فعل المهدي بالقبائل التى ناصرت منافسه على الحكم ، يجيب المؤرخون عن هذا بأنه جند عليها أكثر القبائل تعمل فيها نهبا وسلبا وتقتيلا وتشريدا ثم أمر فخربت ديار أهل الحيمة وخولان وقطعت أعنابهم وأشجارهم .

ولا نجد صورة توضح شخصية المهدي امام القارىء من تلك الصورة التى رسمها له الامام الشوكاني فى كتابه البدر الطالع :

(كان يأخذ المال من الرعايا بلا تقدير وينفقه بلا تقدير . وكانت اليمن

من بعد خروج الاتراك منها الى أن ملكها صاحب المواهب مصونة عن الجور
والجبايات وأخذ مالا يسوغه الشرع . فلما قام هذا أخذ المال من حله وغير
حله فعظمت دولته وجلت هيئته وتمكنت سطوته وتكاثرت اجناده وصار
بالمملوك أشبه منه بالخلفاء ومع ذلك فهو يتزهد فى ملبوسه فانه كان لا يلبس
الحرير ولا رفيع الثياب وكان يسمى صاحب السجدة لأنه كان اذا خرج من
موكبه ورأى ما بين يديه من الأجناد المألثة للقضاء ترجل عن جواده وسجد
شكرا لله وتواضع ومرغ وجهه بالأرض .

وكان سفاكا للدماء بمجرد الظنون والشكوك وقد قتل عالما بذلك السبب
رشاع على اللسن أنه كان يأتيه فى الليل من يخاطبه بأنه يقتل فلانا وينهب
مال فلان ويعطى فلانا ويمنع فلانا فاذا كان النهار عمل بجميع ذلك . ولعل هذا
المخاطب له من مردة الجن .

وكان يميل الى أهل العلم ويجالسهم ويتشبه بهم وربما قرأوا عليه .
ولم يكن عالما ولكن كان يحب التظاهر بالعلم فيساعده على ذلك علماء حضرته
رغبا ورهبا وله تصنيف سماه « الشمس المنيرة » فى مجلد لطيف وقفت عليه
وفيه نقل مسائل من مؤلفات جد أبيه الامام القاسم بن محمد ولكنها غير
مرتبة ولا منقولة على أسلوب بل لا يدري المطلع على ذلك الكتاب موضوعه
ولا ما غرض مؤلفه .

وسبب ذلك كون مؤلفه ليس من العلماء + ومع هذا فكان يقرأه عليه
جماعة من أكابر العلماء وليس فى وسعهم نصحه وتعريفه بالحقيقة لما جبل
عليه من الطيش وتعجيل العقوبة .

ومن علو (١) همته أنه اذا أراد الايقاع بوزير من وزرائه أو أمير من
أمرائه أمر الجند بانتهاب ماله ولا يأخذ منه شيئا) .

وتكتمل الصورة بتلك الأبيات التى يصور فيها ابن الأمير هذا الطاغية

الشرير :

(١) كانت هذه علو همة فى نظر الشوكانى نظرا لان الائمة كانوا يفتعلون
الغضب على عمالهم ويأمرون بانتهاب أموالهم لصالحهم هم لا لغهرهم .

سفاك كل دم عاداه صاحبه مفرق منه بين الرأس والبدن
هناك كل حمى ان لم يطاوعه كم من معاقل أخلاها ومن مدن
وحين ادبرت الاقدار عنه أتت له المقادير بالآفات والمحن
وعاد أعوانه عوناً عليه ولم ينفعه أهل ولا مال مع المن

وكان صاحب المواهب كما رأينا من كلام الشوكاني جاهلاً يدعى العلم
ويفرض نفسه على العلماء فرضاً سخيلاً ممجوجاً ..

يروى أن زيد بن محمد بن الحسن بن القاسم كان من أكبر علماء عصره
وأحد أساتذة ابن الأمير وكان المهدي لا يستقبله إلا إذا تزيى بزي العلماء
وأمر فأفرغت خزائن كتبه وجعلت عن يمينه وشماله ثم يجلس إليه فيعرض
عليه أمهات الكتب كأنه قرأها واستوعب ما فيها وفهم ما فى بطونها .

وليس أقرب من صاحب المواهب فى كل صفاته تلك إلا احمد حميد
الدين فقد كان الطاغية احمد سفاكاً لكل دم عاداه بمجرد الظنون والشكوك
وقد قتل عالماً بذلك السبب كأن أتيا يأتيه بليل اقتل فلاناً وانهب مال فلان .
وكان كصاحب المواهب يجمع المال من حله وغير حله .

وكان جاهلاً جهل صاحب المواهب دعياً على العلم والعلماء وعلى الشعراء .

يستحضر بعض المسائل الفقهية ليفاجئ بها العلماء فى مجلسه ليظهر
عليهم وليظهر له أنه أعلمهم .

ومما يذكر أنه دخل المسجد يوم الجمعة والامام يخطب فصلى ركعتى
التحية . ولما قضيت الصلاة واجتمع العلماء فى مجلس أبيه أثير موضوع
الصلاة والامام على المنبر . واذا بالرجل قد استظهر كل ما قيل فى هذا
الموضوع حتى سلم له الجميع أمام أبيه .

ولكنهم عندما خرجوا من المجلس تهامسوا « جاهل يريد أن يظهر علمه .
خلا الى الكتب حتى حفظ المسألة وقدم بها . ولولاها لما حضر هذا المجلس »

ثم ها هو يستجدي الشعراء من خلاصائه قصيدة فى مهاجمة الاشتراكية وهو لا يعلم عن الاشتراكية قليلا ولا كثيرا ونسى ان الاسلام أول من نادى بالاشتراكية والعدالة الاجتماعية . ورحم الله شوقى وهو يمدح سيد الرسل بقوله :

الاشتراكيون انت امامهم لولا دعاوى القسوم والغلواء
وكان صاحب المواهب لا يرعى للقرابة حرمة ولا يعرف امام اطماعه ابا
أو ابنا ولا أخا ولا صديقا . كما كان غدارا لا يقيم وزنا لعهد ولا يرعى حرمة
لميثاق .

فقد رأيناه ينصر القاسم بن محمد على أبيه بعد موت المتوكل اسماعيل
وأراد الله أن يمثل ابنه معه نفس الدور :
يوجهه الى حرب منافسيه ، وعندما يصل الى أب يخشى بادرة أبيه
فينضم الى خصومه ويباع يوسف بن المتوكل .

ويطلب ابنه المحسن فيحبسه ويضيق عليه حتى يموت فى سجن ذمار
ويسلط ابن اخيه القاسم على البلاد ويعلم الله كم سفك القاسم من دماء
وخرب من ديار وارتكب من جرائم فى سبيل عمه صاحب المواهب .
يداهم قبائل المشرق ليلا حتى اذا أصبح الصباح عاد بالراءوس محمولة
والاسرى مغلوله والاسلاب مسوقة .

ويشترك فى حرب الناجم ابراهيم المحطورى فيفتك به وبالقبائل التى
التفت حوله فتكا ذريعا ثم يتولى البلاد التى كانت تحت يده .
ويذهب الى قبائل وادعة فيخرب الديار ويقيد المشايخ ويفرقهم على
السجون .

كل هذا حتى اذا احس المهدي خطرا من ناحية القاسم حبسه فى المواهب
وشدد عليه .

وكان من قواده صالح بن هادى حبيش يرسله لخراب البلاد وقتل
العباد فينطلق فى سبيل ذلك دون وازع من دين او ضمير .

أمره بتخريب حوث فخر بها .

وكان يعطيه العدد الكثير من الحوالات لا تدخل تحت مقدور على الضعفاء والمساكين ببلاد المغرب يحملها الرجل ويتقاضاها من الشعب أضعافا مضاعفة .

ومع ذلك لما أحس أن الرجل قد كبر حتى أصبح يخشى منه على الملك أوعز الى ابن أخيه القاسم فما زال يداوره ويداهنه حتى سلط عليه عبيده فاغتالوه ووضعوا سلاسل الحديد فى رقاب اعوانه .

هل هناك من فرق بين ما فعل صاحب المواهب وما كان يفعله الطاغية احمد مع ابيه آخر ايامه .

فبعد اصدار الدستور أحس يحيى بالخطر يتهده من حوله فأرسل الى احمد ليحضر من تعز ويشد ازره امام العواصف المتجمعة فى صنعاء .

ولكن أحمد كان يعلم مايدبر لأبيه — بل يقال انه كان طرفا فى مؤامرة اغتياله — وكان ينتظر ذلك اليوم الذى يتخلص فيه الثوار من يحيى ليثب هو الى الحكم .

ولذلك فان الطاغية لم يخطيء طريقه بعد مقتل أبيه فاتجه الى صنعاء يظن ان الثورة قامت لصالحه فلما تأكد ان ابن الوزير قد نصب نفسه حول طريقه الى حجة .

لهذا لم يكن محل غرابة الثائرين فى سجن حجة ان يعامل بعض زملائهم فى الثورة معاملة رقيقة رفيقة فى السجن ثم لم يلبث ان اطلق سراحهم . حتى لقد أثارت هذه العلاقة بين أحمد وبين هؤلاء الثائرين بعض الوسوس فى النفوس .

ولا يتسع مجال الحديث فى هذا الكتاب أن نحقق هذه الجوانب من ثورة ١٩٤٨ فلعل الظروف تسعد ببحث خاص عن اسرة حميد الدين التى هى امتداد لأسرة القاسم بن محمد .

وكان يحيى يرمى أحمد بالعقوق وكان يتخوف على بقية أبنائه منه لأنه كان يعلم مدى اطماعه وما تجيش به نفسه لذلك فقد قسم اليمن بين الأخوة قبل مقتله . وانتقل الاقطاع من أسرة القاسم وأصبح مقصورا على أبناء يحيى فاخص الحسن بلواء أب .
وأعطى الحديدة لعبد الله .

وكان من نصيب المطهر حوث وما إليها .
أما أحمد فقد ظفر بحجة ثم اغتصب لواء تعز دون رضى أبيه . وكان بينهما بسبب ذلك ما كان .
وغالب الظن ان هذه الوحشة كانت من أسباب تقاعس أحمد عن اجابة أبيه عندما استغاث به فى آخر ايامه وذلك على أحسن الظنون اذا استبعدنا اشتراكه فى التآمر عليه .

وترى أحمد يضرب ثورة ١٩٤٨ يغرى القبائل بخيرات صنعاء فتدخلها وتستبيح حرمتها بصورة لم يعرف لها مثل فى التاريخ .

ويقبض على أخيه ابراهيم الذى كان قد خرج على ابيه وانضم الى الشوار فيقبض عليه ويسوقه الى سجن حجة ويوكل به من يسومه عذابا نفسيا وعذابا وحشيا . وكان آخر المطاف أن أرسل اليه يخيره بين ميتتين أن يقتل بالسيف او يقتل بالسم .

وكان ابراهيم قد تحطم بعد هذا الذى لاقاه فى سجنه فاختر القتل بالسم فدرسوا له السم فى الغداء ومات !

وكان أحمد يتخوف من ان يتحرك يحيى شقيق ابراهيم للأخذ بالثأر وسلاح السم هذا سلاح خفى خطير لا يعرف من أين يأتى وكيف يقدم فسارع الى أخيه الآخر يحيى فدرس له السم ولحق بابراهيم .

وكان الطاغية أحمد شريرا تطربه رؤية الدماء ويهزه منظر الضحايا يتساقطون من حوله حتى أنه كان يثور فلا تهدأ ثورته الا اذا رأى دماء

تسيل فاذا ثار وأعجزته الظروف عن رؤية أحد صرعاه دخل الى حريمه فامتدت يده الى جارية أو زوجة فلطمها ليكسر احدى أسنانها وينظر الى الدماء تسيل من فمها فى سعادة غامرة .

وكان قد تلقى عن ابيه ان سلاح السم هذا سلاح قاس لا يرحم خفى لا ينطق وانه خير سلاح للخصوم الأقوياء وعندما تغلب على صنعاء بعد الثورة كان قائده الأكبر على بن حمود شرف الدين وتوقع أحمد ان الرجل لا يؤمن جانبه وان انفراده بالحكم لا يحتمل مزاحمة قواد ولا كبير قواد لذلك فقد دبر للرجل فقتله بالسم كما قتل اخويه يحيى وابراهيم من قبل .

كل هذا يمكن أن يدفع القارئ الى الشفقة والالام والثورة والاستغراب جميعا . ولكن الأمر الذى يثير التقزز ويعتصر القلوب ألما واشفاقا ويطلق الدماء فى العروق ثورة وغضبا هو ما فعله الطاغية مع الزرائق . وما فعله مع الذين حاربوه فى معركة الصليل .

فبعد حرب الزرائق التى استمرت عامين انتصر عليهم واستباح لجنوده كل شئ يخطر ببالك فى ديارهم . انتهب الأموال ثم جمعها فى بيت الفقيه واستباح النساء ثم جمع من سلم من القتل أسرى يساقون فى سلاسل الحديد واختار ٨٠٠ من أعيانهم واقتادهم الى سجن حجة . وهناك أراد ان يعمل فيه السيف بساحات المدينة دفعة واحدة . ولكن مشيرا عليه خوفه من أبيه اذ كان يحيى لا يجب أن يقتل خصومه جهرة أبدا بل كان يلجأ الى الاغتيال بالسم والوقية .

فوكل أحمد بزعماء الزرائق من يتعهدهم بالسم فلم يمض عام حتى أجهز على ثمانمائة مقاتل لم يبق منهم الا الشيخ سالم دوريش الذى التقى بشوار ٤٨ فى سجن حجة وكان يروى لهم ما صنعه الطاغية بالرجال .

وبعد حرب الصليل من بلاد الزيدية بتهامة ساق ألفا وثلاثمائة مقاتل وكان مصيرهم كمصير الزرائق .

قسوة تقشعر منها الأبدان وجرأة على الدماء تعف عنها وحوش الغاب .

وكانت شهوة القتل والتشفى فى نفس الرجل تدفعه الى التجرد من كل مظاهر الانسانية . فاذا أراد الفتك بانسان تحت يده مد له فى الأمل حتى يتوقع العفو ثم يفاجئه بتوقيع عقابه فيه .

حتى ان أخويه عبد الله والعباسى بعد ثورة ١٩٥٥ لم يتخرج عن التصرف معهما هذا التصرف .

ارسلا اليه يراجعانه ويطلبان عفوه واطلاق سراحهما من سجن حجة . فكان جوابه :

« أتتما لا تبقيان فى الحبس غير يوم أو يومين » .

وبعد يومين جاء اليهما أمر الطاغية لا بالافراج ولكن بالسيف والنطع .

وقد يظن ظان ان الرجل الذى يلجأ الى وسائل البطش هذه فيه بعض طيش ولكن أحمد كان بعيد الغور واسع الحيلة اذا أراد أن يقضى على انسان .

وهذا ما فعله مع حسين بن ناصر الأحمر وابنه حميد بعد ان عاد من رحلة الاستشفاء والترف فى روما .

أخذ يصابر الرجلين ويداورهما ويشيع انه لا يريد بهما الا الخير وفى الوقت نفسه يخذل الانصار من حولهما ويشير خازات وثارات بين حاشد عنى عليها الزمن . وذلك ليدفع أصحابهما الى خذلان حسين وابنه ويستدعى ولده البدر . ويسراليه ان السياسة تقتضى تقرب القبائل واشار عليه ان يطلب اليه حسين بن الاحمر وولده حميدا وان يعطيها « الوجه » والعهود والمواثيق وان يستبقيهما عنده فى القصر .

وقد أحس الرجلان فى النهاية بما يدبر لهما ولكن بعد ان استحال عليهما الخروج من قصر البدر .

وفى مدينة السخنة يستدعى الطاغية أحمد صهره أحمد عباس ويطلب اليه أن يأتيه برأس حميد وتعلق الرأس فى واجهة قصر الامام . ثم يطلب حسينا ليفاجأ برأس ابنه معلقة على واجهة القصر .

أى قسوة هذه . وأى وحشية . وأى تجرد من كل معانى الانسانية .
لتكن المبررات التى استند اليها الطاغية فى قتل حميد . كما شاء ان
تكون .

ولكن أى حجة يقف بها أمام الله هذا المتستر وراء مسوح الامامة عندما
يفاجيء والدنا برأس ولده على هذه الصورة .

وكان ما توقع . لم يستطع الشيخ ان يتجلد أمام رأس الشهيد فخذلته
قدماه وأخذ يصيح ولدى ولدى . والوحش المسعور يتشقى ويتلذذ بهذا
المنظر حتى اذا انطفأ بعض حقدته نادى لصهره وامره ان يذهب بحسين ليقتل
فى المكان الذى قتل فيه ولده وان يؤتى بالرأس ليعلق مقابلا لرأس حميد .
وقد يظن ظان ان هذا العمل الذى قام به أحمد عمل شاذ لا يقره عليه
اسان .

ولكن انظر الى صدى الجريمة لدى أفراد الأسرة .

اتصل عبد الله بن الحسن تليفونيا بالبدر قائلاً :

بشرى . ما هى هذه البشرى واذا بعبد الله يزف اليه أخبار الجريمة .

وكان المتوقع ان يغضب البدر للعهد الذى قطعه أو للايمان التى وثقها .
أو لقواعد الضيافة التى يحترمها كل عربى . ولكنه نظر الى جلسائه وقال :
الحمد لله أعدو العدة لليلة تتقارع فيها الكؤوس .

ولم يكن شيوخ القبائل من أطراف اليمن ليظنوا أن الطاغية ستصل به
الدناءة الى هذه الصورة .

فذهبوا اليه يتشفعون ويتوسلون .

ولكن الطاغية فاجأهم بان الامر قد انتهى ثم يعقب . هذا مثل .

واذا كانت وحشية الأب قد أطربت الابن وهزت اعطافه .

فان من الغريب أن يقف يحبى هذا الموقف من ابنه والعهد بالآباء
يوجهون ويؤدبون وينصحون ليقف الأبناء عند حدود العقل وجادة الصواب .

كان أحمد وليا للعهد وأصدر أمرا لمدير المال أن يقدم له مبلغا كبيرا
ورأى مدير المال أن يرجع الى يحيى قبل التنفيذ .
ورفض يحيى بما عهد فيه من بخل شديد .

فما كان من أحمد الا ان ذهب بليل الى منزل مدير المال ومعه بعض
الاتباع يحملون « صفايح البنزين » وصبها على المنزل من أطرافه واشعل
النيران فى المنزل ومن فيه .

واستمع يحيى الى الخبر فى سعادة وفخر ان وهبه الله خليفة بهذا الحزم
أو بمعنى أصح بهذه الوحشية .

وكانت السجون فى عهد أحمد تنقص بالأحرار تماما كما كانت فى عهد
المهدى .

وكان السجناء يصبحون فى كل يوم ليودعوا الدنيا فى انتظار السيف
كما كان يفعل أحرار حجة بعد ثورة ١٩٤٨ .

وكان صاحب المواهب لا يقف عند حد من شهامة أو ضمير فى سبيل
اطماعه .

دعا الحسن بن على بن أحمد بن القاسم لنفسه فى عام ١١٢١ واستنفر
أخيرا فى صعدة بعد حروب ومآسى دامية . وأصبح خطره لا يخشى منه
صاحب المواهب .

ولما قام الحسين بن القاسم داعيا بعد ذلك بقليل تنازل صاحب صعدة
عن دعوته وباع الحسين فى عام ١١٢٤ هـ واشترك فى حرب المهدي معه .

واذا بصاحب المواهب يرسل اعوانه فدرسوا للحسن بن على السم عند
عودته الى صعدة . فسقطت أسنانه دفعة واحدة وفاض دما ثم فارق الحياة .

كل هذا الظلم الذى وقع على الشعب قد حرك الألسنة على ما هو فيه
من هوان وفساد وبدأت الأسر الحاكمة وقد كثر عددها وامتدت اطماعها تلجأ
الى القبائل تطلب منها العون والنصرة فتفككت أواصر العصاية التى كانت

ترهب الشعب وتغل حريره وامتدت ايدى زعماء القبائل الى المشاركة فى الغنائم وأخذ نصيبها من اقطاع البلاد وبدأ كل داعية لنفسه من أسرة القاسم يعدد مساوئ الحكم وفساد الدين وانحلال الأخلاق .

عندئذ خفت حدة الضغط على الأفكار والآراء فانفسح المجال الى آراء حرة تنبثق من بين الصفوف . وهنا نرى ثمرة هذا الظلم وهذا الاضطراب ظهور العالم الحر محمد بن اسماعيل الأمير .

بدأت الثورة تشتعل على صاحب المواهب عندما ذهب اليه الحسين بن القاسم يراجع فى جزء من اقطاعات أبيه كانت فى بلاد الروس وكان الحسين قد أظهر الزهد والورع والتقوى واشتهر ذلك عنه . أو هو نفسه عمل على ان ينشرها والشعب المسكين سرعان ما يصدق كل ما يقال أملا فى ان يتملك أمره مصلح يخلصه مما هو فيه .

والغريب أن الحسين يتعفف ويتحرج من أن يأكل من مال أبيه بحجة انه من اتباع صاحب المواهب ويعمل له .

والأب قد اقطعه صاحب المواهب كما اقطع غيره من الموالين والاتباع . حتى اذا احس الحسين خطرا يتهدد جزءا يسيرا من اقطاعية أبيه سارع الى المواهب يراجع من أجلها .

وفى الحق أن الدلائل تشير الى أن الرجل كان يحدث نفسه بالامامة وكان ينتقل بين البلاد مجعاً للانصار عند اظهار دعوته .

ولم يحسن المهدي استقبال الحسين فأحس الرجل بالخوف وغلب على ظنه ان المهدي عرف ما يسعى اليه وانه آخذه بالظنون فخرج من المواهب بليل على قدميه حتى رده أسوار صنعاء . وهنا التقى بجماعة من بيت القاسم منهم .

— زيد بن محمد بن الحسن العالم أستاذ ابن الأمير الذى كان المهدي لا يلقاه الا مستترا وراء زى العلماء ومتخفيا بين الكتب .

— يوسف بن المتوكل اسماعيل الذى نافس المهدي مرتين لا يتخلى عن أطماعه فى الامامة .

— محمد بن عبد الله بن الحسين العالم الذى اشتهر بغزارة العلم حتى
لقب بالمفتى .

وتحدث الحسين مع صحبه على من يقوم بالدعوة فى وجه المهدي أما
يوسف فقد تعلق بكبر السن .

واما صاحباه الآخران فقد زهد الأول ورأى الثانى ان الثمرة لم يحن
قطافها بعد .

ولكن الجميع شجعوا الحسين على الدعوة فتلقفها من أفواههم وذهب
الى مكة ليحج وطاف بالبلاد وعاد ليبدأ دعوته فى عام ١١٢٥ هـ .

ولتكن هذه فرصة أخرى لناخذ صورة عن صاحب المواهب وحكمه وما
ارتكب فى حق هذا الشعب المسكين .

والصورة التى تقدمها اليك نقلا عن الوثيقة التاريخية التى دعا بها حسين
لنفسه والذى تلقب بالمنصور فهى دعوة وجهت الى الشعب كافة وما تحمله
من مساوئ الحكم أمر مسلم به ولا يتنازع عليه . فهو الأساس الذى يطلب
المنصور من الخاصة والعامة أن يستجيبوا اليه وعلى أمل تغييره وعلى وعد
لهم بأن يسير سيرة فى الشعب غير سيرة غريمه .

يقول الحسين :

(أما بعد : يا أمة الاجابة ويا أيها المخاطبون بأركان الاسلام وبالتوبة
والانابة .

فانكم تعلمون ما قد اشتهر من الضلالة والمظالم وما قد اشتهك الله
سبحانه مما قد نهى عنه من المحارم . حتى لقد نبذت الشريعة الغراء واتخذت
ظهريا . وعد كلام الله من القول اليقين قولاً فرياً وتعدى على الضعفاء بهتك
أعراضهم واستئصال أموالهم وتشريدهم أشتاتاً فى المفاوز لا يرثى لحالهم .
ولويت الصدقات عن مصارفها الثمانية القرآنية . فأخذت أضعافاً مضاعفة
حتى لم يبق لأرباب الأموال من الأصل بقية .

وهجرت الواجبات فلا صلاة لأكثرهم تامة .

وصارت هذه المفاصد بقرى المسلمين وأمصارهم عامة وأصبح مال الله دولا ونهباً وبين الفساق وعباده خولا قد استبعدهم أهل العتور والشقاق والفقراء باستبداد من لا نصيب له فيها في فاقة شديدة ، والأيتام والأرامل في بلايا من الاحتياج عديدة . قد حرموا جميع ما يستحقونه . بل صودروا بأخذ ما يملكونه .

وعطلت الأحكام والحدود الشرعية وارتكبت جميع المآثم ويالها من مصيبة على الاسلام ورزية وتهالك في اغتصاب الأموال وتضييع الشرائع من الراعى والرعية (الخ .

ومع كل هذا الذى قيل فان الصورة لم تكتسل بعد عن المهدي صاحب المواهب ولكننا نحرص أن نعطي جانباً هاماً عن هذا الرجل . فقد كان متقلبا لا يثبت على حال ولعله كان مصاباً بضعف الشخصية والشذوذ مثلما كان الطاغية أحمد تماماً .

تلقب أولاً بالامام الناصر لدين الله ثم الامام الهادي ثم تلقب أخيراً بالامام المهدي .

وفى عام ١١٠٣ أمر بعمارة مدينة الخضراء على نحو ميل من رادع وأنفق على بنائها الأموال الطائلة وما زالت آثار البحيرة التى تفنن فى تشييدها بهذه المدينة . ثم لم يلبث أن هجرها للخراب وعمر مدينة أخرى التى اشتهر بها وهى مدينة المواهب على ثلاثة أميال من ذمار فى عام ١١١١هـ

ولا نستطيع فى هذا البحث أن نتبع الحرب بين المنصور وبين المهدي ولكننا نستطيع أن نقول بأن مئات القرى قد نهب وأُن الحرمات قد انتهكت وان مئات الآلاف من الشعب قد سقطوا صرعى شهوة الحكم بين هؤلاء الطامعين ولم يدع المتنافسون وسيلة شريفة أو دنيئة الا لجأ اليها الجانبان .

وكان السم والاغتيال من الوسائل المشروعة . وكانت الرشاوى تحول القواد والأنصار من معسكر الى معسكر دون خجل حتى أن زيد بن على

ابن القاسم — وهو ابن أخى الحسين — قاد جيش عمه وانتصر به نصرا حاسما ولكنه وهو فى قمة انتصاره يتناول من صاحب المواهب كمية من الذهب تجعله ينقلب على عمه يؤلب عليه ويخذل الناس من حوله .

وهاهو القاسم بن الحسين بن أحمد — وهو ابن أخى المهدي — وكان مسجوناً فى المواهب وتلفت المهدي من حوله فلم ير لهذه الثورة من قائد سوى ابن أخيه فيخرجه من السجن .

ولما كان القاسم نهازا للفرص فلم يترك هذه الفرصة تفلت من يديه ضمنا للموقف القريب والمستقبل البعيد .

وتراه يشترط على عمه عدة شروط :

كان يحس بالخطر من أولاد المهدي فاشترط اخراجهم من الولايات وابعادهم عن أداة الحكم .

— كان يريد لنفسه مركزا يستند عليه عند الدعوة لنفسه مستقبلا فطلب ولاية صنعاء وما اليها وبلاد عمران وكوكبان والمغرب اقطاعا ينفرد به كما طلب حصون اليمن كلها اليه فى تصريح أمورها .

-- ثم يعطى من السلاح والخيول ما يريد .

ولم يكن أمام المهدي من سبيل الا أن يسلم له بما طلب .

ثم انطلق القاسم بجموعه ليدوخ أعداء عمه . ولكنه عرف بعين البصير مدى الثورة التى تجمعت فى النفوس على عمه . ثم ان آثار الغدر والسجن مازالا يؤثران فى نفسه ثم ان الرجل فى المواهب قد كبر وخرف وأصبح الخير فى ركابه غير دائم وان جانبه لا يطمأن اليه .

ثم هو قد استولى منه على غاية مايطمع اليه . وأخيرا فالأمل العريض عند خصومه أيسر فى تحقيقه من التزام جانبه لذلك لم يلبث أن اتصل بالحسين واجتمع به ودبرت المؤامرة وارتد القاسم يقود الجيوش على عمه ويحاصر المواهب حتى يضطر صاحبها الى التنازل عن الملك ومبايعة المنصور حسين فى عام ١١٢٧ هـ وعلى شروط اشترطها صاحب المواهب لنفسه .

ولا بد قبل أن نودع هذه الفترة القاسية من حياة الشعب اليمنى من أن نعطي صورة مبسطة يعرف منها القارئ مدى بشاعة الحرب فى هذه المحنة وما أصاب البلاد من جرائمها من تخريب .

ضاق الأمر على صاحب المواهب حتى لم يبق تحت يده الا بعض تهامة والبنادر ومن ذمار الى اليمن الأسفل . فاذا به يلجأ الى النوبة ويطلب السودان من كل بندر ويلبسهم الطرايش الحمر والجوخ الأحمر فاجتمع منهم خلق لا يحصى كثرة والزهم بوضع السيف من باب شيام الى أطراف الشام بجهات صعدة .

وكانت الجيوش لا تمر بقرية أو مدينة الا خربتھا وأتت على ما فيها حتى ودع البلاد أهلوها وارتحلوا عن اليمن يطلبون النجاة .

واذا حاصروا مدينة (غلت الأسعار (١) وانقطعت الميرة وعز الحطب فيضطرون الى خراب البيوت وايقاد أخشابها وأبوابها) .

وأخيرا انتزع القاسم قائد الجيوش من المهدي تنازله عن العرش للمنصور الحسين بن القاسم فى شوال عام ١١٢٧ هـ .

وهذه بعض فقرات من وثيقة التنازل التى وقعها المهدي وكتبها بلفظه وخطه :

(فانه لما اتصل الحرب بيننا وبين محاط الولد الأغر علم الاسلام القاسم بن الحسين على ما دعا اليه الولد الأفضل شرف الاسلام والدين المنصور بالله رب العالمين الحسين بن القاسم بن المؤيد حيث أجاب دعوته أهل اليمن ..)

ويذكر الوساطة بين الجانبين فى الصلح على شروط اشترطها هو لنفسه ثم يقول :

(١) نشر العرف لزبارة

(فرجع عندنا وعند ذوى الدين أن نحقق دماء المسلمين ونسعى فى جمع كلمة المؤمنين ونخمد نيران الفتن التى كادت أن تهلك سكان اليمن بالبيعة والموالات الصريحة للسيد العلامة المنصور ..)
أرأيت الى أن أطراف القوة جميعها كانت فى يدى القاسم واذ الحسين لم يكن يملك من أمر البيعة الا اسمها .

ثم أرأيت الى أن الدين مفترى عليه فى هذه الحرب الوحشية وان النعم المسكين الذى كاد يهلك والذى يتباكى عليه المهدي فى آخر أيامه بالدنيا وبالملك . ومن قبل كان يجند عليه النوبة والسودان ويأمرهم بأن يضعوا السيف فى الرقاب من باب شبام الى أطراف الشام وهذا الأمر يوجه من امام يتكلم باسم الدين الى (قوم لا يفهمون الكلام) (١) .

أرأيت الى أن الفتن وحقق دماء المسلمين لم يلتفت اليهما الا بعد أن أكلت الحروب الأخضر واليابس والا بعد أن غطت دماء المسلمين سفوح الجبال وسالت بها الوديان .

أرأيت الى أن المهدي والقاسم لم يلتقيا فى عهدهما الى اليتامى والأرامل والمشردين وانما كل ما حرص عليه كل منهما أن يضمن لنفسه بعض الاقطاعات فيشترطها المهدي على القاسم ويشترطها القاسم على المنصور ولتذهب الدماء وكل شئ الى الجحيم .

وقد اشترط صاحب المواهب لنفسه بلاد خيان وبلاد ريمة وبيت الفقيه .

كما اشترط القاسم بندر عدن والمخا ولحج وحبيس وصنعاء وبلادها واللحية والزيدية وأبى عريش وحجة وكحلان وعفار والشرفين والسودة .
وصار الى محمد بن اسحق واخوته بلاد وصاب وتعز والعدين وشرع ومغارب ذمار .

(١) حرصنا على نعل بعض تعبيرات المؤرخين دون ان نحدد مواضعها بالنسبة للجيش التى جندها المهدي من سلالات الجيش الحبشى الذى غزا اليمن قبل الاسلام من بقايا جيوش دولة بنى نجاح .

والى محمد بن الحسين بن عبد القادر بلاد كوكبان جميعها .
ثم بعد هذا كان التفويض فى جميع البلاد للقاسم أين الامام المنصور
الذى نصبوه على العرش من كل ذلك ؟! كان له مجرد النظر فيها .
وأين اليمن العظيم ذو الحضارة الخالدة .

وأين الدولة .

وأين نظام الحكم ووحدة الشعب ؟

يجيب على ذلك ابن الأمير بقوله الذى نقلناه اليك قبل قليل :

مزقتم شمل هذا القطر بينكم كل له قطعة قفر وعمران

ويلاحظ أن أبناء اسحق لم يظهروا على مسرح السياسة بصورة
واضحة الا بعد تنازل عمهم صاحب المواهب . فقد اكتفوا فى عهد المهدي
الى الخلود الى الراحة فى ظل المواهب وصاحب المواهب .

وسنرى بعد قليل أن تحرك الأطماع ستحرك الرجال ويظهر بنواسحق
فى حياة الدولة وحياة محمد بن اسماعيل الأمير بصورة واضحة .

(٦)

هل رأيت الى هذا الشقاء الذى شغل الشعب كله فى ظل المهدي وبعد
أن تقشع ظله عن البلاد .

وهل رأيت القسوة القاسية التى كانت تلجأ اليها هذه العصابة — على
حد تعبير ابن الأمير — دون أن يأخذها فى اليمن واليمنيين رحمة أو وازع
من ضسير أو أن يتحرك فى أفئدتها نبض يشفق أو دم يرحم .

ومع كل هذا فقد انطلق الدعاة فى حياة هذا الطاغية يقيسون الأدلة
المضللة على صحة امامته فالجن من جنوده والملائكة تكلمه وتبشر الأمة
بامامته أى وحق الأمانة فى أعناقنا نقل للقارىء صورة أمينة لما كان يفعل
بآبائه .

وان كان هناك بارقة من شك فليستمع من يريد أن يعجب أو من يحب
أن يضيف عجا الى عجب الى ما يقوله القبوى صاحب منظومة عقد الجواهر
الذى أكدها صاحب نفحات العنبر :

(واما المبشرات بامامة الناصر فمنها مارواه والده الامام المهدي أحمد
ابن الحسن بن القاسم بن محمد — رحمه الله — انه روى فى بعض الأيام
أنه اجتمع عنده فى مكان عظيم آل القاسم فلم يشعر الا وقد أشرف عليه
نفران من جانب المكان فى صورة حسنة .

فقال لهما : من أنتما ؟

فلم يجيبا بشيء فكرر عليهما مرارا ، فحصل فى فكرته أنهما جبرائيل
وعزرائيل وقال فى نفسه :

« قد أتى جبريل مبشرا وعزرائيل لقبض الروح » .

فالتفت اليهما وقال :

من اختاره الله تعالى للأمة بعدى .

فقالا له :

القائم الناصر الخوات من شهدت له الملائك بالعالى من الدرج .

قال وكان الى جانبه الامام المؤيد بالله محمد بن المتوكل فقال :

هذا وأشار اليه .

فأعادا له البيت المذكور .

فقال : هذا وأشار الى ولده الحسين بن المهدي .

فأعادا له البيت .

فأشار الى ولده الناصر محمد بن أحمد .

فقالا : نعم) .

فهل كان الرجلان اللذان رآهما المهدى من مردة الجن جاءا يشران
بنصير أمين لهما من بيت القاسم .

أم أن الرجل رأى فى ابنه محمد مخايل القدرة على حفظ ملكه وملك
آبائه فأراد أن يضيف الى ميراثه اليه تلك القصة المفتعلة تعينه على ما هو
مقبل عليه .

أم أن الرجل لم ير ولم يرو وانما هى فرية افترها عليه صغار النفوس
الذين لا يأكلون العيش الا من بين أقدام الملوك .

مهما يكن من شئ فان ملائكة السماء أجل قدرا فى نفس كل مسلم
وأكرم على الله وأعلى من أن يزفوا الى الأمة هذه البشرى التى انقلبت
على الناس شرا مستطيرا .

الفصل الرابع

من القاسم الرهيب الى العباس الجشع

(١)

كان القاسم يعد العدة للوثوب على الحكم منذ فترة طويلة وقد جمع له من الأعوان فى بلاط عمه المهدي ما يستطيع به أن يتمكن من هدفه عندما تتاح له الفرصة .

وقد انضم اليه فى آخر الأمر من بلاط المواهب الوزيران صالح الحريبي ومحسن بن على الحبيشي .

وكانت ثقة المهدي بالحريبي قد تدعمت منذ حصاره فى المنصورة اذ بذل الحريبي له من العون فى التغلب على أعدائه الشئ الكثير فحفظها له وكانت سببا فى علو مكاتته واستثثاره بأكثر بلاد اليمن الأسفل اقطاءا يتصرف فيه كيف شاء .

وقد وثق القاسم صلته بالوزيرين الخطيرين اذ كانا على شاكلته دهاء وسعة حيلة وقسوة على العباد .

وكان يعلم حق العلم أن الخطر كل الخطر فى أبناء صاحب المواهب وكان أبناء الامام يعلمون أيضا أن الخطر كل الخطر فى القاسم وفى الوزيرين جميعا .

وما زال السباق بين الفريقين ردحا من الزمن حتى تغلب جانب القاسم وصاحبيه فى حبس المحسن بن المهدي الى أن مات فى ذمار وتفريق بقية

اخوته على الولايات لابعادهم عن بلاط أبيهم وليخلو الجو لتلك العصابة
تلقى فى ذهن الرجل الذى كبر وخرف ماشاءت لها أطماعها من آراء
واتجاهات .

ساعدها على ذلك أن صاحب المواهب نفسه كان لا يرعى حرمة لبنوة
ولا يعرف من أعوانه الا من هو على شاكلته قسوة واندفاعا الى مدن اليمن
وقراء وبين قبائله تخريبا وتمزيقا .

وكان امام القاسم بعد التخلص من أبناء عمه رجل خطير له أنصار
ويقود جيشا قبليا يتعصب له ويأتمر بأمره وهو صالح بن حبيش ..

وقد علمنا أن صاحب المواهب كان يؤثر صالحا هذا ايما اثار وكان
يعطيه من الحوالات على الفقراء والمساكين مالا يدخل تحت حصر . وكان
الرجل ينطلق بتلك الحوالات يجمع بها ويزيد عليها ما يدخل فى قدرته نهبا
وسلبا وتخريبا .

وقد انتهى الأمر بصالح أن اغتاله القاسم بواسطة خدمه وعبيده
فاستدعاه الى خيمته وفصله عن أعوانه الذين حضروا معه فى خيمة منفصلة
واحتزوا رأسه ثم انقلبوا على أعوانه يسوقونهم فى سلاسل الحديد وقد
شدت الى رقابهم .

لم يكن يظن بصالح أن ينافس القاسم فى ملك أو يزاحمه على الامامة
والكن الرجل كان بعيد النظر يحسب لغده ألف حساب فالظلم الذى وقع
على الشعب فى هذا العهد قد حرك الألسنة ، والطامعون فى الامامة قد
أججوا نيران الثورة فى نفوس الشعب وأصبح جانب القبائل خطيرا غير
مأمون . فكل من يتطلع الى الامامة يحسب لهذه التيارات ألف حساب . ثم
هو ان وصل الى هدفه سيجلس على فوهة بركان يوشك أن ينفجر به فلا
شك أن هذه القوى لها مطامع وتنتظر بعد النصر مغنم كثيرة .. والشعب
يتربص تغييرا واصلاحا والقاسم لا يؤمن باصلاح ولا يعمل هذه السنين
الطوال ليشاركة فى ملكه مشارك وينازعه فى سلطته انسان مهما كان .

ثم ان هذا الداهية الكبير كان قد صرف همه منذ شبابه فى تجسيع السلطة وخدمة عمه فلم يجمع من المعرفة قليلا ولا كثيرا فأحس ناحية النقص هذه بعد فوات وقت الطلب وتحصيل العلم .

فلا بد اذن من أن يتحابل على الأمر حتى :

— يتخلص من أخطر معاونيه حتى لا يدل عليه وقد قرب النصر .

— يمتص السخط الشعبى بان يدفع ضحية تصدرت واجهة للظلم فترة من الزمن ويظهر هو الحريص على مصالح الشعب المدافع عن ضعاف الناس لهذا تخلص من ابن حبيش القوة الضاربة فى يد المهدي وعنوان البطش فترة من الوقت فى عهده .

وما أن تمت للقاسم هذه الخطوة . وما أن تخلص من أخطر أبناء المهدي وشتت بقية الأبناء فى البلاد وأفقدتهم الثقة فى أبيهم وأفقد أباهم الثقة فيهم .

ما أن فعل هذا حتى أخذ ينفذ عن ثيابه أوزار الحكم التى لصقت به وبأعوان عمه المهدي والتقى بالتأثرين الساخطين والطامعين فى الشمال وسرعان ما استطاع أن يتلفع بقميص عثمان ويبكى مع الباكين على الظلم والمظلومين .

ولا ندرى ماذا دهمى القوم حتى عرضوا عليه الامامة .

ترى هل يسارع القاسم الى قبولها .

كان أبعد نظرا من أن يترامى عليها بهذه السرعة فالخطة لم تكتمل بعد ومازال الأمر يحتاج الى كثير من التمهيد .

لذلك فقد تظاهر بالتعفف واعتذر عن قبول الامامة (١) (لأنه لم يكن فى العلم مستوفيا للاجتهد محيطا بما يحتاج اليه فى الاصدار والايراد بل أمرهم بسبايعة الحسين بن القاسم بن المؤيد صاحب شهارة) .

(١) انشوكانى فى البدر الطالع .

واجتمع بالحسين يومين وسرعان ما علم المهدي بطريق أو بآخر بهذا الاجتماع وبما كان من القاسم فلم يلبث أن أمر بحبس القاسم .
وكان هذا الحبس فرصة أخرى ليغسل عن القاسم ادران الماضى المثلث بكل أنواع الجنايات .

فلما اضطرب الأمر على المهدي وأرسل ابنه ابراهيم ليقاوم الفتنة من صنعاء اشترط لهذا أن ينتقل القاسم من صنعاء الى ذمار فقد كان القاسم خطيرا فى سجنه كما كان خطيرا وهو حر طليق .

ويعلم الله من الذى أشار على ابراهيم بهذا رأى فقد قرب القاسم بهذه النقلة من صاحبيه الحريبى والحبيشى يتبادلون الرأى ويدبرون أمرهم ويعدون له عدته فما أن وجدوا فى ابراهيم ضعفا فى مهمته حتى أشار الوزيران على الامام أن الأمر لا يصلح الا باطلاق القاسم واطلاق يده فى القبائل ومن يؤلبونهم عليه .

وكان الذى علمت من خروج القاسم بالغنائم التى اشترطها لنفسه ثم لم يلبث أن عاد مع الثائرين محاصرا لعمه حتى انتزع الملك منه للحسين بن القاسم كمرحلة مؤقتة لها ما بعدها .

وما بعدها قوى ثلاثة عليه أن يتخلص منها وبكل دهاء وحزم .

-- المنصور حسين الذى بويع بالامامة والذى صدره القاسم كمرحلة يمتص فيها سخط الساخطين وكواجهة يتستر وراءها القاسم الى حين .

وقد كان الرجل بارعا ايما براعة فى اختيار الحسين لهذا الدور فانه اختار رجلا لا يعرف مناورات السياسة ولا ألعاب الحكم . ثم ان الموقف كان أكبر منه وأشد تعقيدا وكان أعجز من أن يسير دفعة الحكم فى هذا البحر المتلاطم بالأمواج والمتناقضات .

— أبناء اسحق الذين برزوا بعد المواهب قوة تتجمع للوثوب على الحكم وقد نالت حظها من الغنيمة وطمعت أن تضيف الى ما أصابت تلك الاقطاعات التى خلصت لعمهم صاحب المواهب بعد أن غلب على أمره .

— المتطلعون الى الامامة من أمثال محمد بن الحسين بن عبد القادر
المتربص من كوكبان ومحمد بن عبدالله بن الحسين الملقب بالفتى
وغيرهما من الذين تحدثوا عن الظلم فأطالوا الحديث وهاجموا الفساد
فاتقنوا الهجوم عليه وعلى صانعيه .

ولما كان القاسم هو الذى قاد الجيوش الظافرة فانه لم يدع السلطة
تفلت من يديه ولم يخلص للحسين من الامامة الا اسمها فقط أو « النظر »
كما يقول المؤرخون .

ولكن انى للشعب أن يدرك توزيع الاختصاصات بين الرجلين فقد
عرف الناس الامام صاحب السلطة الدينية والدنيوية لذلك فان القاسم كان
يتصرف وكان المنصور يجنى الشوك ولم يترك له صاحبه من خيرات البلاد
ما يسد به تلك الأفواه الطامعة الظامئة بعد فتنة طحنت البلاد وأكلت الأخضر
واليابس .

فلهم يلبث أن اضطر المنصور الى التحايل على توفير المال وكان مما
لجأ اليه فتح دار سك النقود (دار الضرب) فى شهارة ولما لم تف بحاجته
فتح أخرى فى كوكبان ومن هنا ارتفع « الصرف » (١) وارتفعت ألسنة
الناس بالشكوى من حالة التضخم التى صاحبت هذا الاجراء .

وكانت دور الضرب هذه مصدرا لايتزاد أموال الناس وكان مما أخذ
على صاحب المواهب تغيير العملة فى كل عام عدة مرات بل لقد سمع ابن
الأمير أنه غيرها ثلاث مرات فى شهر واحد . وفى كل مرة يزيد وزن القطعة
أو ينقص وفى كل نقص أو زيادة قرارات بإبطال القديم والأخذ بالجديد
وفى كل من هذه القرارات يخسر الشعب ما لديه من أموال ويستفيد الملك .

وبجوار هذا الذى صنعه القاسم بالمنصور التفت الى الاقطاعيات التى
للمهدى ولأبناء أخيه اسحق فقد رأى ألا يتمكن أبناء المهدي وأبناء اسحق
من اليمن الأسفل مرة أخرى .

(١) الفكة .

فهذه المنطقة هي التي جمع منها المهدي من الأموال مالا يخطر لعقل
ببال وهي التي مكنته من أن ينتزع الملك من أبناء القاسم وأبناء شرف الدين
ثم ان هذه الاقطاعيات تتوسط هذه المملكة الكبيرة التي ظفر بها القاسم فلا
يمكن أن يطمئن الرجل لنفوذه وهو يقلب جنبه على جمر يشعله حقد أبناء
عمه المهدي واسحق .

وبدأ القاسم أولا في مراجعة المنصور أن يغدر بالمهدي في بعض
الاقطاعات التي اشترطت له مثل ريمة وبيت الفقيه ، وهنا يتدخل محمد بن
اسحق ويتوسط بين الامام المخلوع وبين الامام الموضوع ولكن الأخير كان
مترددا ضعيفا لا يملك من أمره شيئا ، ورأى القاسم أن يعالج الأمر جملة
فيتخلص من المهدي وأبناء اسحق بعد أن رأى جانبهم يميل عنه الى غيره
كأن الحسرة تؤجج أفئدتهم لما انتقل الأمر الى أحد أبناء عمومته وهم — في
ظنهم — أحق به منه .

وراود الأمل المنصور واستجاب للقاسم لعل هذه الاقطاعيات تخلص
اليه . ووافق صاحبه على ما رأى فلما وجه الأمر الى محمد بن اسحق ليرفع
يده عن ريمة وبيت الفقيه اذا بعمال القاسم تستولى عليهما « وكانت الغنيمة
الباردة » (١) .

وأحس المنصور بالخطر يتهده فجمع من حوله أبناء اسحق وعاد الأمر
بينهم وبين القاسم الى صراع دموى جديد .

ومن الطبيعي والأمر ما زال على هذا الاضطراب والاختلاف فان
أصحاب الاقطاعيات انكبوا عليها ينهكونها حلبا وادرازا ويسابقون الزمن
فيما يجمعون قبل أن يعدو عليهم ما عدا على المهدي وأبناء أخيه .

وفي الوقت نفسه يعجز المنصور أن يقدم لأتباعه الذين ساندوه أعواما
طولا ما كانوا يتطلعون اليه من خير في ركابه .

(١) نفحات العنبر

ومن الطبيعي أن تنطلق ألسنة بالنقد من جديد رغبة في الإصلاح وأن تنطلق ألسنة أقوى منها نقداً وأشد هجوماً رغبة في الملك .

وعندئذ يرى القاسم أن الثمرة قد حان قطافها وأن الوقت قد تهيأ ليلقى بتبعة الفساد الذي حل بالبلاد على المنصور وأصحابه ثم يكشف عن وجهه وأطماعه في الملك .

فيدعو اليه :

— الحسن بن محمد بن المتوكل قاضى قضاة القاسم فيما بعد .

— أحمد بن عبد الرحمن الشامى متولى القضاء الأكبر بصنعاء للقاسم .

— محمد بن عبد الله بن الحسين بن القاسم الملقب بالمفتى .
ويرسلهم الى المنصور طالبا منه أن يرفع أيدي أبناء اسحق عن جميع الأمور حتى تستقيم الأحوال وتصلح أداة الحكم .

ولم يوافق المنصور على هذا الطلب لأنه قد تأكد أن القاسم لا يهدف الى اصلاح الحكم وانما يهدف الى اضعافه وتفريق أعوانه وهذا ما توقعه القاسم . فما كان اختياره لهؤلاء الثلاثة الا اشهادا للشعب بأنه يريد الإصلاح ولكن أصحاب الأمر لا يتركون له طريقا الى الإصلاح .

يقول صاحب نفحات العنبر (وأراد المولى العلم — القاسم — اقامة الحجة بهم عليه) .

عندئذ يجمع القاسم من حوله الطامعين والمصلحين جميعا :

(وجمع (١) الأعيان اليه وقال :

أنا سيف من أجمعتم عليه .

ووجه الخطاب الى المولى يوسف بن المتوكل على الله اسماعيل وقال :

أنت المرجع عند المشكل .

(١) نفحات العنبر

فقال :

إذا قد رأى الصنو (١) محمد بن عبد الله والولد محسن بن المؤيد والأعيان من العلماء بقصور المنصور الموجب لخلعه فنحن بهم مقتدون وأما أنا فلا طاقة لى بهذا الأمر العظيم (٢) وقد مضى زمن الاستحقاق لى فى العصر القديم وإنما الصنو محمد بن عبد الله أهل لذلك .

فقال المولى محمد بن عبد الله :

أنا أتحمل هذا الأمر إذا كنتم له عوناً وظهيراً .

فرجع المولى العلم — القاسم — تأخير الخوض الى غد ذلك اليوم .

ولما حضر الأعيان فى اليوم الآخر قال المولى محسن بن المؤيد :

لا نرضى غير العلم اماماً . فهو الأنهض والأقوى على المسلمين ثم أرسل يده فبايعه واقتدى به من حضر وذلك فى ذى القعدة سنة ١١٢٨ هـ) .

(فوقع التجهيز للجيش من الجهتين (٣) وحصلت بينهم معارك وحروب يطول شرحها ولم يبق تحت يد « المنصور » وفى حوزته من البلاد الا مخلاف شهارة وكحلان والسودة والشرفين .

ثم تنكرت عليه قلوب القبائل ومالت عنه لذهاب ما فى يده من الأموال ولم يزل كذلك حتى توفى) .

أرأيت كيف أدار القاسم دفعة الاجتماع الأول حتى استطاع أن يحصل على قرار بخلع المنصور ثم لما أحس بالموقف يوشك أن يفلت من يديه الى محمد بن عبد الله فض الاجتماع وأجل الجلسة الى اليوم التالى حتى يدبر أمره مع محسن بن المؤيد فيصبح القوم وقد وجدوا أنفسهم أمام الأمر الواقع .

(١) الأنا .

(٢) هى أساليب التمتع المعروفة والرجل سيدعو لنفسه بعد ذلك ولولا ، اطماعه لما كان أول اقتراح له هو خلع المنصور وقد توقع من الجماعة ان يلحوا عليه فى قبول الامامة .

القاسم والمنصور .

وهذه الحركة البارعة التى قام بها القاسم لم تكن سوى اعلان للأمر الواقع . فهو الذى يملك القوة الفعلية وهو الذى يسيطر على أهم سلطات الدولة وأهم الاقطاعات وهو المتصرف فى كل شئ ولم يكن للمنصور سوى النظر كما يقول المؤرخون لهذه الحوادث .

ولكن الفائدة الكبرى التى جناها القاسم هو أنه أسكت أفواها طامعة كانت تتطلع الى الامامة فأوقع بها فى هذا الاجتماع حتى يخلص منها ومن أطماعها ولو الى حين .

وفى الوقت نفسه لم يتح لبنى اسحق الفرصة التى كانوا ينتظرونها ولم يترك لهم الزمن الكافى الذى يسكنهم من الأعداد للدعوة والحصول على ما تتطلبه الدعوة من أموال وأنصار وسلاح .

وقد بهت القوم من تلك المفاجأة فلم يكن فى تقديرهم أنهم سيواجهون القاسم فى هذا الوقت المبكر ، كل ما شغلوا به حينئذ هو اعداد العدة لمقاومة سلطته والحد من نفوذه عن طريق تقوية المنصور .

وكان جانب المنصور مأمونا والاطاحة به ميسرة فى أى وقت تتجمع لديهم أسباب الوثوب على الحكم .

فلما سارع القاسم باعلان خلع المنصور والدعوة الى نفسه حارب بنو اسحاق بجوار صاحبهم حربا عشوائية دون احكام أو خطة موحدة .

بعضهم مع المنصور فى الشمال والحسن بن اسحق فى الجنوب بتعز وأغروا صاحب المواهب أن يعدل عن تنازله السابق .

ولم يلبث القاسم بعد حروب سريعة قاسية أن يجبر صاحب المواهب على أن يعيد تنازله مرة أخرى . وهزم الحسن بن اسحق وسيق أسيرا الى صنعاء وانكمش المنصور الى عدة بلاد ينتقل بينها « شهارة وكحلان والسودة والشرفين » حتى تنكرت له قلوب القبائل ومالت عنه لذهاب ما فى يديه من الأموال) . وما زال على تلك الحال حتى مات عام ١١٣١ هـ حيث قام من

بعده أخوه الحسن يدعو لنفسه مرتين . صالحه المتوكل فى الأولى .مقابل بلاد
أصاب واستمر فى الثانية حتى مات فى عام ١١٥٦ هـ .

ولما رأى بنو اسحق أن الموقف أفلت من أيديهم سارع محمد بن اسحق
الى المتوكل فاشتراط لنفسه بعض الغنائم وأقام فى صنعاء فى ظل هذا
الكسب ويعد هو وأخوته ليوم قريب أو بعيد .

(٢)

وبعد عامين من دعوة القاسم الذى تلقب بالمتوكل وبعد هذا الصراع
وتلك الحروب التى دارت رحاها بينه وبين خصومه ابتداء من المهدي الى
المنصور الى أسرة اسحق بدا ينظر الى ثمرات الملك ليعوض على خزائنه
ما أنفقه فى أيامه الخوالى .

هذا مع التجاوز عن الفكرة بأن يكون القاسم قد أنفق من خزائنه شيئاً
فمثل القاسم لا ينفق فى الحروب وانما يكسب ويجمع ويملاُ خزائنه منها والا
فلم تنهب القرى وتخرّب المدن وتستصفى الأموال .

ومهما يكن من أمر فقد تذكر القاسم صديقيه القديمين صالح الحريبي
ومحسن الحبيشى فى عام ١١٣٠ بعد أن استبعدهما من حياته فترة عامين
فقربهما واستوزر صالحاً ومن ورائه محسن .

واستغل الرجلان دهاءهما وقسوتهما وتكالبهما على استعادة نفوذهما
عند المتوكل القاسم فاستجارت منهما البلاد والعباد .

وليتصور القارئ كيف يكون رد الفعل والشعور العام بعد هذه
الثورات والدعوات والحروب ثم يعود الأمر باليمن الى عهد صاحب المواهب
بكل ما فيه من قسوة وفساد .

غير أن صاحب المواهب كان قد كبر وخرف وضعف عن أن تمتد يده
الى الحكم بالصورة التى بدا بها هذا الحكم .

أما هنا فى أيام القاسم فقد تصدى للناس رجل يعرف أين يضع يده
ويحسن تصريف الأمر كله على ما يرسمه دهاؤه وتؤهله قوته .

لم يكن هاتف من الجن يأتیه بليل يقول له اقتل فلانا أو انهب مال فلان
وانما كان تديره وخبرته وأطماعه ومعرفته بجميع المعسكرات التى تعمل من
حوله هى التى تضع له الخطة وتدفعها الى هؤلاء المردة من الوزراء لينفذوها
بكل قسوة واحكام .

ويضج الشعب بالشكوى من جديد ويبلغ التذمر غايته فى عام ١١٣٢هـ
ويشارك فى هذه الحركة بنو اسحق فيجمعهم المتوكل فى السجن وعلى
رأسهم محمد بن اسحق .

فى هذه الفترة فكر المتوكل فى موضوع شغله طويلا وأحسن بخطورته
على مستقبل الملك له ولأولاده .

ونعنى به تلك الاقطاعيات التى مزقت البلاد بين الخصوم والأنصار
جميعا وأفقدت الملك سلطانه الا على بعض الاقطاعيات مثل بقية الاتباع .
وليس له بعد ذلك الا صنعاء وما حولها والا الدعاء فى الخطبة والندور التى
تجمع اليه التماسا للبركة من شعب مطارد برهبة هؤلاء المشعوذين .

حتى الزكاة كان أصحاب الاقطاعيات يتولون جمعها بأنفسهم وأعطى
لهم حق توزيعها على الفقراء من حولهم ويعلم الله أنهم كانوا يكلفون الفقراء
فوق ما يطيقون وكان أصحاب الاقطاعيات الذين يعطون حق تحصيل الزكاة
والتصرف فيها يسمون « الاجبار » .

ففكر المتوكل القاسم أن يصير الحق له حتى يحد من سلطان أصحاب
الاقطاعيات وحتى يجمع ما يعوضه عن اتفاقات الحروب التى خاضها وحتى
يمد نفوذه الى تلك المناطق التى كانت مغلقة عليه وعلى وزرائه .

ولو أن القاسم عمم بهذا القانون جميع الاجبار لكان الأمر محتملا
ومقبولا ولكنه أعفى خاصته وأتباعه وأبقاهم على ما هم عليه واختص هؤلاء
الذين يغشى منهم ويتربصون به .

وليت الأمر يقتصر على هذا التفريق ولكنه اختار الى تنفيذ رغبته واحدا ممن اشتهروا بالقسوة والتجبر واحدا من عامة الشعب ليتسلط على السادة .

وكانت كارثة لا يحتمل وقعها بالنسبة لهؤلاء المتألهين الذين ينظرون الى عامة الشعب من عليين . كان القرار وطريقة تنفيذه قاسيا ومذلا للسادة من بيت القاسم وغيرهم .

فهب أنهم سلموا باعادة الزكاة الى القاسم فكيف ترضى لهم مكائنتهم أن يجمعها منهم رجل من عامة الشعب مثل الشجنى .

وانطلق الشجنى بكل ما عرف عنه من تجبر وراء هؤلاء السادة يطالبهم بالزكاة فى سطوة وتعال وفى الوقت نفسه يمد يده الى الشعب المرهق المسكين ينتزع له ولن حوله من الجنود وللقاسم أيضا كل ما يستطيع الحصول عليه من أموال .

وحاول بعض السادة من بيت القاسم أن يراجعوا الملك فى قراره هذا فلم يستمع اليه فعرضوا أن يقومواهم بتسليم الزكاة الى القاسم مباشرة دون واسطة الشجنى فلم يلتفت اليهم . وكان الرجل رهييلا يقوى انسان على الجهر بمعارضته .

فاذا علمنا أن هؤلاء الأجبار لم يتوقفوا يوما عن تتبع فساد الحكم ومظالم الملك وتفتيح أذهان الشعب على ما هو فيه من فساد .

واذا علمنا أن جانب المعارضة كان قريبا الى الشعب بما كان يتستر وراءه من العلم والتظاهر بالورع والتقوى . وان هذا الجانب كان يملك سلاح الشعر الذى هو أقوى سلاح للدعاية فى ذلك الوقت .

اذا عرفنا هذا وذاك اتضح لنا الأثر الكبير الذى هز البلاد أثر خروج بيت اسحق ومن معهم فى عام ١١٣٦ هـ .

وهذه الحوادث ذات صلة كبيرة بابن الأمير اشترك فيها اشتراكا ايجابيا وسنوضح عند الحديث عن هذه الحوادث دور ابن الأمير فى الحملة على

الظلم والاقطاع وفساد الحكم وأن أقوى لسان للسعاية وأخطره كانت تلك القصيدة الرائعة التي أطلقها ابن الأمير فملأت أسماع اليمنيين جميعا ونغنى بها تلك الرؤية التي مطلعها :

سماعا عباد الله أهل البصائر لقول له ينفى منام النواظر
وقد حاول الخارجون على القاسم الرهيب أن يضموا ابن الأمير الى جانبهم وأن يخرجوه معهم وأخرجوه فى ذلك احراجا كبيرا .

ولكن الرجل كان فى طريق مختلف كل الاختلاف عن طريق هؤلاء الساسة وأطماعهم فحاول هو أن يشيهم عن الثورة والخروج على القاسم وأن يواصلوا الكفاح عن طريق الدعوة حتى يتهيا الشعب ويعى ما يدور حوله . ولكنه فشل فيما أراد . ونجحوا هم أن يشيعوا بين الناس ان ابن الأمير ممن خرج معهم على القاسم حتى بلغ ذلك أسماع القاسم وكادت هذه الفتنة أن تودى بحياة ابن الأمير كما سنعرف ذلك تفصيلا .

وكان ابن الأمير قد خرج من صنعاء ولكن لا مع أبناء اسحق فى شاطب ولكنه قصد الى مسقط رأسه فى كحلان حتى اذا تناهى الى سمعه أنه متهم بالخروج مع الخارجين سرعان ما عاد الى صنعاء وواجه القاسم بحقيقة موقفه.

وأتاحت له الفرصة حينئذ أن يتوسط فى الصلح بين القاسم وبين محمد ابن اسحق الذى دعا لنفسه متلقبا بالناصر .

وسكنت الفتنة فى عام ١١٣٧ واستقر ابن اسحق فى حصن ظفار حتى مات المتوكل فى عام ١١٣٩ .

ويهمنا فى هذا الموقف أن نشير الى بعض اللوحات التاريخية التى توضح الصورة عن هذا العصر وعن الرجال الذين حركوا الفتن فى أيامهم فشقوا وأشقوا وتعبوا وأتعبوا .

١ — كان من زعماء الخارجين مع محمد بن اسحق « محمد بن عبدالله ابن الحسين بن القاسم المفتى الذى ظن أن العلم هو سبيله الوحيد الى

الإمامة . وقد خب فيها ووضع ولم يترك ثورة على امام الا أمسك بزمامها
وظن الناس به زهدا عن الدنيا وانصرافا عن مطامعها وكاد أمر الملك ينتهى
اليه فى الاجتماع الأول الذى تم فيه خلع المنصور .

وكان خروجه مع بنى اسحق على أمل أن يبايعوه هو (ثم يبيع (١)
محمد بن اسحق ولما لم يبلغ مراده اشتعلت حرارته فى جوفه فتوفاه الله تعالى
فى قرية هادم) .

٢ — محمد بن الحسن بن عبد القادر صاحب كوكبان وبلادها وكان
الرجل يظن نفسه فى منعة وقوة لذلك استقر فى كوكبان وبث العيون فى
البلاد يتتبعون الأخبار وكان أحد عيونه فى صنعاء القاضى النزلى خطيب
القاسم يتسمع الأخبار من بلاط الملك ويسارع بها الى ابن عبد القادر .

والغريب فى الأمر أن صاحب كوكبان لم يكن من بيت القاسم فكان
لابد للقاسم من أن يعد له فى مكر ودهاء حتى يستأصله .

يستدعى النزلى ويتظاهر بأنه يستشير فى بعض أمره ويوهمه بأنه
يريد الخروج من صنعاء ليستجى من غناء الملك وأنه قد فكر فأطال التفكير
فيمن ينيه عنه بالمدينة .

وأخذ النزلى فى بساطة الفقيه يقترح الأسماء ويعدد مميزات كل
والقاسم كان يجد لكل واحد عيبا يباعد بينه وبين الصلاحية .

ثم يعقب القاسم (ليس (١) الا الصنو — الأخ — محمد بن الحسين بن
عبد القادر لكنه قد داخلته الأوهام) .

وما زال بالرجل حتى اطمأن وطمأن صاحبه فى كوكبان فقدم الى صنعاء
آملا أن يظفر بالامامة نائبا ما دام لم يتمتع بها أصالة وما كاد يصل حتى زج
به القاسم فى السجن ثم أطلقه فى عام ١١٣٤ هـ وكان من الخارجين مع بيت
اسحق وقبض عليه فكان القاسم الرهيب يوقفه مع أصحابه فى القيود الثقال
فى حر الشمس من الشروق الى قبيل العصر .

(١) من نفحات العنبر .

(١) نشر العرف .

ثم أرسله الى سجن زيلع بعد أن طافوا به مدائن اليمن فلما عقد الصلح مع محمد بن اسحق اشترط اطلاق صاحبه ولكن القاسم لم يستجب لهذا الشرط وكل ما فعله أن نقل السجين من زيلع الى سجن صنعاء .

٣ — نسوق الموقف الثالث لتعرف على القسوة التي كانت تملأ قلب القاسم الرهيب وتسابقه الى دماء رعاياه وما كان يحيط نفسه به من حاشية متزلفة فقدت ضميرها وأطلقت ألسنتها من حوله تمجد كل جناية يقتربها وتحولها بأشعار دينية يبرأ منها الدين وتبرأ الانسانية أيضا .

خرج القاسم من صلاة الجمعة في عام ١١٣٨ هـ ووقف بميدان القصر « للعراضة » وهو استعراض درج الأئمة على القيام به واجتمعت القبائل . ومثل هذه الاستعراضات جدير بأن يستهويها ويجتذبها من كل فج .

وأثناء تسابق فرسان القاسم مالت الخيل فأفرغت قبائل أرحب فأطلق أحد أفرادها النيران فسقط جندي من أتباع القاسم .

الى هنا والحادثة عادية يمكن أن تعالج بحكمة وأناة وتعود الأمور الى نصابها .

ولكن القاسم لا يهدأ حتى يتقاضى قبائل أرحب بهذا الجندي مائة قتيل وستمائة أسير .

وقد كان الموقف الى هذا الحد أيضا يمكن أن يفسر على أسلوب الحكم وأن ملكا متجبرا طغى وظلم وتكبر وتجاوز كل حد .

ولكن أنظر الى شاعر الامام وأحد قضاة الدين في حكومته كيف يفلسف هذه الواقعة :

عزيمة فتك ساعدتها عزائم	شفت كمد الاسلام والبغى راغم
كما نثرت فوق العروس الدراهم	نثرت دنائير الوجوه على الثرى
لهم ذنبا فالله بالقتل حاكم	ألا فاتبع الرأس الذى جب عنقه
ولكنك الاسلام للشرك هازم	ولست مليكا هازم لنظيره
	بربك مم يشفى كمد الاسلام .

أبقتل هؤلاء المسلمين الأبرياء الذين جنى عليهم وعلى بلادهم هؤلاء المتكالبون على الملك الذين امتصوا خيرات البلاد وخربوا مدنها وقراها .
وأبسط ما يقال ان منظر القتلى من المسلمين يثير فى النفس ألما وحسرة حتى ولو كانوا بغاة لكان الألم أن لم يهتدوا ويصيروا الى تلك النهاية .
أما أن تكون الرءوس على الأرض مثل الدراهم نثرت على العروس فهذا والله مالا يقول به من فى قلبه ذرة من ايمان .
ثم أرأيت الى القاضى الذى يطالب القاسم الرهيب باستئصال القبيلة عن بكرة أبيها وأن يتبع الرأس الذنب « فأن الله بالقتل حاكم » .
أى جرأة على الله هذه . وفى أى شريعة اعطاء حق القتل للحاكم دون محاكمة ومن غير التزام بالقوانين السماوية (١) .

(١) منذ مائتى عام من هذا التاريخ الف القاضى محمد بن يحيى بهران رسالة سماها (بهجة الجمال ومحجة الكمال فى المذموم والمدوح من الخصال فى الأئمة والعمال)

وكان هذا العالم الجليل خشى أن يواجه الأئمة صراحة بآثامهم فأراد ان يسوق نصائحه عامة لعلها تصيب من القلوب القاسية مكانا . وكان من بين فصول الكتاب (فصل فى ذكر بعض ماورد فى احترام دماء المسلمين واموالهم واعراضهم وما يناسب ذلك) .

وساق فى هذا الفصل كثيرا من الاحاديث نذكر منها :

١ - عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (امرت ان اقاتل الناس حتى يقولوا لا اله الا الله فمن قال لا اله الا الله فقد عصم منى نفسه وماله الا بحقه وحسابه على الله)

٢ - عن ابن عمر ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فى حجة الوداع (ان الله حرم عليكم دماءكم واموالكم كحرمة يومكم هذا من شهركم هذا فى بلدكم هذا)

٣ - عن ابن عمر أنه نظر الى الكعبة فقال (ما اعظمك واعظم حرمتك والمؤمن اعظم حرمة منك) .

٤ - (لزوال الدنيا جميعها اهون على الله من سفك دم بغير حق)

٥ - (من اعان على قتل مسلم بشطر كلمة لقي الله مكتوبا بين عينية آيس من رحمة الله)

فانظر الى هؤلاء الائمة الذين استهانوا بدماء المسلمين واموالهم واعراضهم .
كم سفكوا من دماء فى فترة اربعين سنة منذ عهد المهدي صاحب المواهب حتى وفاة القاسم .

وأين كان القاسم من ساحات الايمان وأين كانت أرحب من حدود الكفر عندما قتل منها مائة فى رجل واحد ثم ساق منهم ستمائة أسير بجريمة لم تدبر وخطأ لم يتعمد . ضلال وتضليل وافساد للحكام والمحكومين جميعا فبعد هذا المدح الذى حول الشر خيرا والجريمة تفضلا واحسانا وجهادا كتب القاسم الى عماله وحكامه ورعيته يبشرهم بما أصاب فى هذه الواقعة من نفوس وما أنزله بمواطنيهم من عقاب .

٤ — حدث خلاف خطير بين القاسم وبين ابنه حسين الذى كان عاملا على عمران . وكان الحسين يتطلع الى زيادة نصيبه من الاقطاع أسوة بأخيه أحمد الذى استقل بتعز وما يتبعها .

وخشى الحسين أن يتطور عطف أبيه على أخيه الى ما هو أبعد من تعز وأن يكون هذا الايثار تمهيدا لتمكينه من حكم اليمن فيما بعد . فاستغل الحسين تحرك القبائل نحو صنعاء لتثار لنفسها من الظلم الذى وقع عليها فقد أسخطها ما فعله القاسم فيهم .

وكان الخلاف قد استشرى بين القاسم وابنه لدرجة جعلت الألسنة فى صنعاء وما حولها تتحدث عن عقوق الولد لأبيه عقوقا عرفه الناس فى أبناء أسرة القاسم لم يشذ عن هذه القاعدة منهم انسان .

تحركت القبائل وعلى رأسها الحسين وفزع الناس وهجروا القرى من حول صنعاء يلتمسون ملجأ داخل المدينة وشقت عليهم هذه الفتنة التى تنذر بما وراءها والتى لا يعلم الا الله ما تنكشف عنه .

= كم خربو من مدن ، وكم انتهك فى ظل حكمهم من حرمان ومن المؤسف ان ينبجحوا وينسبون أنفسهم الى الامامة . والامامة أشرف وأكرم على الاسلام من أن ينتسب اليها هؤلاء السفاحون .

ومن المؤسف ان يتزىي ملك يبيح القتل والنهب والظلم والرشوة وايقاد نيران العداوة والبغضاء بين المسلمين ان يتزىي بزى رجل الدين .

ويدعى انه يحكم بشرع الله . وأنه مجتهد ما يصدر عنه من احكام فهي محمولة على مذهب زيد بن علي رضى الله عنه . زيد بن علي الذى نادى بمقاومة الظلم ومحاربة الطغيان اللهم انا نشهدك باننا لانقصد بهذا البحث الا كلمة الصدق لا حوة لنا فى الوطن والعروبة والاسلام لانهدف الا ان نبليغ كلمة المعروف التى الزمنا بها ديننا الحنيف . ونسأله سبحانه الهداية والتوفيق .

ويتحرك ابن الأمير فيجمع العلماء من حوله ويدعوهم الى أداء واجبهم الدينى فى نصيح القاسم ودفعه الى أن يقوم بواجبه كملك يحمى عاصمته وكحاكم يرد اعتداء القوى على الضعيف .
وهنا تظهر قوة ابن الأمير الروحية فقد استطاع أن يسوق العلماء أمامه الى قصر القاسم وهناك كان الرهيب لا يهتم بأقناع فرد منهم سوى ابن الأمير .

وها هو يكلف ابن الأمير للتوسط فى الصلح ويذهب ابن الأمير الى الحسين وسيطا مسموع الكلمة .
ولكن القاسم أراد أن يستغل ابن الأمير خدمة ينيم بها القبائل الزاحفة ليثب عليها ويتناول من بينها ولده، ويواجهه ابن الأمير فى شجاعة بأن أسلوب الغدر لا يجدى وأن عليه كملك لليمن أن يتخذ موقفا صريحا من هذه المحنة اما أن يصالح هؤلاء الخارجين واما أن يدفع عن رعيته .
ونشبت الحرب فعلا بين الأب وابنه فلما رأى القاسم أن كسب المعركة غير مضمون لجأ الى ابن الأمير مرئى فتوسط فى الصلح وتم على يديه.

(٣)

مرض القاسم وتوقع الشعب نهايته واذا بالحسين يصل الى صنعاء قبل موته بيوم فيدخلها ويبسط نفوذه عليها . ولا يذكر المؤرخون أنه شغل بأبيه مريضا ولا ميتا ولكنه بحث عن الحسن بن اسحق عندما سمع بوفاة أبيه فى يوم الخميس ٢٤ من رمضان ١١٣٩ هـ (وبقياً (١) عامة يومهما بالقبة فى البستان) .

ولم يتعجل الحسين الدعوة لنفسه متلقبا بالمنصور وانما الذى سارع الى ذلك — يوم الجمعة ٢٥ رمضان — هو يوسف بن المتوكل اسماعيل الذى اعتذر من قبل هذا بخمسة عشر عاما عن الدعوة بحجة كبر السن .
وتعجل بالدعوة أيضا محمد بن اسحق وفى نفس اليوم من حصن ظفار على بعد ثلاثة أيام من صنعاء . وتعجب للسرعة التى وصل بها خبر موت القاسم اليه .

(١) نشر العرف لزبارة .

أما المنصور حسين بن القاسم فقد تأنى حتى دعا لنفسه فى الجمعة التالية فبايعه الذين بايعوا يوسف من قبل .

ولا غرابة فان الحسين لم يلتفت الى دعوة يوسف ولم يقم لها وزنا اذ كانت فى حقيقة الأمر لا وزن لها انما كان المنافس الخطير هو محمد بن اسحق .

وعلى كل فقد سارع يوسف الى عمران لينضم الى ابن اسحق ولم يلبث أن توفي بعد سبعة أشهر « جمادى الأولى ١١٤٠ هـ » .

وصلت دعوة محمد بن اسحق الى صنعاء فلباها العلماء وأعيان المدينة وأصبح فى أعناق الناس ثلاث بيعات لثلاثة أئمة .

وما دامت البيعة قد هانت فى عيون القادة وكانت العهود من الرخص بحيث لا تساوى الورق الذى تكتب عليه فماذا على الناس أن يتنسوا لكل داع وأن يمدوا أيديهم لكل طامع فقد أصبح الأمر لا يعنيههم وأصبح التخيير لا يؤثر فى أوضاعهم قليلا أو كثيرا .

أخذ بنو اسحق يتسللون من صنعاء وانتشروا فى اليمن يشدون أزر داعيهم وهرب هذا الرجل العنيد أيضا من صنعاء وانضم الى ابن اسحق فى عمران ونعنى به محمد بن الحسين بن عبد القادر .

فاذا تتبعنا خطوات أبناء اسحق فى اليمن أمكننا أن نتصور الحرب التى دارت رحاها فى هذا الوقت وشقاء الناس بها .

— كان عبدالله بن طالب فى قعطبة منذ أيام القاسم متغلبا عليها غير خاضع لحكمه فلما بدأت الحرب تحرك عبدالله الى أب وجيلة فاستولى عليها لصالح عمه .

— وكان الحسن بن اسحق قد فر ولحق بأخيه منتقلا معه من ظفار الى عمران الى شبام وكوكبان .

— ويحيى بن اسحق تغلب على بيت الفقيه واستولى عليها .

— أما أحمد بن اسحق فتوجه الى جبى من بلاد ريمة .

— واسماعيل بن محمد اسحق كان فى وصاب فوئب على ريمة وبسط نفوذه عليها .

فى هذا الوقت رأت بعض القبائل أن تدلى بدلوها وتقتنص الغنائم لحسابها فتقدمت حاشد وعلى رأسها على بن قاسم الحاشدى . وكانت بين المنصور والحاشدى صداقة من أيام أبيه فان هذه القبائل كانت تتحرك معه لحصار أبيه وقتاله .

أما فى هذا الموقف فقد رأوا أن يسلكوا طريقا مستقلا لحسابهم هم لا لحساب المتنازعين .

وقد حاول المنصور أن يستغل الصداقة القديمة بينه وبين على الحاشدى فى استمالته اليه فأرسل اليه الهدايا والضيافة الفاخرة عندما اقترب بقيبلته من صنعاء .

ولكن عليا كان الى جانب محمد بن اسحق أميل ولعله أراد أن يجمع اليه خيرات صنعاء قبل أن يسبقه اليها غيره لذلك فقد أغلظ فى اجابته على صديقه القديم وقال انما نريد بحق الصداقة أن نضمن للمنصور بعض الاقطاعات أما الحديث فى الملك أو الامامة فلا سبيل اليه .

ولم يكن المنصور ليتقبل الأمر بهذه السهولة ولم يكن له من قبل بهذه الجموع التى تدفقت عليه فى كثرة كاثرة وفاجأته قبل أن يستعد للقائها لذلك فقد سلك سبيل الحيلة والخداع فأمر فأرسلت خيامه تنصب مقابلة لمعسكرات القبائل ايها ما لهم بأنه قد قدم للمفاوضة والمصالحة وفى الوقت نفسه دبر مع الأمير ذى الفقار وثلاثة من أتباعه أمر اغتيال على الحاشدى فلبسوا الدروع تحت الثياب ولبس المنصور مثلهم .

وخرج المنصور من صنعاء واستقر بخيمته وذهب اليه الحاشدى مع بعض زعماء القبائل وبدا حديث الصلح والخوض فيه وقبل أن يصل الطرفان الى نهاية تظاهر المنصور بالأرهاق فتلصع بردائه واستلقى وترك القوم فيماهم فيه حتى يسكن ما فى نفوسهم من ريبة وحتى يتأجل الاجتماع الى اليوم التالى فاذا قدموا اليه من غدهم كانوا قد نقضوا عنهم بعض حذرهم الذى كان واضحا عليهم فى هذا اليوم .

وفي اليوم التالي أرسل المنصور الى صديقه القديم ليلتقى به في خيمة أعدت لتنفيذ مؤامراته فما أن دخل الرجل ومعه أحد القادة ومكثوا قليلا حتى خرج المنصور وكان في خروجه ما يثير الشك في نفس الرجلين فهم الحاشدي بالخروج فانتهره ذو الفقار وقبض على وفرته وطعنه في نحره فخر صريعا وتمكن رفيقه من الهرب سريعا .

وفي الوقت نفسه كانت جنود المنصور قد أخذت مواقعها حول الخيام لتدفع القبائل عند هجومها المتوقع .

وهذا ما حدث فعلا فكان رصاص البنادق يصد القبائل الشائرة في غير نظام .

ودخل المنصور على صديقه وهو يخور في دمه فأمر أحد أمرائه بقطع رأسه ثم تناول الرأس ورشقها بسنان حربته ورفعها أمام القبائل صائحا :
هذا رأس صنمكم .

ولو كانت القبائل تملك قيادة رشيدة ولم تفاجأ بالموقف لقضت على المنصور وجنوده ولا تنزعت رأس صاحبها لتعود به . ولكن الأمر أفلت من يدها وعاد المنصور الى صنعاء الى موكب عظيم ورأس الحاشدي لم يفارق رأس الحربة . وكأنه قتل غريمه في مبارزة شريفة ولم يقتله عبيده خيانة وغدرا .
ولا علينا بعد ذلك أن حملت هذه المكيدة على الدين حملا رخيصة فقد كان شأن المرتزقة أن يساندوا جرائم الملوك دائما بأسانيد لا هي من الدين ولا هي من الأخلاق اذ يقول الشاعر :

فيا لها فتكة في الدين كم شرحت صدرا وكم نهجت للحق من نهج
هذه الحادثة الشنعاء التي اصططحت بالخيانة والعدر أثارت الحمية في نفوس القبائل وفرضت عليها المعسكر الذي تعمل معه فاتجهت الى محمد بن اسحق بكليتها ولم تلبث أن عادت يقودها الحسن بن اسحق وعبد الله بن اسحق نحو صنعاء ودارت الحرب بينها وبين المنصور حرب لا رحمة فيها ولا شهامة .

ولكن المنصور كان يحتاج الى أن يلتقط أنفاسه حتى تهدأ هذه الجموع المطالبة بالثأر وبالمملك معا لذلك فقد أخذت رسله تتوسط الجمعين تتحدث عن الصلح حتى حصلت للمنصور على بعض الاقطاعات التى ترضيه وتنازل عن دعواه وبايع الناصر محمد بن اسحق بيعة باللسان وفى الوقت نفسه يعد العدة ويتأهب للقضاء على خصومه قضاء مبرما .

وفى فترة الصلح هذه عاد محمد بن اسماعيل الأمير من أداء فريضة الحج فالتقى بمحمد بن اسحق كما سنوضح ذلك عند الكلام عن ابن الأمير وكان بنو اسحق متأكدين من أنه صلح على دخن لذلك فانهم لم يلتزموا بشروط الصلح .

وغالب الظن أنهم لجأوا الى ذلك حتى تتكشف نوايا الحسين ويسارع بأظهارها قبل أن تتفرق الأعوان وانتقاما لما صنعه القاسم بهم بعد تنازل عنهم صاحب المواهب .

فخير لهم أن يقابلوا المنصور فى عنفوان قوتهم من أن يواجهوه بعد أن يدبر لهم تدبير السياسى الماكر .

ومهما يكن من شىء فقد سارع المنصور الى نبذ الصلح واعداد الدعوى وخرج بجيشه ليهاجم به بعد أن كان مستقبلا للهجوم وقد أعد للحرب عدتها من الأموال والمكائد .

وخاض مع القوم ثلاث وقائع لم تحسم احداها الأمر بينه وبين أعدائه فعاد الى صنعاء وبدأ يرسم خطة محكمة للأيقاع بالقوم فى أسرع وقت استعمل فيها سلاح الوقيعة والرشوة والدسائس حتى لا يعرض مستقبل ملكه لظروف الحرب ومفاجأتها .

وكانت هذه التحركات التى قام بها المنصور من مباحثات للصلح وتنازل عن الملك ثم تنازع على الشروط ثم خروج الى شبام وحرب مع أعدائه . كل هذا قد سكن من نفوس القبائل قليلا وشغلها الحديث فى كل هذا عن الحديث الأساسى الذى حركها للحرب وجمعها للثأر .

فاذا أضيف الى هذا عامل الرشاوى وبعث الضغائن فى نفوس القادة
أتيح لنا أن نتصور كيف استطاع الحسين أن يجمع فى يديه الموقف بهذه
السرعة .

ولا تنسى أن أخاه أحمد كان متربعا على عرش اليمن الأسفل بتعز
منذ ١١٣ هـ فلم يمكن أبناء اسحق من الاستقرار وشغل أخطر قائد فيهم
وهو اسماعيل بن محمد بن اسحق فى المخا ومازال يحاربه ويخادعه حتى
قبض عليه وعلى من معه فى عام ١١٤١ هـ وساقه الى تعز ثم الى أخيه الحسين
فى صنعاء فأودع ومن معه فى السجن .

ولا بأس من أن نلم ببعض الأحداث التى صنعت ملك المنصور وفى
اختصار شديد :

— خرج الحسن بن اسحق من ثلا الى حصن طيبة بوادى ظهر ومكث
فى هذا الحصن ما يقرب من شهر ونصف وجيشه يضايق أهل طيبة ويسئ
اليهم فى أموالهم وفيما هو أخطر من أموالهم واستنجد أهل الحصن بأقاربهم
فى بلاد يام فسارع اليهم ١٢٠٠ محارب من تلك البلاد وسارع المنصور أيضا
ينتهاز هذه الفرصة ليقضى على الحسن ولم يلتحم المعسكران ولكن تناوشا .

وعرضت للمنصور فرصة نادرة عندئذ فقد اتفق يحيى بن اسحق مع
عبد الله بن طالب على أن يلتقيا حول صنعاء .

وتحرك يحيى من بيت الفقيه وكان عبد الله ينتظر فى زراجة ولكن
يحيى كان أسرع فى الوصول من ابن عمه وكان المنصور أسرع الثلاثة اذ
فاجأ جيش يحيى قبل أن يستقر فقبض على قطعة من الجيش يقودها المطهر بن
يحيى ثم حاصر البقية الباقية يومين حتى أدخل يحيى أسيرا فى اليوم الثالث
الى صنعاء .

ولم يستطع الحسن أن يبقى بعد ذلك فى طيبه يواجه عدوا فى الداخل
وعدوا فى الخارج بجند شغلهم ما هم فيه من غتو واعتداء لذلك سارع
الحسن الى ثلا .

أما عبد الله بن طالب فلما واجه المنصور وهم بالقتال وجد الخذلان يحوطه من أنصاره والخداع يخذله ممن حوله فبايع المنصور ودخل معه الى صنعاء فى جند جرار وبعد يومين استدعاه المنصور وألقى به فى السجن .

وتناول أهل الحسن بن اسحق ومن معه من القادة وتناول أهل عمران عبد الله بن اسحق ومن معه من الأعيان وسيق الجميع أسرى فى زناجير الحديد حتى وصلوا صنعاء وقابلهم المنصور ووبخهم ثم (قيدوا بأثقل الحديد حتى قيل ان مبلغ وزن القيد خمسة وعشرون رطلا) .

بقى من المعسكر محمد بن اسحق ومحمد بن الحسين فى حصن كوكبان استمرت الحرب بينهما وبين جنود المنصور خمسة أشهر حتى بايعا فى جمادى الآخرة عام ١١٤١ هـ .

هل سكنت الفتنة وهذا اليمن بعد هذا الشقاء الأليم ؟ لا ولكنها هدأت بين أبناء العم لتثور من جديد بين أخوين . المنصور فى صنعاء وأحمد فى تعز . ولقد علمنا أن أحمد كان من أسباب العداء الذى نشب بين الحسين وبين أبيه القاسم اذ كان القاسم يؤثر أحمد على أخيه وقد اختصه باهدأ مناطق اليمن وأكثرها خيرا .

ولم يكن أحمد عندما حارب بنى اسحق يدافع عن الحسين وانما كان يدافع عن نفسه لأنه يعلم أنه لا قبل له ببيت اسحق ان اقتصروا . وكان الأمل أن يقدر له الحسين هذا الصنيع فيمد له من نفوذه فى البلاد التى من حول تعز .

ولكن المنصور تجاهل هذا وبدأ أحمد يفتح بابه للحاقدين على أخيه وللهاربين من تزمت أصحاب المذهب الذين أخذت قبضتهم تشدد على صنعاء وما حولها .

وسنرى أن اسحق بن يوسف بن المتوكل كان يشارك فى الحملة على تشويه المذهب بالأسئلة التى يطلقها من تعز وسنرى عندما يحين ذلك صلة ابن الامير بهذا .

(١) نشر العرف .

وكان تشجيع هؤلاء العلماء في تعز يكسب أحمد شعبية تغطي على مظالمه وشدته على الرعية .

وبدأ المنصور يستغل خروج صاحب لحج عبد الكريم بن فضل على أحمد بن القاسم فأخذ يقوى جانبه على أخيه فرد أحمد على ذلك بأن استولى على خراج المخا الذى مر به فى طريقه الى صنعاء . ثم بسط يده على مدينتى أب وجبله ولحقت بهما العدين فترة طويلة .

ولم يكن هناك بديل من الحرب فكانت حربا مستعرة ثقيلة على الناس حتى (حصل (١) على البلاد وأهلها ما لا مزيد عليه من المشقة والأهوال) . وحتى تمنى الشعب على الله أن يخلصه من الأخوين جميعا بلسان بعض الشعراء :

أخوان قد سقيا بماء واحد والفضل خال من كلا الأخوين
جرحا صدور العالمين فمالها من مرهم الا دم الأخوين
وهنا يتقدم محمد بن اسماعيل الامير الى التوسط حتى يتم الصلح على يديه فى عام ١١٥٥ على أن تقسم الغنيمة بين الأخوين :

— تعز وشرعب وجبل صبر لأحمد .

— بلاد الحجرية ونحوها تعود للمنصور .

وسكنت الفتنة بين ابنى القاسم الى عام ١١٦٠ ثم بدأت من جديد ولم يخمد نيرانها الا موت المنصور فى عام ١١٦١ هـ فنادى أحمد بنفسه اماما على ما بيده من البلاد لا يطمع فى غيرها وكان يرد من يصل اليه من بلاد القبلة وتوسط ابن الامير فى الصلح مرة أخرى بين أحمد وبين ابن أخيه المهدي عباس الذى تمت له البيعة فى صنعاء .

(١) نشر العرف .

فتنازل أحمد للعباس بعد ستة أشهر من موت المنصور .

لا نريد أن تشغل القارئ أكثر من هذا لنعدد له فساد الحكم في عهد المنصور والعباس فسيأتى ذلك عند الكلام عن شخصية ابن الأمير .

فقد اتصلت حياة ابن الأمير كمصلح اجتماعى وكعالم مجتهد وكمواطن مخلص لوطنه منذ وفاة المهدي صاحب المواهب الى أن اختتم حياته رحمه الله في عهد المهدي عباس .

لا نرى حادثة من الحوادث التى أهتت واهتم بها شعب اليمن الا كان ابن الأمير فى أعماقها أو يدور حولها .

ولا نرى رأيا ولا حكما يتصل بالدين عن حق أو زيف الا رأينا ابن الأمير يمسك بالزمام مدافعا أو مهاجما .

وقد كشفت حياة ابن الأمير وآراؤه الغطاء عن هذا العصر بما فيه من خير وشر من خير قليل وشر كثير عميق .

وكانت للرجل شفافية عجيبة اذا سلطها على الملوك وأتباعهم نفذت الى أعماقهم حتى لتكاد ترى الشر والقسوة والأطماع والأحقاد تسعى فى صدورهم على أيدي وأرجل .

ولكننا لن نودع المنصور قبل أن نوجه الأنظار الى بعض صفاته التى قد تخفى فقد جمع الرجل بين قسوة الطامعين ودهاء الساسة وحقد المشوهين أو المنبوذين .

ولعل الصفة الأخيرة قد عمقها فى نفسه أن القاسم كان يفضل أخاه عليه منذ الصغر حتى دفعه الشعور بالظلم الى نفث حقه على أبيه . وتسنى أن يتقاضاه حياته فى آخر أيامه وحتى انطلقت ألسنة أهل صنعاء تتندر بعقوقه

فلما ضم القبر جثة القاسم وحقد المنصور عليه تخلص الحقد من الجثة ليطارد
أهل صنعاء الى آخر أيام حياته يذيقهم شر ألوان العذاب .

جاء فى نشر العرف نقلا عن أتحاف النبيه للعرانى :

(ومما غير فى وجه سيرة المنصور حسين وأورثه سوء الاحدوثة والشين
أنه كان يبلغه عن أهل صنعاء فى أيام خلافه على والده وحل ما أبرمه الله
بتوثيق معاقدة رمية بالعقوق وتحديثهم فى مسامرهم ومحاضرتهم بما هو
مرموق فوق فى نفسه ما وقع وأنزل بهم ما رفع به الاسماع الخبر المستشنع.
وتجاسر على ما لم يرتكبه من هو أجراً منه من البدع فكان ينزل الجيوش
أن استدعاهم منازلهم ويخرجون منها أهلها لا يراعون عالمهم ولا جاهلهم) .

القِسْمُ الثَّانِي

محمّد بن إسماعيل الأمير

- * من كحلان الى صنعاء
- * عالم السنة وداعيته
- * فساد الحكم ودعوة الاصلاح
- * رجل السلام
- * ابن الأمير وبيت اسحاق
- * مختارات
- * مؤلفات

الفصل الأول

من كحلان إلى صنعاء

(١)

محمد بن اسماعيل بن صلاح بن محمد بن علي بن حفظ الدين الامير
وينتهي نسبه الى الأمير يحيى بن حمزه الحسنى .

فهو من الحمزات الذين كان من هدف القاسم حربهم والقضاء عليهم
وقد علمنا أن هذه الأسرة كانت كبيرة ممتدة في كثير من البلاد اليمنية . وقد
استطاع القاسم وبنوه في فترة أقل من مائة عام أن يقطعوا بين الحمزات وبين
أملهم في الملك . فاتجهوا في أكثر البلاد وجهة أخرى غير ما كانوا يتجهون اليه
من قبل القاسم بن محمد وما تبعه من أبناء .

وليس بغريب أن تنقطع السبل بين الحمزات وغيرهم عند حد لا يتعدونه
فقد رأينا أن الصراع على الملك في الفترة التي أوجزنا تاريخها كان قاصرا
على أبناء القاسم بن محمد بن الرشيد . وان تسلل بينهم طامع على حين غفلة
من الدهر سرعان ما يتعقبه أقوى الأبناء حتى يستأصله ويفعل به الأفاعيل .
وكان هذا ما حدث مع محمد بن الحسين بن عبد القادر صاحب كوكبان .

ومهما يكن من أمر فإن التاريخ لم يسجل لأحد آباء الأمير الا دينين
مشاركة في ثورة أو تطلعا الى حكم أو مزاحمة فيه . فقد قنعت الأسرة بما
قسم لها من خير قليل أو كثير في كحلان .

تلك المدينة الصغيرة التي استقرت على بعد ثلاثة أيام في الشمال
الغربي من صنعاء .

وعاش أفراد الأسرة يعلمون ويتعلمون ويؤثر عنهم علم قليل وأحب جم
ورضا بما قسم الله .

وغالب الظن أن الأسرة لم تكن في فقر ينزوي بها عن الأنظار كما لم
تكن في ثراء يجعلها محط الأطماع .

ولكن الذي لاشك فيه أنها احتفظت بأثارة من مجد قديم كان يفتح
أبواب الحكام ويؤهلها لبعض الأعمال التي عفا عنها أفرادها وترفعوا في
زهادة تدعو إلى الإعجاب .

ولعل قناعة الأسرة هي التي أبقتهما في كحلان حتى عام ١١١٠ هـ ومن قبل
كان صلاح بن محمد بن علي جد الأمير يؤثر عنه شعر وعلم يؤهله لأن يزاحم
به علماء الأمصار وشعراءهم ولكن الرجل لم يفكر في أن يفارق وطنه الأدنى
إلى صنعاء أو غيرها من المدن الكبرى .

ومن أقوى الأسباب عندنا التي دعت إلى هذه العزلة أنه كان يخشى
من الفتن التي أخذت بتلايب البلاد حتى أصبح القابض على دينه كالقابض
على الجمر .

ثم أن الحمزات كانوا يتوجسون خيفة من بيت القاسم . فهم قد علموا
ما دبروه لهم وعرفوا ما صنعه القاسم بأبائهم من قبل . ثم إن كثيرا من الأسر
التي كانت تخاف أو تخيف ظلت تؤثر أمثال هذه المدن التي يتجمع فيها
أنصارها لتهاجم أو لتدافع .

فمن الأفضل لهذه الأسرة أن تعيش ببعض الخير في كحلان من أن
تقامر به في صنعاء .

والا فمن الغرابة أن يكون جد الأمير صلاح بن محمد بهذه الشاعرية
الأصيلة ويرضى بالبقاء في هذه المدينة المتواضعة .

وقد أورد له صاحب طيب السمر قصيدة يمدح بها أحد أصدقائه وقد جمعت بين حلاوة اللفظ واستواء المعنى وغازاة الشاعرية .

استمع اليه حيث يقول :

تغنت على غصن الأراك بلبله وناحت فباحث للمعنى بلبله
لقد أفهمته من معاني نواحيها شكا من اليق طال عنها تغافله
وكل أليف نازح عن أليفه فلا شك في أن التباعد قاتله
وأن اجتماعا يعتريه تفرق يمر وان أسقتك شهدا أوائله
لحي الله دهره دأبه الجور دائما لقد حال ما بين الألفين حائله
كفى منه جورا انه صار قاطعا لوصل الذي أحبت أنى أواصله
وصاحب هذا الشعر الذي لا نجد فيه لفظا قلقا أو تفاوتا أو اضطرابا
فى الأسلوب أو نبوا فى القافية لا يحتاج الى أن تؤكد علمه بالعربية ودراسته
لها على مستوى رفيع بالنسبة للعصر الذى كان يعيش فيه .

و وفاة صاحبنا هذا فى عام ١١٠٢ هـ تقريبا وكان ابنه اسماعيل يبلغ من
العمر حينذاك ستة وعشرين عاما فمولد اسماعيل فى عام ١٠٧٦ هـ كما أن
الجد قد رأى حفيده محمدا يدرج فى المهد اذ ولد فى عام ١٠٩٩ هـ .

ولم تلبث الأسرة بعد الجد طويلا فى كحلان حتى ارتحلت الى صنعاء
فى عام ١١١٠ هـ .

وليس بين أيدينا من المراجع ما يعين على معرفة السبب فى تحول الأسرة
من كحلان الى صنعاء . ولكن الدلائل تشير الى أن الوالد كان يطمح فى أن
يستزيد من العلم والمعرفة وأن تتصل أسبابه بأسباب هؤلاء العلماء الأعلام
الذين سارت بذكرهم الركبان فى طول البلاد وعرضها أمثال زيد بن محمد بن
الحسن وصلاح الاخفش وهاشم بن يحيى الشامى .

شجعه على ذلك مخايل الذكاء التى بدت مبكرة على ابنه محمد والتى
أعانتته على أن يحفظ جانبا من القرآن الكريم فى حداثة صباه . وشجعه أكثر

من هذا أن صنعاء كانت عاصمة علم ولم تكن حينذاك عاصمة حكم . فقد ابتعد المهدي محمد بن أحمد بن الحسن بمركز الحكم « المواهب » التي اختطها لنفسه قريبا من ذمار فخفت بذلك سطوة الملك عن صنعاء وأطلقت للعلماء عنان البحث والتفكير الحر والصراع المذهبي العنيف .

وكانت آراء المقبلي والجلال ومحمد بن ابراهيم الوزير وغيرهم تجد طريقها الى عقول الدارسين بالتأييد لها أو الحملة عليها ومعارضتها .

وكان اسماعيل الامير مشغوبا بالعلم مكبا عليه زاهدا في غيره من متاع الدنيا . وسنه حينذاك كانت تشجعه على ألا يفارق عهد الطلب .

ولم يطلب الوالد في صنعاء منصبا أو جاها فقد كان الجاه والمنصب يطلبان في المواهب وانما طلب المعرفة فحسب وهذا يرجح الاتجاه الذي ذهبنا اليه من أن الأسرة كان عندها ما يغنيها بحيث تتعلم وتعيش .

وكل المؤرخين الذين تناولوا سيرة الأب أجمعوا على زهده وورعه وتقواه وحبه للعلم كما أن الشعر الذي روى عنه يؤكد أنه ورث عن أبيه تلك الملكة بعذوبتها وسلاستها .

يترجم له ابنه محمد فيقول :

(روح جسم العلم والزهادة ونور حدة التقوى والعبادة وكعبة مصره وقطب أهل عصره رافق العبادة منذ عرف يمشاه من يسراه ، واتخذ الزهد خليله فام يدان دنياه وصاحب الصمت فلم تحرك الا الخير شففتاه ولا تراه العيون الا ساجدا أو راكعا أو ذاكرا) الخ .

ويترجم له صاحب نفحات العنبر فيقول :

(الأجل الزاهد . الفاضل الناسك العابد .. حقق الفقه والفرائض . اشتهر بالعلم والفضل والتقشف .. ومجانبة الدول) .

والسبات البارزة التي تظالعك عند النظر في حياة هذا الرجل هي

تواضعه للعلم ولين جانبه لم يتأب على نفسه أن يجلس من ابنه مجلس التلميذ من الأستاذ ولا يجد في ذلك غضاضة ولا غرابة فالفرع قد يزكو على الأصل وهذه الثمار الحلوة اللذيذة التي نجنيها من الأشجار أليست أصولها من الخشب .

وان ذكرت العلم فهـ	والفسارس المجرب
جلا على أقرانه	اذ سابقوه وكبو
أعجزهم أن يلحقوا	بمجده فاضربوا
ما زال في كتب العلو	م من صباه يدأب
حتى ارتقى مرتبة	تنحط عنها الرتب
بفطنة تبدو فما	عنها الصواب يحجب
يمشي مع الحق فلا	يقتاده التعصب
ما زال يهدينى الى	نهج الهدى ويندب
حتى كأني ولد	مؤدب وهو الأب
فاعجب لها قضية	لمثلها يستغرب
وان أرتبها عجا	فأنتى لا أعجب
فالفرع قد يزكو على	أصوله وينجب
هذى الثمار كلها	أصولهن الخشب

ولا تظن أن الرجل بهذا القول كان غير أهل لأن يعلم وينظر العلماء فقد شهد له علماء عصره برسوخ القدم وعلو المكانة في العلم والأدب والظرف وحلاوة المجون وحسن المحاضرة أيضا .

وهذا هو زيد بن محمد بن الحسن وقد عرفناه من قبل عالما جليلا يتظاهر أمامه صاحب المواهب بالعلم ويتزبى عند لقائه بلباس العلماء . هاهو الرجل يجتمع ما يؤلفه طيلة أيام الأسبوع ليعرضها على اسماعيل الأمير يوم الخميس ليرى فيها بثاقب رأيه وسعة اطلاعه ما يراه .

ولعل سائلا سأل زيدا هذا عن سر اختيار اسماعيل لهذه المراجعة عندما قال (ما أظن ذهن السيد الشريف (١) يفضل ذهن السيد اسماعيل الامير).

وكان ابنه محمد يرى فيه هذا الرأي ويعترف له بذلك الفضل لذلك تراه يشاركه البحث والدراسة في أمهات الكتب التي تحتاج الى صفاء الذهن ودقة المناظرة وغزارة المعرفة :

(لما تم (٢) لى أنا ووالدى العلامة التقى ضياء الدين اسماعيل بن صلاح الامير - رحمه الله - مطالعة كثير من مؤلفات العلامة الحسن بن أحمد الجلال - رضى الله عنه - عجبنا من ذهنه الوقاد وتنبه لقواعد الاجتهاد) ويتبادل الأب وابنه الشعر فى مكاته الجلال وسبقه وتحقيقاته التى كشفت زيف الأفكار وشعوذة المشعوذين :

قد غربل العلم فانتقاه فما لصاحب المنتقى سوى قدمه
فرد ما كان مالحا وأتى بالعذب فى حله وفى حرمة (٣)

ولعل أصدق ما يصور اسماعيل بن صلاح الامير تلك القصيدة الرائعة التى أرسل بها ولده اليه من كحلان والتى نجتزئ منها تلك الأبيات :

قطب ولى زاهد	اليه تسمو الرقب
وفطنة وقادة	أخاف لا تلهب
مع وقار كامل	والله هذا العجب
وشعره فى رقة	من الطروس يشرب
والزهد فى هذى الدنيا	لغيره لا ينسب
لقب تساوى عنده	تراها والذهب
آثر خدمة الذى	اليه ينهى المطلب

(١) الشريف الرضى .

(٢) ديوان ابن الامير .

(٣) الامير الوالد .

على ملوك مالهم في الدين الا اللقب
فلا تراه سائلا هل قعدوا أو ركبوا
ولا تراه شاكيا منهم اذا ما احتجوا

وفي حياة الوالد صفحة رائعة هي ولا شك ذات أثر كبير في اتجاه ابن
الامير وفلسفته وموقفه الرائع من نظام الحكم وظلم الحكام .

تلك المبادئ التي لم تفارق ابن الامير حتى فارق الحياة .

فقد أثر عن الوالد (مجانبه (١) الدول) والابتعاد عن الحكام .

وهو عندما ألزم نفسه بهذا المبدأ لم يلتزمه عجزا عن المشاركة في الحكم
أو قصورا عن وسائل الوصول اليه ولكنه فزع عندما اتقل من كحلان الى
صنعاء من سيرة الحاكمين والمحكومين جميعا .

فقد أفسد صاحب المواهب على الناس أمنهم وأفسد على الحكام
والعمال والقضاة أمانتهم وأفسح لأرباب القوي سبيل الشر كل منهم يخب
فيها ويضع بكل الوسائل المنكرة .

فلم يبق أمام صاحب دين هاجر ليتفقه في دينه الا أن يطلب لنفسه
النجاة من هذا الفساد المستحكم .

وقد ابتلى الرجل في هذا أشد الابتلاء عندما ذهب الى المواهب في
عام ١١٢٤ هـ زائرا لبعض أرحامه عند القاسم بن أحمد العياني حاكم
المواهب حينذاك .

وكان الحكم في المواهب يلفظ انقاسه . وكان الفساد في المواهب
يترع من دماء الناس وأموالهم وأخلاقهم وصادف أن كلف المهدي قاضيه
العياني بمهمة الى جهات صنعاء والتقليد على أن يختار القاضي من ينوب
عنه فترة غيابه .

(١) نفحات العنبر .

فاختار العياني — سامحه الله — اسماعيل الأمير .

ولم يستطع الغريب الزائر أن يواجه صاحب المواهب بحجة كما لم يستطع أن يواجه صهره بعذر فقبل النيابة على مضض وعلى أمل أن يبقى فيها أياما ثم يردها الى صاحبها ويعود هو الى صنعاء والى مجالس العلم فى صنعاء .

ولكن الظروف أخلفته ظنه . حتى أحس كأنه فى سجن وأن نكبة من نكبات الدهر قد حلت به . وأى نكبة أشد وقعا على نفسه من ان يجرى قلمه باستدعاء المتخاصمين والخوض فى الشجار مع القبائل .

يفرض عليه لقاءهم بالخصومات والمطالب وسماع شهودهم وما أقل شهود الحق وأكثر شهود الزور فى المواهب :

ولقد سئمت من البقاء	وطول لبثى فى المواهب
أنا راغب عنها ولس	ت الى المقام بها براغب
فبقيت كالمجوس قد	ضاقت على بها المذهب
ونصبت فيها نائبا	والنصب من أردى المذاهب
من لى برفع نيابتي	وانا البريء من النواصب
ان الزمان كما عرف	ت يجرى بالنكت العجائب
صبرا عليه فانه	ما زال يرمى بالمسائيب
ما خلت أقلامي بأن	تجرى بأحضر لغائب
أو أن أخوض من الشج	ار مع القبائل فى غياهب
قوم ألد من البها	ثم من تكلم من تخاطب
فليت منهم باللقاء	وبالخصومة والمطالب
وشهودهم ما أن يب	ين الصادقون من الأكاذب
فلأصبرن تجلدا	والصبر محمود العواقب

ضيق وأى ضيق . وفساد أى فساد .

وما لاسماعيل وكل هذا العناء الذى لا طاقة له به .

ويطول غياب صاحبه فى صنعاء فيكتب اليه مستجيـرا :

ان المواهب ليست لى بمسعدة	من بعدكم غير ان الدمع يسعدنى
لولا انتظارى وتأميلى لعودكم	كان المقام قليلا ليس يمكننى
ارجو من الله تعجيل الاياب فما	صبرى على البين الا غاية المحن
فعجلوا عجلوا بالعود عن كـثـب	ففى وصولك ايصالى الى وطنى

وغالب الظن ان اسماعيل الامير لم يلق صاحب المواهب رغم المنصب الذى فرض عليه فرضا فقد كان الرجل يؤثر العافية فى دينه وديناه بالابتعاد عن الملوك . وسنرى بعد هذا أن القاسم الرهيب حاول جهده أن يلتقى به وأن يتعرف عليه ومن بعده حاول المنصور حسين فامتنع عليهما ولم يمكنهما من ذلك وتهرب من هذا اللقاء حتى فوت عليهما ما ارادا .

وما ذاك الا أن اسماعيل كان متشددا فى دينه يؤثر جانب الله على جانب الملوك :

آثر (١) خدمة الذى	اليه ينهى المطلب
على ملوك ما لهم	فى الدين الا اللقب
فلا تراه سائلا	هل قعدوا أو ركبوا
ولا نراه شاكيا	منهم اذا ما احتجـبوا

ولا غرابة اذن أن آثر عنه أنه حج على قدميه أربعة عشر موسما وزار قبر انبى — صلى الله عليه وسلم — على قدميه مرارا .

وكانت أعظم محنة أصيب بها فى حياته هى فراق ابنه محمد من عام

(١) محمد بن اسماعيل الامير .

١١٣٩ هـ حتى اختاره الله الى جواره فى عام ١١٤٦ هـ ذلك الفراق الذى فرض على الأب كما فرض على الابن بسبب ظروف الحكم والذى سنشير اليه فى توسع عند الحديث عن صاحب هذا الكتاب .

وبرغم أن اسماعيل قد مرض خمسة أعوام طوال مرضا عضالا كاد يقعه فان أثر هذا المرض لم يظهر فى شعره كما لم يؤثر على عبادته ومسجده وانما الذى ظهر واضحا حزينا باكيا هو فراقه لولده محمد :

لقد عز صبرى بعدكم يا محمد فعودوا الى الاهلين فالعود أحمد
ويقول :

تطاول البين بين الأب والولد ما كان يخطر هذا قط فى خلدى
ذقت المرات فى الدنيا وشدتها أمر من فرقة الاحباب لم أجد

ومن المؤكد ان الوالد كان لا يستطيع زيارة ابنه فى مهجره :

قالوا «شباب» قرب من «أزال» فما عنك الرحال ولا عنهم بمبتعد
قلنا صدقتهم ولكن حال بينهما حال الزمان فهذا القرب لم يفد
ثم هو يعلم أن هذا الفرق أثر من آثار الظلم الذى عم البلاد لذلك
فهو يشكو ما يلاقيه الى الله وحده فهو سبحانه مفرج الكروب :

بعدتم فصبرى يا محمد أبعد ووجدى على طول المدى يتجدد
الى الله أشكو طول بعدك انه شديد وهل شئ من البعد أنكد
تنقلت فيها بلدة بعد بلدة وللدهر فى هذا التنقل مقصد

ثم يشير للجوء ابنه الى حصن شهاره واحتمائه بذلك الحصن المنيع .

الى ان تسنمت المحل الذى علا على الشم فهو الشامخ المتفرد
الى الجبل السامى المنيع الذى به تمر طيور الجو حبوا فتقعد

وهو لا ينسى الرسالة التى حملها ابنه على كاهله ولاقى فى سبيلها
ما لاقى ألا وهى أحياء الكتاب والسنة .

رسالة مدعاة لكل فخر ومناط بكل زهو فى هذا العصر الذى كثرت فيه الأباطيل وضلل فيه الشعب أى تضليل :

وأنت اذن تحيى بها سنة الهدى فترشد فى نشر العلوم وترشد
وقد نلت ما املت فيك من العلا وانى لن أولاك ذلك أحمد
وليس سوى التدريس فى العلم مفخر وليس سوى التقوى مع العلم سؤدد
وبعد أن طال الفراق وامتدت بالولد سنوات الهجرة بعيدا عن زوجه
وولده وبعيدا عن أحب الناس اليه ، والده يكتب اليه مواسيا مصبرا :

لا تضق بالأمر صدرا وأعتد صبرا وشكرا
ان فى القرآن حرفا فيه للمكروب بشرى
ان بعد العسر يسرا ان بعد العسر يسرا
ان يسرا مع يسر يطردان العسر قسرا

(٢)

فى رحاب هذا الوالد الزاهد التقى الورع الذكى الألعى ذى القلب
الكبير والأدب الجهم والعلم الغزير والفكر الصائب والنفس المترفعة عن
متاع الدنيا وزهوها :

نشأ محمد بن اسماعيل الامير .
طفولة تبشر بأمل عريض فى كحلان حيث ولد ليلة الجمعة نصف
جمادى الآخرة عام ١٠٩٩ هـ .

ولعل مخايل الزكاء والعبقرية التى بدت واضحة مبكرة هى التى
شجعت الأب أن ينتقل الى صنعاء بعد أحد عشر عاما من مولده وكان محمد
قد بدأ حفظ القرآن فى كحلان فأتمه عن ظهر قلب فى صنعاء .

وتتلمذ على أبيه فى الفقه والنحو والبيان وأصول الدين ومجموع
الامام زيد بن على فى الحديث .

وكان الفضل للوالد اسماعيل فى توجيه ابنه الى دراسة كتب السنة
عندما اختار له مجموع زيد بن على — رضى الله عنه — لدراسات الأولى
التي عالجها مع ابنه .

فلم يكن هذا الكتاب النفيس من الكتب التي يقبل عليها علماء
المذهب الهادوى أو يشجعون طلاب العلم على دراستها بل كان من كتب
الأحرار المجتهدين من علماء الزيدية .

وكان كبار الفكر من العلماء الذين بلغوا فى العلم شأوا رفيعا وأفقا
وسيعا يعتصمون بهذا الكتاب منجاة لهم من ألسنة المتعصبين من الخاصة
وايذاء الجاهلين عن العامة .

وكان القلة من أمثال المقبلى والجلال والأخفش وابن الوزير ينسبون
بذلك الى الزيدية لا الهادوية .

اذ وجد هؤلاء العلماء أن الأئمة الحاكمين والائمة الطامعين فى الحكم
ومن حولهم من علماء الدولة يضيفون فى كل يوم الى المذهب الهادوى
ما يباعد بينه وبين مذهب زيد بن على .

وقد بلغت هذه الاضافات حدا يخشى منه على سلامة العقيدة وصحة
التطبيق فى الفروع . ثم هى قد فعلت فعلها فى عقول العامة من الناس
حتى حرمتها من البصر والبصيرة .

وكان الرجل من أسرة القاسم الذى تتكشف له حقيقة ما هم فيه
وتعلق هذه الحقيقة بقلب يقظان وضمير حى يسارع الى مجموع زيد يعصم
به دينه وفكره .

حتى ان يحيى بن الحسن بن المؤيد جمع القرآن الكريم ومجموع زيد
ابن على — رضى عنه — فى مجلد واحد . كأنه يذكر نفسه ويلج فى
تذكيرها بأنه قرآن وسنة لن يضل بعدهما ابدا .

وكان صلاح الأخفش يقول وكأنه يصيح فى وجه الناس أو بمعنى

أدق كأنه يصيح فى آذان النوام الذين طالت بهم الغفلة وغشيتهم غيبوبة
التضليل :

انما الزيدى من تابع زيد بن على
فى أصول وفروع وخفى وجلى
الأمام الطاهر الأعظم والفخر الجلى
ان ترد دين النبى المصطفى
فهو فى مجموع زيد بن على

وسنعود بالقارىء الى هذا الموضوع مرة أخرى عند الحديث عن
صراع ابن الأمير مع انحرافات المنحرفين . وبتوسع يجلو للقارىء وجه
الحقيقة .

وانطلق ابن الأمير بعد هذه الدراسة المبدئية على أييه وعلى كبار
العلماء فى كحلان .

انطلق يلاحق فطاحل العلماء فى عصره فتتلمذ على زيد بن محمد بن
الحسن وعلى بن محمد العنسى وصلاح بن الحسين الأخفش وعبد الله بن
على الوزير .

ولم يكن من ضيق الأفق وعمياء العصبية أن يقتصر على دراسة كتب
المذهب وأن يلزم جانب المتشددين فيه .

فجبه للبحث وتطلعه الى المعرفة وسعة أفقه ورثها عن أبيه كل ذلك
كان يدفعه الى أن يطلب العلم ويستنهين فى سبيل الطلب بكل المشاق .

روى انه كان يكتب كتاب « زاد المعاد » لابن القيم وكتاب « بهجة
المحافل » على ضوء القمر لعدم توفر السراج .

وما ان يصل الى صنعاء عالم زبيد الشيخ عبد الخالق بن الزين
المزجاجى حتى يكب على يديه يدرس صحيح مسلم والبخارى وسنن
أبى داود .

وكاد العهد بالبيت الحرام أن يقصده المسلمون لأداء فريضة الحج
فاتخذ ابن الأمير هذه الرحلة ليؤدي فريضتين :
فريضة الحج وفريضة العلم معا .

حج في عام ١١٢٢ هـ فدرس على خطيب المسجد النبوي الشيخ عبد
الرحمن بن الخطيب بن ابي الغيث أوائل الصحيحين وغيرهما . وفي
الوقت نفسه يأخذ عن الشيخ طاهر بن ابراهيم بن حسن الكردي ما عنده
من علم السنة وكانت رحلته الأولى الى الحجاز أفقا واسعا تفتح عليه
فكره الخصيب . لذلك لم يلبث أن عاد الى الحج والدراسة في عام ١١٣٢ هـ
وكانت فرصة للدراسة والمناظرة في الوقت نفسه فلم يعد ابن الأمير
ذلك الطالب الذي يقنع ببسائط العلوم بل امتدت أطماعه الفكرية الى
أمهات الكتب الاسلامية يقرأ وينظر ويناقش ويختار منها ما يقبله عقله
ويرفض ما لا يقتنع به .

في الحجة الثانية التقى بالشيخ الحافظ أبي الحسن بن عبد الهادي
المسندى وتشير كل الدلائل الى أن شخصية هذا العالم كانت ذات تأثير
كبير على ابن الأمير وان المناظرات والمراسلات العلمية التي جرت بينهما
حوت ابن الأمير تحولا كبيرا فعاد من صحبة الشيخ ليعكف على نشر
السنة النبوية وعلى التدريس والفتيا والتأليف والارشاد . وليواجه برأيه
انحرافات المذهب وانحرافات الحكام .

وكان ابن الأمير في هذا الوقت قد بلغ شأوا بعيدا من سعة الاطلاع
ودقة البصر في شتى مجالات العلوم العربية والدينية .
ومع ذلك فقد شاقته الحركة العلمية في الحجاز وجذبه اليها جذبا
شديدا لم يملك منها فكاكا .

فما ان عاد الى صنعاء في عام ١١٣٣ هـ حتى رجع الى الحجاز في
موسم عام ١١٣٤ هـ ليحج وليلتقى بالشيخ العلامة الأشبولى والسيد العلامة
عبد الرحمن بن أسلم .
وغبرهم من كبار العلماء .

ويسجل لنا التاريخ ان ثلاثة من هؤلاء العلماء كان لهم تأثير كبير فى حياة ابن الأمير العلمية .

ولم يكن ابن الامير حينذاك يعجز عن الاستقلال بالبحث ولكن تشوفه الى العلم وفهمه ورغبته فى أن يستنزف ما عند العلماء الكبار جعلته يلصق بهؤلاء الشيوخ حتى يصل الى أغوار معارفهم .

فلازم الشيخ العلامة محمد بن أحمد الأسدى حتى قرأ عليه شرح العمدة لابن دقيق العيد واستشارته مباحث الكتاب وشاقته موضوعاته فشرع لتوه يضع حاشيته عليه والتي سماها « العدة على شرح العمدة » .

والتقى بالشيخ الحسن بن حسين شاجور فبهرتة أصالته فى علم القراءات فتتلمذ عليه فيها .

أما الشيخ سالم بن عبد الله بن سالم البصرى فقد أخذ عنه مسند الامام أحمد بن حنبل وصحيح مسلم واحياء علوم الدين للغزالي .

أما الحجة الرابعة التى تمت فى عام ١١٣٩ هـ فسنرى أنها كانت فرصة اهتبلها ابن الأمير لينجو بنفسه من الفتن التى أخذت بتلايب البلاد ولكنه لم يترك هذه الفرصة تمر دون أن يفيد ويستفيد ويعلم ويتعلم .

وبذلك نرى ان حياة الطلب التى عاشها ابن الأمير قد استمرت حتى بلغ الاربعين .

فهل كان ابن الأمير فى هذه الحياة الطويلة لم يبلغ الشأو الذى بلغه غير من العلماء حتى يواصل هذه الدراسات الشاقة المضنية التى كانت تكلفه الغربة عن الأوطان وفراق الأهل والخلان ؟

الحق يقال ان ابن الأمير قد سبق وأعجب وهو لم يزل بعد صيبا . حتى اذا تخطى الخامسة عشرة من عمره عامله شيوخه معاملة الأخ والصديق .

وهناك أكثر من شاهد يؤكد مكانته فى هذه الفترة المبكرة من حياته كان زيد بن محمد يقول :

انه لم ير السيد صلاح الأخفش يمدح أحدا كمدح ابن الأمير وربما كان يزوره في الخان بسوق البز بصنعاء .

وهاهو القاضي علي بن محمد العنسي الذي كان يدرس له النحو والمنطق والفقه يمر بالمنزل الذي كان يسكنه تلميذه ابن الأمير فينشده :

واذا مررت « بسوح داود » (١) وقد تليت عليك رسائل ومساءل
عرج على تلك المنازل منشدا لك يا منازل في القلوب منازل
قد حلك « البدر » الرفيع فلم اقل اقفرت انت وهن منك اواهـل
كان سن الأمير عندما قيلت هذه الأبيات سبعة عشر عاما وكان القاضي
العنسي عملاقا بين علماء عصره حينذاك .

ولا غرابة اذا كان الشيخ يكرم تلميذه هذا التكريم فقد كان
التلميذ حقيقا بهذه المكانة لما تحلى به من أدب جهم ومعرفة لقدر العلم
وحرص عليه وعلى أصحابه .

كان يتردد على مسجد « الأبر » ليدرس على هذا القاضي كتاب
الخبیصی في النحو مع بعض التلاميذ . ولعل بادرة من زميل اسمه
« محسن » قد بدرت تجاه القاضي فتخلف من غده عن الدرس . فجزع
لذلك ابن الأمير أيما جزع مما أطلق لسانه بأول شعر قاله وهو في
السادسة عشرة فكتب بهذا الشعر وأرسله لأستاذه يسترضيه ويعتذر اليه
(وهي (٢) من أول شيء نظمناه في سن ستة عشرة سنة) .

جمال (٣) الهدى أوحشت لازلت مؤنسا فهل منع المولى عن الرق عارض
وشرح « الخبيصی » قدحلالی بقربكم وها هو لما غبت صاب وحامض
فلا تظلم المملوك ان كان «محسن» اساء فاني للمودة حافظ (٤)

(١) الحى الذى كان يسكنه ابن الامير

(٢) من كلام ابن الأمير مقسما لهذه الأبيات .

(٣) أهل اليمن يلقبون كل من اسمه «علي» جمال الدين .

(٤) كتبت في الاصل حافظ وحامض وابدال الظاء ضادا شائع في اليمن .

والمشاهد بين الشعراء من طلبية العلم اليمنيين أن تظهر مخايل
الشاعرية عندهم قبل هذا السن ، كما أن البيت الذي نشأ فيه ابن الأمير
أكبر مشجع على أن يبدأ الناشئ قول الشعر في سن مبكرة عن هذا
فقد علمنا أباه شاعرا مجيدا وجده شاعرا رقيقا وأساتذته جميعا يقولون
الشعر .

فمن العجب أن يبدأ ابن الأمير شاعريته الغزيرة المتدفقة في سن
السادسة عشرة .

ولعل انكباه على كتب العلم والجهد الصارم الذي أخذ به نفسه
في عهد الطلب هما اللذان أخرا هذه الملكة الى هذا الوقت والتي انطلق
بعدها العالم الشاعر يحدد لهذه الموهبة مجراها في خدمة العلم وحركة
الاصلاح .

فلا غرابة اذن اذا وجدناه بعد سبع سنوات يلتقى بالشيخ محمد
ابن سالم الحسائي الذي وصل من الحجاز الى صنعاء في عام ١١٢٢ هـ
ويكتشف الرجل شخصية ابن الأمير العالم فيجلس اليه ويتلمذ عليه ويشرح
له « العمر يظية » في النحو وقواعد الاعراب الكبرى لابن هشام .

ويهر علم ابن الامير هذا الرجل الوافد ثم تبهره شاعريته فيكشف
عن ناحية كانت من أبرز مميزات ابن الأمير بعد ذلك الا وهي استخدام
النظم في صوغ العلوم فيطلب من استاذة الشاب نظم قواعد الاعراب
لابن هشام فيستجيب الشاب لرغبة تلميذه وينظمها (نظما (١) بديعا
حلوا ضابطا لقواعدها) .

ويكشف الحسائي لأهل اليمن ابن الأمير .

اكتشف عالما يتصدر لمجالس العلم فتزخر به وبأفكاره ومعارفه .

واكتشفه شاعرا يسلم النظم له قياده حتى يتناول به غوامض العلوم
ومستعصياتها فترق على يديه وتزهو وتضيء بين قوافيه .

(١) نشر العرف لزيارة .

وما كاد الحسائي يظفر بأول مؤلف لابن الأمير — واعجب ان شئت
ان يكون هذا المؤلف منظوما — حتى انطلق به الى الحجاز ثم الى العراق
فيقدمه الى العلماء بهذين القطرين مبشرا بظهور عالم من علماء العرب
والمسلمين .

وتعجب المنظومة علماء العراق فيتقدم أحدهم لشرحها ويعد الحسائي
في رسائله — التي تبادلها مع أستاذه والتي لم تنقطع فترة من الوقت — أن
يهدى اليه نسخة من هذا الشرح ولكن قضاء الله قد حم فمات الرجل
غريقا شهيدا وتوارى معه أخبار هذا الكتاب .

ونرجو أن نكتفى بهذا القدر الذي يكشف شخصية ابن الأمير في
بدايتها فقد اتضحت لنا صورة الأسرة مع طفولة عادية وعلماء أجلاء
يعلمونه ويحبونه ويقدرونه في الوقت نفسه . وعقلية متفتحة للمعرفة
متطاعة . ليها وشاب جاد بعيد عن اللهو كل البعد همه الدرس والتحصيل
واستهانة بالمشاق في سبيل بغيته . وشخصية مستوية لا ازدواج فيها ولا
تعقيد ما ان يرى الرأي ويؤمن به حتى يعلنه ويجاهر به ويدافع عنه ،
وايمان بالله عميق احاطه هذا الايمان بكل مقومات القوة والصلابة بحيث
ظل سنتين عاما منذ بدأ رسالته لم تلن له قناة ولم ينحرف عن الطريق الذي
اختطه لنفسه .

وقد استبعدنا من الفترة الأولى التي احاطت بابن الامير تلك الرؤى
التي رؤيت له والتي أولها أصحابها أو ذووه بأنه العلم الذي اشتهر به بعد
وطبق بسنعه الآفاق .

فمن حق ابن الأمير علينا وللأمانة التاريخية التي ألزمتنا أنفسنا بها أن
نقول ان محمد بن اسماعيل الأمير مرتبط بفترة من تاريخ اليمن تفاعل
معهما وتأثرت به وارتبط بها وارتبطت به وأصبح هو جزء من هذه الفترة .

فكل حادثة وقعت زمن ابن الأمير تلقى ضوءا على شخصيته وكل
رأى نادى به فهو نابع من واقع مجتمعه بما فيه من خير وشر .

والفترة التى نشير اليها طويلة ومعقدة ثم هى بعيدة عن متناول القارئ العادى لأنها فى بطون مخطوطات مختلفة خطا وأسلوبا وترتيا .

هذا من ناحية ومن ناحية اخرى فان الحقائق التى يمكن للباحث ان يصل اليها سترهقه تنقيبا ومقارنة بين المخطوطات حتى يستخرج وجه الحق من بين مؤلفات كتبت تقريبا لملوك اليمن اما تاريخا لهم أو تاريخا لأبائهم . لذلك فقد كان خير طريق نسلط به الأضواء على شخصية صاحبنا الذى نعنئ بدراسته ان نسلط الاضواء على الاحداث التى عاشها وعاشها الشعب اليمنى العظيم معه .

ومن خلال هذه الأحداث ستحدد أبعاد الشخصية وتبرز للعالم العربى والاسلامى عظمة هذا العالم الجليل .

ولعلنا نكون بذلك قد كشفنا الغطاء عن جوهر الرجل ثم نحن على يقين بأن العلماء والباحثين فى العالم العربى والاسلامى سيتسابقون لتوفية ابن الأمير حقه من الدراسة الادبية والعلمية وطبع مؤلفاته العظيمة ونشرها على الشعب ليتم به النفع فى عصر من الحرية طالما تاقت نفس الرجل أن يتسم عقبها بين ربوع اليمن وقد أجملنا الأحداث والمباحث التى ستقدم اليك فى الفصول الآتية :

الفصل الثانى : عالم السنة وداعيتها

ويرتبط بهذا الفصل الخلاف بين فرق الزيدية ومحاولة قتل ابن الأمير وتآليب العامة عليه والدس له عند الأئمة والصراع الفكرى بينه وبين الوهابيين .

الفصل الثالث : فساد الحكم ودعوة الإصلاح

وسيعرض هذا الفصل صورا من الفساد الذى كانت ترعاه الأسر الحاكمة وتحميه .

وابن الأمير قد حدد ألوان هذا الفساد فى كتاب له حرره فى عام ١١٤٦ هـ ووجهه الى المنصور حسين وقد تناول :

خطر المكوس — خطر الاقطاع — فساد العمال — الخطاط — الوقف —
العملة أو الدراهم — اليهود .

وتكتمل الصورة اذا اصفنا الى ذلك موضوعين من الموضوعات التى
عالجها ابن الامير وهما السجن وافساد الائمة للقبائل .

الفصل الرابع : رجل السلام

وهذا الفصل مرتبط بسابقه وكان من الممكن أن يدرج ضمن
موضوعاته ولكن آراء ابن الأمير وبعض العلماء المعاصرين له فى الصراع
الشديد بين افراد بيت القاسم على الحكم وما جره على البلاد من ويلات
هو الذى شجعنا على أن نفرده فصلا مستقلا .

الفصل الخامس : ابن الأمير وبيت اسحق

وكان من الممكن أن تجر هذه العلاقة ابن الأمير الى غير ما رسم
لنفسه من طريق ولكن الرجل استطاع فى براعة أن يمضى فى طريقه بعيدا
عن تكالب المتكالبين وصراع الطامعين .

الفصل السادس : مختارات

وسيكون هذا الفصل لمختارات من شعر ابن الامير تمكن الباحث
من استكمال فكرته عن شخصية الشاعر كما أننا سنتحرى فى الاختيار
بعض الجوانب التى لم تتناولها فى الفصول السابقة .

الفصل السابع : مؤلفاته

ولعل فى تعداد هذه المؤلفات ما يشجع الباحثين والمؤسسات العلمية
على ان تعطىها بعض العناية التى يتيح لها النشر بعد التحقيق .

الفصل الثاني

عالم السنة وداعيتها

كان الحديث بأرضكم
مُستَغْرِباً والله جدا
حتى نشرتُ فنونه
وَجَلَوْتُ منه ما تصدّى
وَلِدْرُسِهِ ولأخذنا
من بعدنا كُلُّ تصدّى
وَتَنَافَسَ العلماءُ في
كُتُبِ الحديثِ هوى ووجدنا
هذا يتنسيخ وذا
بشرائها بالمال نقدا
ما قلتُ ذَا فخرًا ولا
أرجو بنشرِ العلمِ جدًا
بل قلته مُتَحَدِّثًا
بِنَعِيمٍ مَنْ أعطى وأجدى
بالله قل لي يا عدو
لُ علامَ تغدني مُجدا ؟

(١)

لا يستطيع مسلم صادق الايمان أن ينكر عالى زيد بن على رضى الله عنه فضله ومكاته بين الأئمة المجتهدين ولا أثر المدرسة التى كونها فى خدمة الفقه الاسلامى . هذه المدرسة التى خرجت أبا حنيفة النعمان وصحبه والتى كان من تلامذتها الإمام الشافعى .

ومن الثابت أن الامام زيد لم يترك وراءه الا كتابا واحدا جمع فيه ما ثبت لديه من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم . هذا الكتاب العظيم الذى يسمى « مجموع زيد بن على » .

وقد أراد بذلك — رضى الله عنه — أن يكون ما بين دفتى الكتاب من أحاديث مرجعا للعلماء والباحثين بعد كتاب الله سبحانه .

واتخذ العلماء من المجموع أساسا لتفقيه مذهب زيد وظهر القاسم الرسى وانتقل المذهب الى بعض مناطق اليمن ثم من بعده وفد الى اليمن حفيده يحيى بن الحسين الملقب بالهادى الى الحق والذى نشر المذهب فى شمال اليمن .

وقد ارتبطت دعوة الهادى بالدعوة الى الامامة ولم يكن فى العالم الاسلامى مكان تخصب فيه الدعوة العلوية مثل بلاد اليمن لما طبع عليه هذا الشعب من ايمان عميق وسلامة طبع عربية جعلتهم يتعلقون بكل ما يربطهم بالاسلام ويوثق الصلة بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وكل المذاهب الاسلامية التى نشأت فى ظل القرآن حقيقة بأن تكون محل اجلال المسلمين واحترامهم .

وقد يتفق الأئمة المجتهدون فى الفروع ويختلفون ونحن أمام هذا الاتفاق وهذا الاختلاف لا نكن لهم الا كل اعجاب وتقدير .

فما كان عمل هؤلاء المفكرين الا لخدمة الاسلام والمسلمين والا محاولة منهم لتقريب الاسلام وأحكامه من العقول وجلاء ماغض منه وتبصير الناس بعظمة هذا الدين الحنيف .

والأمر كذلك فيما يتصل بمذهب زيد بن علي رضي الله عنه . ولكن بعد أن قدم الى اليمن الهادي الى الحق يحيى الرسي وارتبطت دعوته بالحكم ارتبط المذهب بالحكم أيضا . وبدأت تتكون خلافات بين فقه زيد في مجموعه وبين المذهب الهادوي .

واتسعت هذه الخلافات وتفرقت الفرق من الزيدية وكانت أقسى الخلافات بينها هو ما يتصل بحق الامة وشروطها .

وقد ظل الصراع الفكري قائما بين أهل اليمن أحد عشر قرنا حول هذا الموضوع .

ولو أن الأمر اقتصر على الخلافات النظرية لهان الأمر بل لجنى الفكر الاسلامي من وراء هذه الخلافات آراء تنفع وفقها يفيد .

ولكن ارتباط الخلافات بأساليب الحكم حولت هذه الخلافات الى صراع دموي عنيف وجعلت الفرق تشتت في آرائها شططا كاد يبعدها عن جادة الصواب أو أبعدها بالفعل .

وكان المذهب الهادوي عندما تتاح له فرصة التسلط على الحكم يدعم الصلة بين المذهب وبين سلطان الأسر الحاكمة . وفي الوقت نفسه يوجه سلطان الحكم للقضاء على كل مخالف في الرأي وبكل وسائل السلطان . حتى ضاق الناس بتلك الأسرة التي احتكرت الحكم وضاق العلماء بهذه الآراء التي حملت على زيد بن علي حملا لا سند له ولا دليل عليه .

وأصبح بعض الثائرين يرددون في اصرار قول نشوان الحميري :
آل النبي همـو أتباع ملته من الأعاجم والسودان والعرب
لو لم يكن آله الا قرابتـه صلى المصلى على الطاغى أبى لهب

وفي الوقت نفسه كان الحاكمون والظالمون في الحكم على السواء يواجهون كل من ينكر عليهم الامامة بقول عبد الله بن حمزة .

أما الذى عند جدودى فيه فيقطعون لسنه من فيه
ويؤتمنون جهرة بنيه لأن حق الغير يدعيه

ولما نشأت فى ظل المذهب فرقة المطرفية التى لا تختلف عن بقية الفرق
الا فيما فادت به من رأى — بالنسبة للإمامة وعدم حصرها فى أبناء فاطمة
الزهراء رضى الله عنها . ظلت هذه الفرقة تواجه حربا شعواء لا هوادة فيها
وسلطت السيوف على رقاب أتباعها حتى أرهقتهم واستأصلت جذورهم
وأفنتهم عن آخرهم .

وما زالت ديارهم بلواء حجة ووديانهم الشخصية « وهجرهم » فى بنى
شهاب مخربة الى اليوم .

وقد رأينا شدة الحقد على المطرفية والكيد لهم أيام عبد الله بن حمزة
الذى كان يحرم عليهم دخول المساجد ويسجل على واجهة مسجده :

أقسمت قسمة حالف بروفى لا يدخلنك ما حييت مطرفى

ثم رأينا ان اعطاء حق التشريع والاجتهاد للإمام كيف استغل أشنع
استغلال وضررنا لذلك مثلا . واضحا بالحكم الذى أصدره المتوكل
اسماعيل والذى أدرك خطورته الهادى الجلال فعارضه مدعما رأيه بالأدلة
الواضحة من الكتاب والسنة .

وسنرى فيما بعد أن هذا الحكم قد ساق الأئمة الى ألوان من الجور
والفساد كان لهما أسوأ الأثر على الشعب . وعلى أسلوب الحكم حتى اذا
جاء عهد المهدي صاحب المواهب ومن بعده القاسم الرهيب والمنصور حسين
تحول اليمن الى مجموعة من الاقطاعيات يسام الناس فيها سوء العذاب .

واضطر العلماء الى مهاجمة المتوكل اسماعيل والحكم — حتى بعد
مئاته — الذى نادى به وما جره على البلاد من ويل وفساد .

ولنستمع الى الحسين بن عبد القادر الروضى حيث يقول فى زمن

المنصور حسين وسرى أن هذا الشعر يقطر سخرية وسخطا وألما للحالة التي وصلت إليها البلاد :

قالوا أمامهم اسماعيل عالمهم	أفتاهم بمقال فيه برهان
يقول ان جنود الترك كافرة	دانت لهم من جميع القطر بلدان
وبعدهم قد ملكناها بقوتنا	صارت الينا حلالا بعدما بانوا
وكل شخص من الزراع عاملنا	على الذى ييديه أينما كانوا
أصولنا تقتضى هذا فلا حرج	بما أخذنا ولا والقول بهتان
أبليس سول هذا والنفوس دعت	اليه رغبتها فيها لها شان
هذى الخيالات لا تجدى ليوم غد	إذا قضى بين أهل الأرض ديان

وبصورة أخرى عرفناها مما سبق وهى تلك الكرامات التى كانت تقتزن بكل امام عن استخدامه للجن ومؤازرة الملائكة له والرؤى التى تدعم أصالته فى الامامة وتضفى عليه صفات يقبل بعضها العقل فى تحفظ وينكر أكثرها فى غير تحفظ .

وكانت تعاليم المذهب تلزم الناس بالطاعة العمياء وتطالبهم بالانقياد الأعمى لكل داع من هؤلاء الدعاة . حتى أصبح كل مواطن يجد حرجا فى دينه ألا يلبي دعوة الامام . واضطرب على الناس الأمر اضطرابا شديدا فكانت تصلهم دعوات متعددة من عدد من الأئمة المطالبين بالحكم فيسارعون بالبيعة لهم جميعا خوفا من أن تفوتهم احدى البيعات فيتهمون فى عقيدتهم فى أبسط الاحتمالات أو يتهمون فى ولائهم ان قدر لهذا الداعى الوصول الى الحكم وينتقم لنفسه شر انتقام من فرد تأخر عن الاستجابة له ولدعوته .

ولبت الأمر امتد بنا بعد هذه الفترة التى تؤرخ لها حتى نريك أن عشرات من الأئمة قاموا فى وقت واحد وحتى اتخذت كل قبيلة اماما لها . وبلغ الهوا ن بعض الأئمة أن كان الواحد منهم لا يجد قوت يومه الا فى

يوم الجمعة يساق الى المسجد فى موكبه وقد ألبسوه العمامة وقدموا له لذيذ الطعام . فاذا قضيت الصلاة أهملوه اهمالا شديدا .

وها قد رأينا أنه بعد موت المتوكل ودعوة المنصور ويوسف بن المتوكل ومحمد بن أسحق أن الناس قد طوقوا أعناقهم بثلاث بيعات .

وللناس كل العذر فى هذا الذى صنعوه . فان الهجر تنشط منذ عشرات السنين تلقن طلبة العلم وأن علماء الدولة يلحون على الناس فى كل مناسبة بما جاء فى متن الأزهار عن الامام :

(تجب طاعته ونصيخته أو بيعته ان طلبها . وتسقط عدالة من أباه ونصبيه من الفىء) .

(ويؤدب من يثبط عنه أو ينفى) .

(ومن عادة فبقلبه مخطيء وبلسائه فاسق وييده محارب) .

وفى مواجهة هذا العداء من أى كائن من كان سلطت الآية الكريمة الآتية على رقاب الناس وحصدوا فى ظلها مالا يحصى عددا من الأرواح :

بسم الله الرحمن الرحيم :

« انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض » وكان أحرار الفكر من العلماء ترتجف أوصالهم فزعا قبل كل رأى يصدر عنهم مخافة أن يرمى أحدهم بعداء الإمام .

وكان أباة الضيم من عامة الشعب يتلقون ظلم العمال والقضاة والوزراء فى صبر يقتل الأرواح مخافة أن يرمى الواحد منهم بعداء الإمام .

وكان الأقوياء من بيت القاسم يستغلون ضعف الناس ومسارعتهم لتلبية كل داع . فما أن يسوت امام حتى يلقوا بدعواتهم فى أنحاء اليمن ثم يتجهون الى سوق المنافسة أو سوق الحرب حتى يظفر كل منهم باقطاعية ترضيه ثم يلقون بباقي أشلاء اليمن الى الامام الجديد .

والأمر الخطير من كل ذلك هو مطاردة الناس بتقديس المذهب حتى سدوا على العلماء أبواب التفكير . وكنت اذا جادلت واحد منهم واستندت فى حديثك الى القرآن الكريم أو الى أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم — رد عليك محتجا هو برأى المذهب كأن المذهب وحى منزل من السماء نسخ ما عداه .

وقد واجه العلماء الأحرار هذه الظاهرة من قديم . ولكن الأمور تعقدت الى درجة لا يقبلها عقل . وكان الذى وصل بها الى هذا التعقيد الهجر التنى أنشأها القاسم والمؤلفات التى فرضت على الناس فرضا لا يعرفون بابا من أبواب العلم سواها .

وليس من المعقول أن يلقى على كاهل القاسم وبينه كل أوزار التعصب الأعمى الذى وصل الناس اليه . ولكن الذى نقصده أنهم رأوا خطأ فصبوه ثم بالغوا فى تدعيمه حتى أصبح هو الصواب المطلق وغيره جهل وخروج على الدين ومن يقول به « ناصبى » يستحل ماله وعرضه ودمه .

لقد واجه نشوان الحميرى الشاعر العالم اليمنى الأصيل هذه الموجات من التعصب فناقشها بكتاباتهِ وبشعره ولقى فى سبيل مقاومتها بلاء كبيرا وكان يتعجب من خصومه ومن حججهم التى يعارضون بها آراءه فيقول :

إذا جادلت بالقرآن خصمى أجاب مجادلا بكلام يحيى
فقلت كلام ربك عنه وحى أتجعل قول يحيى عنه وحيا

ثم أنظر الى هذه السخرية التى يتناول بها هؤلاء الذين يواجهون الناس بوجه كله التقوى والورع والزهد حتى اذا خلوا الى أنفسهم امتد

شيطان اللهو بهم الى مدى بعيد ينكره الدين كل الانكار وتأباه الأخلاق
الفاضلة كل الأباء .

ولا تختلف الصورة يومئذ عن تلك التى كشفتها الثورة المباركة عندما
وجدت قصور أسرة حميد الدين تزخر بصناديق الخمر وقد كتب عليها
من الخارج « قرآن كريم لا يسه الا المطهرون » والاستهانة بالقيم الدينية
فى داخل القصور ليس بغريب على الأسر الحاكمة . وكانت الحوادث تأتى
ببعض الشواهد التى تؤكد هذا المعنى .

كان للامام يحيى مؤذن يتقاضى فى اليوم ٢ بقشة وللمؤذن أربعة
أولاد . وذهب الى يحيى يستجديه زيادة فى مقرره فصاح فى وجهه « رحلك
شدى بدلك ديك يؤذن » أو بمعنى آخر « اذهب فمن الممكن أن أستبدلك
بديك يصيح » والأذا نعبادة ولا يليق بمن يدعى أنه امام أن يستهين بمقام
العبادة الى هذه الدرجة .

ولنرجع الى نشوان فى سخريته الساخرة ومناقشته الهادئة لأمثال
هؤلاء اذ يقول :

أيها السائل عنى أننى	مظهر من مذهبى ما أبطن
مذهبى التوحيد والعدل الذى	هو فى الأرض الطريق البين
ان أولى الناس بالأمر الذى	هو أتقى الناس والمؤتمن
كائننا من كان لا يجهل ما	ورد الفرض به والسنن
أبيض الجلد أو أسودها	أنفه مخروطية والأذن

الى أن يوجه الى هؤلاء المتعصبين الخطاب بقوله :

ودعوا العين لمن خالفكم لعنة الله على من يلعن
وقد بلغ هذا التعصب مداه فى عهد أسرة القاسم حتى لاقى المفكرون
منها كل عناء .

ولعل الظروف تتيح لنا فرصة الكتابة عن المقبل فى بحث خاص به
لنرى ما صنعه به الأئمة والعلماء جميعا حتى أخرجوه من وطنه فارا
برأيه ناجيا بحياته هاربا بحريته .

(٢)

وكان ابن الأمير على علم بالمستقبل الذى يواجهه عندما عاد من حجته
الثانية والتي استغرقت قرابة ستة أشهر فى عام ١١٣٣ هـ لبدأ رسالته فى
أحياء السنة .

وكان قد ارتبط برجال المعارضة منذ نهاية العهد بصاحب المواهب
وكانت المعارضة تجد فى دعوة ابن الأمير سندا قويا وحجة واضحة على
الفساد الذى عم البلاد .

وكان القاسم الرهيب يطارد خصومه مطاردة دموية لا رحمة فيها ولا
هوادة وقد جمع حوله كل شياطين الحكم الذين عرف قدرتهم على تنفيذ
سياسته من أيام عمه صاحب المواهب .

وابن الأمير ينظر الى الأمر نظرة عامة شاملة لا سبيل الى حل مشكلة
اليمن الا عن طريقها .

فأبناء المذهب من الزيدية مختلفون تتنازعهم الفرق والاتجاهات ،
وزعاء المذهب متنازعون يتقاتلون على امتلاك المذهب وقيادته الذى هو فى
الوقت نفسه امتلاك لليمن وذخائره .

ثم هم جميعا فى عدااء طاحن مع أصحاب المذاهب الأخرى فى جبال
حراز واليمن الأسفل .

ولا منجاة لليمن من هذا التمزق الا العودة الى الكتاب والسنة . ففى
اقناع الناس بالكتاب والسنة تحرير لعقولهم وأرواحهم من الشعوذات
والأفكار المضللة التى أغرقتهم فى دوامات طاحنة لا يملكون معها هدأة فكر
ولا رجعة ضمير .

وفى اقناع الشعب بالكتاب والسنة تخليص لهم من عبودية الامامة

وسيطرتها وكشف للمظالم التي ترتكب باسم الدين والدين منها براء . وفى اقناع العلماء بالكتاب والسنة الزام لهم بواجبهم المقدس من الجهر بكلمة المعروف والنهى عن المنكر وابعادهم عن جانب السلطان وتقريبهم من جانب الشعب .

وفى تعريف الأئمة بالكتاب والسنة توضيح لأساليب الحكم الحقّة السليمة العادلة التي جاء بها الاسلام واشعار لهم بأنهم يحكمون شعبا واعيا يفرق بين الحق والباطل .

وهذا فى حد ذاته يفرض على الحاكمين تقدير جانب المحكومين وعدم الاستهانة بهم وبحقوقهم .

اذن فقد كانت دعوة الكتاب والسنة ثورة جذرية فى أسلوب الحكم فضلا عن كونها ثورة فى الأصول والفروع .

ثورة على احتكار الحكم والمتاجرة بولاء الرعايا ، وبعث للشعب أن يرى طريقه الى الحضارة العريقة التي صنعها منذ فجر التاريخ .

وابن الأمير فى ثورته تلك يعلم أن تناول الأمر فى هوادة وأناة سيصل به وبالبلاد الى ما يريد وأن أى تهوّر أو اندفاع كفيل بأن يورده مورد التهلكة ويعود بالانتكاسة على دعوته وسيكون ذلك من الشعب المسكين المغرر به قبل أن يكون من الحكام .

وفى ضوء هذا يمكن أن نفهم السر فى « السؤال عن المذهب » تلك القصيدة التي انتشرت فى أرجاء البلاد حتى لم يبق مسجد من المساجد لم تنفذ اليه ولم يبق عالم من العلماء لم يتعرض لها بالرد أو بالهجوم السافر العنيف .

والسؤال عن المذهب سؤال قديم متوارث أثاره عدد من الباحثين عندما رأوا كثيرا من الأحكام وكثيرا من الفروع القفوية قد التزم بها الأئمة وألزموا بها الشعب . حتى صار العامة لا يخطر ببالهم أن فى الدين الاسلامى خلاف لهذه الآراء .

والغريب أن بعض هذه الآراء قد ورد فى مجموع زيد ما يجيز مخالفتها أو ما يرجح غيرها عليها . كرفع اليدين عند تكبيرة الاحرام وضم اليدين

عند القراءة والتوجه (١) بعد تكبيرة الاحرام والتورك في جلسة التشهد والاشارة بالمسبحة فيه وقراءة الفاتحة خلف الامام والدعاء في الصلاة والتأمين عقب قراءة الامام للفاتحة .

ومذهب زيد في هذا سهل سمح ميسر روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أقواله وأفعاله التي أجازت الرفع وتركه وضم اليدين وارسالهما والدعاء في الصلاة والتأمين :

لا عذر للزیدی فی تركه للرفع والضم واحرامه
مكبرا قبل الدعاء أنه مذهب زيد عنه أعلامه
وقول آمين له مذهب قال بهذا عارف أحكامه
فاعمل بهذا ان كنت من حزبه واطرح اللوم للوامه
ولكن هل كان يجرؤ انسان على أن يجهر « بآمين » خلف الامام أو
أن يرفع يديه عند تكبيرة الاحرام .

واذا سألت الخاصة قالوا مذهب زيد فاذا أطلعتهم على المجموع قالوا
مذهب يحيى الهادي .

اذن لماذا تنسبون لزيد ما ليس لزيد .

واذا كنتم تلتزمون بما قال زيد فلماذا تحاربون ما رواه زيد .
والطامة الكبرى هي تلك الحجج التي كان يجادل بها علماء السنة من
القرآن الكريم والسنة المطهرة وهي لا تختلف عما أثر عن زيد بن علي في
قليل أو كثير فاذا ببعض المتعصبين يقولون لا نلتزم بها بل نلتزم بالمذهب .

واتصل هذا الموضوع الخطير بالحكم الذي أصدره المتوكل اسماعيل
وحول به أرض اليمن كلها من أرض عشرية تعطى الزكاة الى أرض خراجية
كأنها فتحت عنوة مثل أرض خيبر وأصبح رأى المتوكل أصلا من أصول
المذهب .

وأعرض الأئمة ومن يدور في فلكهم عن الأسانيد الفقهية التي دعها

(١) بأن يقول المصلی وجهت وجهی للذی فطر السموات والأرض ٠٠ الخ

العلماء بالقرآن والسنة والأحكام التي تواردت عن صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضى عنهم .

وفى بداية الأمر كان ابن الأمير يلتقى بكبار العلماء ويشير المسائل الخلافية ثم يسألهم : مذهب من هذا ؟

ويدور مع المسألة الى أصولها التي توضح أن الرأي الراجح الأقوى خلاف ما عليه المذهب .

ثم يعود الى المذهب ويتساءل :

— مذهب من هذا الذى يقول بهذا الرأي ؟

— مذهب زيد .

— قد عرفتم أن زيدا لم يقل به .

— مذهب يحيى الهادى .

— اذن لماذا تنسبونه : الى زيد ؟

طريقة سلكها فلاسفة اليونان من قبل . اثاره الشك للوصول الى الحقيقة .

ثم انتقل ابن الأمير الى مرحلة أخرى . دفع تلميذه أسحق بن يوسف ابن المتوكل الى صياغة السؤال شعرا :

أيها الاعلام من ساداتنا	ومصاييح دياجى المشكل
أخبرونا ما الذى تدعونه	مذهبا فى القول أو فى العمل
من هو المتبوع سموه لنا	علنا نقفوه نهج السبل
فاذا قلنا ليحيى قيل لا	ها هنا الحق لزيد بن على
واذا قلنا لزيد قلتم	بل عن الهادى هنا لم نعدل
واذا قلنا لهذا ولذا	فهما خير جميع الملل
قررنا المذهب قولا خارجا	عن نصوص الآل وابحث وسل
أن يكن قرره مجتهد	كان تقليدا له كالأول

أو يكن قرره من دونه فقد انسدت طريق الجدل
ثم من ناظر أو جادل أو رام كشفنا للذي لم ينجل
قدحوا في دينه واتخذوا عرضه مرمى سهام الموصل
واتنشر السؤال انتشار النار في الهشيم وتدافع العلماء يتسابقون
لرد عليه (١) وكثرت الجوابات عن السؤال وبعضها ممن لم يفهم السؤال
وطارت كل مطار وملاأت الأقطار .

والعجب العاجب أن ناظم السؤال لم يتحمل تبعة نظمه بل رجع الخاصة
والعامة على ابن الأمير لأنهم يعلمون أنه وراء تلميذه .

وبدأ ريح السؤال يهدد سلطان الحكم ويهزه هذا عنيفا وسارع به
المتزلفون الى القاسم الرهيب يقرأونه عليه ويضعون أيديهم على مكان
الخطر فيه (وكثرت الأذية « على ابن الأمير » من الجهال) وغالب الظن
أن بعض أساتذة ابن الأمير خاف على نفسه من انتساب الأمير اليه . فها هو
صلاح الأخفش يسارع الى تلميذه (٢) يعاتبه على القاء السؤال على
التلاميذ (فأجاب عليه : ان هذا مشكل على فتفضل أفدنى فانه يقول
المهدى -- رحمه الله -- في المقدمة انما يقلد مجتهد عدل) . (فلم يزد على
السكوت) وهو يعنى أستاذه صلاح الأخفش -- أرأيت الى هذا الرد
الهاديء الرزين العميق :

— أفدنى

أنتم تقلدون ولا بأس من التقليد . ولكن صاحب المذهب الذي
تلتزمون به يشترط فيمن تقلدونه أن يكون مجتهدا لا جاهلا وعدلا لا ظالما
عسوقا .

وتكثر الاجابات وتجمع وكل يدعى أنه أجاب على السؤال ثم يذهبون
بالسؤال وباجابات المجيبين الى ابن الأمير فيأسف اليهم في أدب جم أن
الاجابة الصحيحة لم ترد على لسان واحد منهم .

(١) ديوان ابن الأمير

ويحتكمون الى والده اسماعيل فيؤيد ابنه فيما ذهب اليه والى هنا ويكون الأمر قد وصل الى غايته وأعطت البذور أكلها وحان قطاف الثمرة فينبرى ابن الأمير للرد على السؤال وله فى الاجابة على السؤال قصيدتان :

قد أتيتهم بسؤال مشكل كم سألنا عنه قوما غيركم وأجابوا بجوابات لهم ويقولون هم زيدية هذه كتبهم ناطقة ان تبعت النص فى مسألة واذا قلت حديث المصطفى قصروا الحق على مذهبهم ومع تصويبهم كلا (١) بلا فاجعلوا الكل فيه سواء أو	لا أرى اشكاله بالمنجل من أولى العلم وأهل الجدل كلها فى حله غير جلى وهم عن نهجه فى معزل بالخلافات لزيد بن على قيل هذا شافعى حنبلى قلت المذهب أهدى السبل ثم ذا المذهب لم يظهر لى مرية فالقصر عين المشكل فامنعوا تقليد غير الأفضل
---	---

ويشير فى هذه القصيدة الى اجابة تلميذه الحسن بن اسحق والذي يطلب من المقلد أن يقلد آل البيت على الاطلاق :

ويرد عليه ابن الأمير بقوله :

لم يقل ذا أحد يا أملى حال تكبير وذا رأى الولى (٢) أم يقولون أتى بالمعضل رفعه الكفين فليعتزل	• • • • • أتراى لو رفعت الكف فى هل ترى أشياخكم تتركنى خالف المذهب بالبدعة فى
--	---

وجواب آخر لأحد العلماء الذين تصدوا للأجابة على السؤال والذي يؤكد فى اجابته أن كل مايقوله يحىي الرسى هو نفسه قول زيد بن على وكل حكم يصدر من الهادى يجب أن يعتبر صادرا من زيد . كيف هذا .

(١) يسير الى قاعدة « كل مجتهد صيب » وهى من أصول المذهب ثم
بتهى الأمر بالجماعة الى قصر الصواب على مجتهد دون مجتهد .

(٢) زيد بن على

والخلافات لنا شاهدة كم رواها عنهم من رجل
فاذا قلتهم كفى فى المدعى اتفاق منهم فى الجمل
قلت هذا حاصل فى كل من خالف الآل ففتش وسئل
ما جعلوا الأقوال قولا واحدا لا تقولوا حنفى حنبلى

وفى القصيدة الثانية يتعرض لخطر هذا التضييل على الحكم وعلى
العلم والمتعلمين وأخيرا على الشعب فيقول فى تلك القصيدة :

وقمت على السؤال وما حواه وقوف محاول فهم الخطاب
ودونك أيها الحيران فاسمع جوابا لم يكن لك فى حساب
فمذهبا اذا ما أطلقوه وقرره النجوم من الصواب
وأطلقه المحقق فى الفتاوى وعنونه بعنوان الصواب
وأضحى فى يد الحكام سيفا تشق به القضايا كالرقاب
وقيده الرءوس لدى دروس بلفظة مذهب طى الكتاب

كان هذا السؤال بمثابة اعلان لثورة وقد أعلنها الأمير من أول يوم
فقد شغل الناس بهذا الموضوع الخطير فى عام ١١٣٤ هـ وها نحن نراه لم
يضيع وقتنا كثيرا ليبدأ مرحلة الجهاد .

وسرى فى الفصل القادم أن الرجل قد شغل نفسه بمعركتين وحارب
فى ميدانين عندما هاجم فساد الحكم فى نفس العام بقصيدة كتبها هو
وحملها رجال المعارضة وطوفوا بها فى كل مكان ، وسرى هذه القصيدة قد
شغلت القاسم الرهيب وأهمته وانطلق رجاله يبحثون عن قائلها وكانت
لا تحوم شبهة حول شاعر يظن منه أنه قائل هذه القصيدة حتى يلقي به
القاسم فى السجن ونعنى بها القصيدة التى مطلعها :

سماعا عباد الله أهل البصائر لقول له ينفى منام النواظر
وهى التى سنتناولها وتتناول الظروف التى أحاطت بها فى كثير من
التفصيل .

واستمر ابن الأمير فى خطته تلك يثير الاعتراضات حول المشاكل وتطلق الأسئلة من تلامذته ويترك هذه الأسئلة تفعل فعلها فى عقول الناس وتجعل قلوب المتزمطين تغلى حقدا وثورة على ابن الأمير ومدرسته .

فتارة ينظم هذا السؤال ويدفع به الى أحد تلاميذه ليتصدى له العلماء بالرد عليه وتتعاظم المشكلة وتشغل الناس ثم يتصدى هو للرد عليها وجلاء ما غمض منها كما فعل مع اسحق بن يوسف فى السؤال السابق .

وتارة أخرى يتلقى هو الأسئلة من تلامذته ويتخذها سبيلا الى توضيح بعض الحقائق التى خفيت على الأفهام .

كالسؤال الذى تلقاه من محمد بن هاشم بن يحيى الشامى عن بعض المسائل المتعلقة بالصلاة التى أوردنا بعضها منها فيما سبق فيجب الأمير على هذا السؤال بكتاب سماه

« المسائل المرضية فى اتفاق أهل السنة على سنن الصلاة والزيدية »

ويتحرى ابن الأمير فى دروسه التى تصدر لها أن يلتبس المعونة من علماء اليمن الأجلاء الذين عنوا بدراسة السنة حتى لا يفاجأ الناس بدعوته وحتى لا يشعروا بأنه جاء بجديد وهو يشيد بهؤلاء العلماء وبمؤلفاتهم فى شعره حتى يلفت النظر اليهم والى آرائهم التى نادوا بها . كما فعل مع محمد ابن إبراهيم الوزير والحسن بن أحمد الجلال .

ويسجل لنا ديوان شعره أنه درس كتب الجلال مع والده (لما تم لى أنا ووالدى العلامة التقى ضياء الدين اسماعيل بن صلاح الأمير — رحمه الله — مطالعة كثير من مؤلفات السيد العلامة الحسن بن أحمد الجلال — رضى الله عنه — عجبنا من ذهنه الوقاد وتنبه لقواعد الاجتهاد ، فقال والدى — رحمه الله تعالى — لعله فى سنة ١١٣٢ هـ .

فـ در الجلال من علم يعجى صواب العلوم عن قلمه ويقول الوالد فى قصيدته :

قد غربل العلم فانتقاه فما لصاحب المنتقى سوى قدمه

ويعقب عليه ولده محمد فيقول :

صدقت فيما نظمت من كلم ما الدر عندي يعد من قيمة
ان جهل القاصرون رتبته فذاك مما يز يد في عظمه
ينقد قول الرجال عن نظر نراه مستخرجا لمنكتمه

ويحيى كنب الجلال بتدريسها واشاعتها بين تلاميذه وكان كتاب « ضوء
النهار » مثار جدل عنيف وحملة شديدة على ابن الأمير لاهتمامه به وعنايته
بتدريسه ، فيشرع في تأليف حاشيته عليه التي سماها « منحة الغفار على
ضوء النهار » في مجلدين ضخمين .

وكانت هذه الأضواء الفكرية التي يسلطها ابن الأمير على الشؤون
الفكرية أقوى من أن يواجهها أقزام المعرفة فيسعون به لدى القاسم الرقيب
ويرسل اليه القاسم أحد أمرائه ليقول له على لسان سيده : « كيف
تدرس في كتاب أحرقه الامام القاسم بن محمد ؟ » . فيسخر ابن الأمير من
جهل الرسول وجهل سيده ويقول له :

« أبلغ الخليفة أن هذا الكتاب لم يكن مؤلفه موجودا في دولة الامام
القاسم » .

فالمعروف أن الجلال كان معاصرا للمتوكل اسماعيل وأنه ولد في عام
١٠١٣ هـ وتوفي في عام ١٠٨٤ هـ .

ولعل هذه الحادثة تؤكد جهل القاسم وانصرافه عن طلب العلم ومعرفة
بسائطه والا لما وقع في هذا الخطأ الشنيع ولما حاول أن يختطف الأمانة بتلك
الطريقة التي عرفناها من قبل .

وقد كان اهتمام ابن الأمير بالحسن الجلال بالذات للدور العظيم الذي
أداه في خدمة السنة ومقاومة الطغيان .

ويكفيه فخرا ذلك الكتاب الذي أشهره في وجه المتوكل اسماعيل
والذي اعترض فيه على حربه القبائل من بلاد يافع والمشرق وسماه « براءة

الذمة فى نصيحة الأئمة » . لذلك فهو عندما وقف على قبره فى عام ١١٣٣ هـ
يبكى بكاء حاراً صادقاً :

جادت على قبر الجلال عيني بدمع ذى انهمال
ووقفت فيه مدلهما أبكى على فقد المعالى

ثم يعدد أفضاله ومؤلفاته وكيف واجه العنف والاضطهاد من مواطنيه :
وجفاه قوم ما دروا كيف السمين من الهزال
وكذاك فاضل كل عصر عرضة لذوى الضلال

ولم يكتف ابن الأمير بدراسة الكتب التى تخدم مذهبه ولكنه كان
لا يقع على كتاب ينحرف فيه صاحبه عن القصد حتى يلفت النظر الى
انحرافه ويدعو مدرسته الى الاحتراس منه ، قرأ كتاب الانسان الكامل
للجبلى فأرسل وراءه قصيدة يقول فيها :

هذا كتاب كله جهل وخلاف ما جاءت به الرسل
قد ضل أقوام برؤيته ففقدوا وليس لديهم ظل

ولم يكن مثل ابن الأمير ممن يسكت عنه من القاسم الرهيب فأراد
أن يوقع به فى فتنة بيت اسحق التى حدثت فى عام ١١٣٦ هـ ولكن ابن
الأمير استطاع فى براعة وحذق أن يفوت عليه تدبيره وينفض عنه تهمة التأمر
مع بيت اسحق ويقف أمامه عالماً مسالماً صاحب رأى عملاقاً لا يقوى القاسم
أن يواجه بدمه الشعب اليمنى الحر .

فيجرب معه أسلوباً آخر ويحاول أن يغريه بالمناصب :

— عرض عليه القضاء فى بندر المخا فرفض .

— عرض عليه الوزارة فامتنع .

— عرض عليه القضاء العام والتصدر على الأعلام فلم يقبل .

وواصل رسالة أصحاب المبادئ يعلم ويؤلف ويناقش ويناضل فى
صنعاء وفى البلاد التى لجأ اليها هرباً من ظلم الحكم فى صنعاء .

وتخرج مدرسة ابن الأمير علماء أجلاء يؤمنون بالرأى وينافحون عنه

ولا ينسى ابن الأمير عندما يجيز الواحد منهم أن يحمله رسالته وأن يطالبه بالمضى فيها فى ايمان واصرار :

— يجيز أحمد بن يحيى الشامى فيوصيه :

أنا أرويه على الوجه الصحيح	فاروعنى يا صفى الدين ما
خاتم الرسل وذى القول الرجيع	من علوم المصطفى خير الورى
وأرانا الحق بالنص الصريح	من أتاننا بالهدى من ربنا
عند ذى التحقيق أمثال القروح	دع متونا وشروحا جلهما
أمم تدعو الى غير الصحيح	واصطبر للحق فالأعدا له

— ويجيز عبدالله بن أحمد بن أسحق فيقول :

بما فيه تفيد وتستفيد	أجزتك يا ابن ودى ما تريد
اليها كل ذى علم يعود	أجزت الأمهات وهن ست
بها دارت وهن لها عمود	لأن بناء أحكام البرايا
وتدريسا وان رغم الحسود	ولازم سنة المختار درسا

وهو لا ينقطع عن ارسال القصائد التى تشيد بعلم السنة وتفضيلها وديوانه ملىء بهذه القصائد وفيه المزيد لمستزيد .

ولنأخذ لذلك مثلين من حرص صاحبنا على ذلك :

أولهما تلك القصيدة التى يزيل بها رسالته فى مناسك الحج والتى يقول فيها :

فى حجه ورجوعه ورجيله	هذى مناسك أحمد وصفاته
بفعاله وبهديه وبقيله	فألزم طريقته وكن متمسكا
يأتى بضد النص أو تأويله	وحذار ثم حذار من قول امرئ
فينا فيرضه أتباع رسوله	ما أرسل الرحمن غير محمد
الا عن المختار بعد حلوله	لا يسأل الملكان من حل الثرى
وعن اجتهد المرء فى تحصيله	لا عن مقال سواه من كل الورى

ثانيهما القصيدة التي أجاز بها الفقيه سعيد بن حسن العنسى والتي
يقول فيها :

من حاز في الناس شريف الخلال	وارو علوم المصطفى أحمد
ما قد حوت من نافع في المقال	الأميات الست يا حيدا
فازوا بما حازوا على كل حال	أمة قد ألفوها لقد
كالشمس لا مثل بزوغ الهلال	أمة في العلم تقواهم
جازاهم الله جزيل الثنوال	قد حفظوا للخلق علم الهدى
وهو يتتبع تلاميذه وأخبارهم	فلا يجد واحدا انحرف عن الطريق حتى
يسارع اليه يحذره ويشد أذنه .	

(الشيخ العلامة نصر بن الحسين المحبشي رحمه الله قرأ علينا في شهارة
صبح سنين في عدة فنون وأدرك مع تقوى وورع وحسن حال ثم دخل صنعاء
لله في رجب سنة ١١٦٩ هـ وتولى بها القضاء فكرهت له ذلك لما علمنا من
أحوال قضاة عصرنا . وكان حاله قبل ذلك حال المعرضين عن الولايات
والإتصال بالملوك فكتبت اليه وقد بلغ الستين) .

كم ما رويناك عن طه ويس	قيمت نفسك لكن لا يسكين
عليك ماذا ترجى بعد ستين	قيمت نفسك والستون قد وردت
كنا نعدك للتقوى وللدين	قيمت نفسك يا لهفى عليك لقد
ولو أراد أتاه كل مخزون	قد شد خير الورى فى بطنه حجرا
سل التواريخ عنه والدواوين	ما مات والله جوعا عالم أبدا
افساوهم مثل اخوان الشياطين	أيالك اياك كتابا تخالهم
فهمهم أكل أموال المساكين	والحذر حجابا وحجابا مع خدم
نصا فسحقا لأخوان الملاعين	وجانب الرشوة الملعون قابضها
ان كان قلبك حيا غير مفتون	لقد عشت سوف ترى منها عجائبها

ولا يكتفى ابن الأمير بكل هذا بل يتحایل على كبار المعاندين بالمعاملة
الحسنة والكلمة الطيبة والمجاملات البريئة حتى يقنعهم برأيه فاذا اقتنعوا به
وانتقوا مذهبه فرح بذلك وبشر الدنيا بهذا النصر .

يكسب الى جانبه محسن بن الحسن بن القاسم بن أحمد بن القاسم
ويكتب المحسن اليه معلنا ما انتهى اليه فيجيبه مسارعا :

مدحت به طريقة خيرهاد أتى يدعو الى دار السلام
محمد الرسول أجل داع ختام المرسلين الى الأنام
وسنته هي النور الذي لا سواء به النجاة من الظلام
فسبحان الذي أعطاك نورا علوت به على البدر التمام

(٣)

وفي غمرة هذا الجهاد العنيف وبعد احدى وثلاثين سنة من العمل
الشاق المتواصل والمجادة لذوى السلطان وذوى الأهواء على السواء :
تناهت الى ابن الأمير الأخبار بظهور عالم في نجد يقال له محمد بن الوهاب .
ووصل بعض تلامذة ابن عبد الوهاب ينقلون عنه أنه يدعو الى
الكتاب والسنة ويحارب المنكرات وتقديس الأولياء وزيارة القبور وتقديم
القرايين اليها .

وكان ابن الأمير حينذاك في عشر السبعين ولم يبق من العمر مثل
ما مضى وكانت آماله قد امتدت به أن الحركة التي تزعمها ستؤتي ثمارها في
حياته حتى يستمتع برؤية اليمن ترفرف عليه أعلام التسامح وتملا أرجاءه
اشعاعات العدالة وتنقشع عن سمائه عمياء العصبية ويعود شعبا موحدا
كما كان .

ولكن الأيام تمضى والأئمة سادرون في غيهم والشعب مغلوب على أمره
يجمع قوى فردية في انتفاضات عشوائية لا تلبث أن تنكس وتعود الأمور الى
أسوأ مما كانت ، وعلماء الشرع ينسلخون عن مدرسة ابن الأمير يتهافتون
على فتات موائد السلطان ، فلعل هذه الحركة التي ظهرت في نجد تمسك
الراية من ابن الأمير لتمضى بها الى غايتها .

يا لفرحة الشيخ المسكين بهذه الدعوة .

ويا للسعادة التى غمرت قلبه فدفعته الى أن يسارع بتلك القصيدة التى تشيع قوة الايمان من بين ثناياها . وتمنى فيها أن يسابق القصيد الى نجد ليقوم هو بأزجاء التحية الى ابن عبد الوهاب .

أليس الوهابى يدعو لسنة أحمد صلى الله عليه وسلم ؟ ألم تواجهه كل الطوائف بالانكار بلا تبصر كما أنكرت على ابن الأمير من قبل .

ألم تؤكد الأخبار أن داعى نجد يهدف الى أن يعيد للاسلام جدته .

ألم يذكر الراوون أنه يحارب البدع ويقاومها . ألم يقل تلاميذ الوهابى أنه يحارب مظاهر الوثنية التى تسلت الى عقائد الناس عن طريق الأولياء ونذورهم والقبور واستلام مقاصيرها وتقديسها الى مدى يصل بالناس الى عهد الجاهلية عهد سواع ويغوث وود .

وما الفرق بين ما يفعله الناس اليوم وما كان يفعله أصحاب هذه المسميات من عقر العقائر وذبح الذبائح تقربا اليها .

ألم يطوفوا بالقبور ويستلموا أركانها فعل الحجاج بالكعبة والحجر الأسود .

يا اله السموات انهم يقدسون هناك قبورا بليت وأولياء ودعوا الدنيا وانقطعت بموتهم أطماعهم فيها وحاجاتهم منها .

ولكن بعض الناس هنا فى اليمن يقدسون عصابة من الناس يتربعون على دست الحكم :

تروى سيوفهم من دماء الرعية بلا رحمة .

وتمتلىء خزائنهم من أقوات الأمة بلا شفقة .

وتغص سجونهم بأحرار المسلمين فى نهم .

ويقدم الشعب لهم فى كل يوم قرايين بشرية تتساقط على مذابح أطماعهم .

والسيوف لا تجف .

والخزائن لا تشبع .

والسجون تصيح في كل يوم هل من مزيد .

ومذابح الطامعين شرهة جشعة لا تشفق ولا ترحم . أليس من حق الدعوة التي آمن بها ابن الأمير أن يمد يده من ربوع الخضراء الى ربي نجد ليشد من أزر ابن عبد الوهاب .

وحقيق بابن عبد الوهاب أن يشد من أزر شيخ كبير أفنى شبابه وهو بسبيل افناء شيخوخته في مثل الدعوة التي نادى بها من نجد .

بل ان ابن الأمير يطلب من ابن عبد الوهاب في رجاء أن يشد أزره بالرد على قصيدته بقصيدة يعلم منها أصحابه في اليمن أنه ليس وحده الذي رأى منكرا فأنكره وأدرك حقا فدعا اليه ودعمه .

وما لنا لا نترك ابن الأمير يتحدث بما أراد الحديث عنه فلا شك أن حرارة القصد وعمق الايمان سينفذ الى قلبك ويملك عليك شعورك عندما تتلقى عنه :

وان كان تسليمي على البعد لا يجدى
رباها وحياتها بقهقهة الرعد
ألا يا صبا نجد متى هجت من نجد
لقد زادني مسراك وجدا على وجد
به يهندي من ضل عن منهج الرشدا
فيا حبذا الهادي ويا حبذا المهدي
بلا صدر في الحق منهم ولا ورد
ولا كل قول واجب الرد والطرده
فذلك قول جل قدرا عن الرد
تدور على قدر الأدلة في النقد
يعيد لنا الشرع الشريف بما يبدي
ومبتدع منه موافق ما عندي

سلام على نجد ومن حل في نجد
لقد صدرت من سفح صنعا سقا الحيا
سرت من أسيرينشد الريح ان سرت
يذكرني مسراك نجدا وأهله
قفى واسألى عن عالم حل سوحها
محمد الهادي لسنة أحمد
لقد أنكرت كل الطوائف قوله
وما كل قول بالقبول مقابل
سوى ما أتى عن ربنا ورسوله
وأما أقاويل الرجال فانها
وقد جاءت الأخبار عنه بأنه
وينشر جهرا ما طوى كل جاهل

ويعمر أركان الشريعة هادما
أعادوا بها معنى « سواع » ومثله
وقد هتفوا عند الشدائد باسمها
وكم عقروا في سوحها من عقيرة
وكم طائف حول القبور مقبل
مشاهد ضل الناس فيها عن الرشد
« يغوث » و « وود » بش ذلك من ود
كما يهتف المضطر بالصمد الفرد
أهلت لغير الله جهلا على عمد
ويلتمس الأركان منهم بالأيدى

« فصل في تحريق دلائل الخيرات »

وحرق عمدا للدلائل دفترا
غلو نهى عنه الرسول وفرية
أحاديث لا تعزى الى عالم ولا
وصيرها الجهال للذكر ضرة
لقد سرنى ما جاءنى من طريقه
أصاب ففيها ما يجمل عن العد
بلا مرية فاتركه ان كنت تستهدى
تساوى فلسا ان رجعت الى النقد
يرى درسها أذكى لديهم من الحمد
وكنى أرى هذه الطريقة لى وحدى

« فصل فى بدعة المذاهب »

وأقبح من كل ابتداع سمعته
مذاهب من رام الخلاف لبعضها
فيرميه أهل الرفض بالنصب فرية
وليس له ذنب سوى أنه غدا
ويتبع أقوال النبی محمد
لئن عده الجهال ذنبا فحبذا
علام جعلتم أيها الناس ديننا
هم علماء الدين شرقا ومغربا
ولكنهم كالناس ليس كلامهم
ولا زعموا حاشاهم ان قولهم
بلى صرحوا أنا نقابل قولهم
وأنكاه للقلب الموفق للرشد
يعض بأنياب الأسود والأسد
ويرميه أهل النصب بالرفض والجحد
يتابع قول الله فى الحل والعقد
وهل غيره بالله فى الشرع من يهدى
به حبذا يوم انفرادى فى لحدى
لأربعة لا شك فى فضلهم عندي
ونور عيون الفضل والحق والزهد
دليلا ولا تقليدهم فى غد يجدى
دليل فيستهدى به كل مستهدى
اذا خالف المنصوص بالقدح والرد

« فصل الثناء على من تمسك بالأحاديث من السلف »

سلام على أهل الحديث فأنى
هم بذلوا فى حفظ سنة أحمد
وأعنى بهم أسلاف أمة أحمد
أولئك أمثال البخارى ومسلم
بحور وحاشاهم عن الجزر انما
رووا وارتووا من بحر علم محمد
كفاهم كتاب الله والسنة التى
أأتتم أهدى أم صحابة أحمد
أولئك أهدى فى الطريقة منكم
وشتان ما بين المقلد فى الهدى

نشأت على حب الأحاديث من مهدى
وتتقيحها من جهدهم غاية الجهد
أولئك فى بيت القصيد هم قصدى
وأحمد أهل الجد فى العلم والجد
لهم مدد يأتى من الله بالمد
وليست لهم تلك المذاهب من ورد
كفته قبلهم صحب الرسول ذوى المجد
وأهل الكسا هيئات ما الشوك كالورد
فهم قدوتى حتى أوسد فى لحدى
ومن يقتدى والضد يعرف بالضد

« فصل فى بدعة التصوف وطريقة ابن عربى »

وأكفر أهل الأرض من قال انه
سماه كل الكائنات جميعها
وان عذاب النار عذب لأهله
وعباد عجل السامرى على هدى
وينشدنا عنه نصوص فصوصه
وكنيت أمراً من جند ابليس فارتضى
فلو مات قبلى كنت أدركت بعده
وكم من ضلال فى الفتوحات صدقت
يلوذون عند العجز بالذوق ليتهم

اله وأن الله جل عن النـد
من الكلب والخنزير والقرد والفهد
سواء عذاب النار أو جنة الخلد
ولا ئهم فى اللوم ليس على رشد
تنادى خذوا فى النظم مضمون ما عندى
بى الدهر حتى صار ابليس من جندى
دقائق كفر ليس يدركها بعدى
به فرقه صاروا ألد من اللد
يذوقون طعم الحق فالحق كالشهد

« فصل فى اغتراب الدين »

وهذا اغتراب الدين فاصبر فأنى
اذا ما رأونى عظمونى وان أغب
اليك طوت عرض النيافى وطولها
فأحسن قراها بالقراءة ناظما

غريب وأصحابى كثير بلا عد
فكم أكلوا لحمى وكم مزقوا جلدى
فكم جاوزت غورا ونجدا الى نجد
جوابا فقد أضحت لديك من الوفد

والقصيدة تحوى آراء ابن الأمير أكثر مما تحوى مدح ابن عبد الوهاب . وهى تناقش مشاكل العصر الدينية فى يسر وبساطة مما يغنيها عن التعليق .

ولكن يا لخيبة الآمال ما كادت القصيدة تطوف فى الآفاق وتملأ أسماع الدنيا — وأبرأ بالقارئ أن يستهين برأى ابن الأمير حينذاك فقد كان الشيخ عملاقا بين علماء المسلمين يعرفونه فى شتى الأقطار وسرى أنه قد بلغ من علو المكانة ورفعة الدرجة أن قصده علماء من تركيا ومن الهند فما بالك بعلماء اليمن وعلماء الحجاز (وذكر (١) لنا أنه عظم شأنه بوصول الأبيات التى وجهناها اليه وأنه يتعين علينا نقض ما قدمناه وحل ما أبرمناه .

وكانت أبياتنا قد طارت كل مطار وبلغت غالب الأقطار وأتتنا فيها جوابات من مكة المشرفة ومن البصرة وغيرها) .

وما كادت القصيدة تحمل اسم ابن الأمير حتى جاءت الأخبار تترى والوفود تتوالى والرسائل يعقب بعضها بعضا .
ينبرون له الطريق ويكشفون أمامه الحقائق ويبصرونه بحقيقة الأمر فى نجد وما يصنع بنجد على يدى داعية نجد .

وابن الأمير يسمع ويتشكك ثم يستطلع ويبحث ويتحقق حتى تكشف له الحقيقة سافرة واضحة .

ويا لخيبة آماله ويا لسوء الطالع ويا للنكسة التى أصابت الشيخ وقد تمنى على الله ألا تكون :

(لما بلغت هذه الأبيات نجدا وصل إلينا بعد أعوام من بلوغها الى أهل نجد رجل عالم يسمى « مرشد بن أحمد التميمي » وكان وصوله فى شهر صفر سنة ١١٧٠ هـ وأقام لدينا ثمانية أشهر وحصل بعض كتب ابن تيمية وابن القيم بخطه .

وفارقنا فى عشرين شوال سنة ١١٧٠ هـ راجعا الى وطنه ، ووصل من

(١) من ديوان ابن الأمير يتحدث عما نقله اليه الشيخ مرشد بن أحمد التميمي أحد تلامذة ابن عبد الوهاب
(٢) مقدمة ابن الأمير لقصيدته التى رجع فيها عن مدح ابن عبد الوهاب .

طريق الحجاز مع الحجاج ، وكان من تلامذة الشيخ محمد بن عبد الوهاب
— والذي وجهنا إليه الأبيات — فأخبرنا ببلوغها ولم يأت بجواب عنها :

وكان قد تقدمه في الوصول إلينا بعد بلوغها الشيخ عبد الرحمن
النجدي ووصف من حال محمد بن عبد الوهاب أشياء أنكرناها :
من سفكه الدماء ، ونهبه الأموال ، وتجاريه على قتل النفوس — ولو
بالاغتيال ، وتكفيره الأمة المحمدية في جميع الأقطار .

فبقينا نتردد فيما نقله الشيخ عبد الرحمن حتى وصل الشيخ مرشد وله
نباهة ، وأوصل بعض رسائل ابن عبد الوهاب التي جمعها في وجه تكفيره
أهل الايمان وقتلهم ونهبهم ، وحقق لنا أحواله وأقواله وأفعاله .

فأرأينا أحواله أحوال رجل عرف من الشريعة شطرا ولم يمعن النظر ولا
قرأ على من يهديه نهج الهداية ، ويدله على العلوم النافعة ويفقه فيها .

بل طالع بعضا من مؤلفات أبي العباس « ابن عمه » (١) ومؤلفات
تلميذه ابن القيم الجوزية وقلدها من غير اتفاق مع أنهما يحرمان التقليد .

ولما حقق لنا أحواله ورأينا في الرسائل أقواله وذكر لنا أنه عظم شأنه
بوصول الأبيات التي وجهناها إليه . وأنه يتعين علينا تقض ما قدمناه وحل
ما أبرمناه ، وكانت أبياتنا قد طارت كل مطار وبلغت الأقطار وأتتنا فيها
جوابات من مكة المشرفة ومن البصرة وغيرهما الا أنها جوابات خالية عن
الانصاف .

ولما أخذ علينا الشيخ مرشد ذلك تعين علينا لئلا نكون سببا في شيء من
هذه الأمور التي ارتكبتها ابن عبد الوهاب المذكور . كتبت أبياتا وشرحها .
وأكثر من النقل عن ابن القيم وشيخه ابن تيمية لأنهما عمدة الحنابلة) .

ونحب قبل أن نورد إليك مختارات من القصيدة التي تقض بها ابن الأمير
مدحه لابن عبد الوهاب أن نشير الى بعض أمور تجدر الإشارة إليها :

(١) الصواب « ابن تيمية » وهي كذلك في النسخة الخطية التي كتبها
ابن الشاعر . ولكن الذي أشرف على طبع الديوان اشتبه عليه التقارب في
الرسم بين اللفظين وبنى عليه رأيه في نفي نسب القصيدة التالية لابن الأمير

أولاً : أن ابن الأمير لم يهاجم الوهابى الا بعد سبع سنوات من الدراسة والتحقيق والتمحيص . استمع فيها الى تلامذة ابن عبد الوهاب ومن نقلوا عنه وناقش فيها بعض الشيوخ الأجلاء الذين يثق فيهم وفى صدق قولهم وأمانة النقل عنهم . وقرأ فيها عددا من رسائل ابن عبد الوهاب التى تحدد مذهبه « فبقينا نتردد فيما نقله الشيخ عبد الرحمن حتى وصل الشيخ مرشد وله نباهة .

وأوصل بعض رسائل ابن عبد الوهاب التى جمعها فى وجه تكفير أهل الايمان وقتلهم ونهبهم وحقق لنا أحواله وأقواله وأفعاله) .

ثانيا : أن الذى أزعج ابن الأمير ودفعه الى كتابة القصيدة التى سنعقب بها هذا الحديث . هى الجرائم التى تناهت اليه أخبارها . والرسائل التى ترد اليه من الأقطار تشركه تبعة تصرفات الوهابى وتلقى عليه اللوم فى تأييده وتحمله شطرا كبيرا من مسئولية ما يرتكب فى نجد .

فلم يكن أمام ابن الأمير الا أن يعلن رأيه صريحا واضحا فى هذه القضية الخطيرة .

ثالثا : جاء فى التعليق الذى أورده السيد على صبح المدنى الذى أشرف على طبع ديوان ابن الأمير فى القاهرة :

أنه يرجح أن القصيدة مدسوسة على ابن الأمير وأنها من نظم أحد أبنائه وأدخلها على أبيه وأكد هذه الحقيقة السيد محمد بن مانع فى صدر الديوان .

واستند السيد المدنى فى ذلك لسببين :

أ — أنه ورد على لسان ابن الأمير فى كلامه الذى نقلناه اليك آتفا — والذى قدم به ابن الأمير للقصيدة موضوع الحديث — تلك العبارة (بل طالع بعضا من مؤلفات أبى العباس « ابن عمه » ومؤلفات تلميذه ابن القيم) . واستتكر أن يقع ابن الأمير فى هذا الخطأ الذى يثبت القرابة بين ابن عبد الوهاب وبين ابن تيمية . والحق ألا صلة بين الرجلين .

ب — أن آراء ابن الأمير تلتقى مع آراء ابن عبد الوهاب وساق لذلك دليلاً يرجع إليه من مؤلفات ابن الأمير هو « تطهير الاعتقاد من درن الألفاظ ». والذي نحب أن نؤكد له لصاحب التعليق أن القصيدة لابن الأمير وقد كتبها ابنه بخطه في ديوانه وكتب تعقيب والده عليها وأن كثيراً من المؤلفين المعاصرين لابن الأمير والتابعين له قد تناولوا في سيرة ابن الأمير القصيدتين معاً: سلام على نجد ومن حل في نجد .

ورجعت عن القول الذي قلت في النجدي .

وليس الخطأ الذي وقع فيه السيد مدعاة لنفي نسب القصيدة فإن كلمة « ابن عمه » قرئت أو كتبت خطأ والصواب أن تستبدل بكلمة « ابن تيمية » وتقارب الكلمتين في الرسم هو الذي دعا إلى هذا الالتباس أما من ناحية التقاء آراء الشيخين — الأمير والوهابي — وتعارض القصيدة مع مذهب ابن الأمير . فلم يقل به ابن الأمير نفسه فسابقته لم تتعارض مع لاحقته ولم ينقض رأياً من آرائه في كلتا القصيدتين : وإنما القضية هي :

هل كان ابن عبد الوهاب داعية للكتاب والسنة وعلى منهجها في رأي

ابن الأمير ؟

لقد تأكد من هذا في أول الأمر فأيده وكتب إليه قصيدته الأولى . ثم تأكد إليه أنه على خلاف ما اعتقد فرجع عن التأييد . واستمع إليه يعبر عن هذا الرأي بوضوح : رجعت عن القول الذي قلت في النجدي .

لماذا ؟

فقد صح لي عنه خلاف الذي عندي .

ولا تحسبوا أنني رجعت عن الذي — تضمنه نظمي القديم إلى نجد — بلى كل ما فيه هو الحق إنما — تجاريك في سفك الدماء ليس من قصدي ابن لي ابن لي لم سفكت دماءهم — ولم ذا نهبت المال قصداً على عمد

رابعاً : فى رأينا أن ابن الأمير عندما كتب القصيدة التالية انما كان يواصل رسالته بالنسبة لليمن أولاً وللعالم الاسلامى ثانياً . وأن القضية كانت مرتبطة بقضية الامامة فى اليمن وأن العيوب التى يهاجمها فى نجد هى ذات العيوب التى ظل يهاجمها فى اليمن منذ عشرات السنين .

ولعله أراد أن يستدرج الطغاة من حكام اليمن الى قضية خارجية كالمرآة يرون فيها أنفسهم وما يصنعون بشعوبهم والأمل يراوده أن يستمعوا وأذ ينتصحو .

هذا بالاضافة الى الهدف الأول وهو التبرأ من أن يكون نصيراً لابن عبد الوهاب .

لقد كان ابن الامير — واليمن معه — يعيش فى نفس المحنة التى كان يساق اليها أهل نجد والتى ينذر مبتداها بما انتهى اليه الحال فى اليمن .

لقد وجد عالماً يعتقد أنه هو وحده المسلم الصحيح الايمان وما عدا من المسلمين كفار . لقد وجد عالماً يهدف الى الوصول الى الحكم بمذهبه . وسيطر المذهب . ويحكم . وتنشأ أسر تحتكر المذهب وتحتكر الحكم ويوجه المذهب لتدعيم الحكم . ويستغل الحكم لتقديس المذهب .

ويتساقط علماء فى خدمة المذهب والحكم معا . ويفلسفون القداسة للحكم والارهاب للمذهب .

ويساق العامة فى دوامة الارهاب والقداسة والتضليل ونصل الى ما وصلنا اليه فى اليمن من تكفير أهل الأرض ما عدا أصحاب المذهب .

وتستباح الحرمات . وتنتهب الأموال .

وتهدر الحقوق . ويصبح الاغتيال أسلوباً من أساليب الحكم . والسجن مجبياً للارهاب لا للعصاة .

وتتكون حاشية السوء تشي وتسول للملوك أسباب القسوة والفساد

ويباعدون بينهم وبين الشعب صاحب الحق ومالك خيرات البلاد . حتى لا يجد الحق نصيرا ولا يصل الخير الى أربابه الحقيقيين .

هذه هي الحقائق التي تكشف لابن الامير ولذلك سارع بهذه القصيدة ، حتى لا يظن الناس بعد جهاد عمر طويل أنه :

يكفر أهل الأرض فيها على عمد

أو أنه لفق في تكفيرهم كل حجة :

أو أنه نصير لمن : تجارى على اجرا دما كل مسلم - مصل مزك .

وماذا كان يتوقع المرء من رجل أفنى حياته في سبيل مبدئه وفارق أهله وفارق وطنه وطوفت به البلاد غريبا وحيدا . وتعرض للقتل والاغتتيال وشظف العيش وامتنحن في ضميره بمغريات المناصب فلفظها محقرا . أيهاجم نهب الأموال في اليمن ويببجه في نجد غير معقول هذا .

..... فانه حرام فلا تغتر بالعز والجسد

ولا بأناس حسنوا لك ما ترى فما همهم الا الأثاث مع النقد

وكل المشاكل التي تناولها الشيخ في قصيدته هي مشاكل اليوم والأمس في اليمن وهي مشاكل الغد المرتقب

ومن رأينا أن الرجل كان ينظر الى اليمن أولا في كل ما قال قبل أن ينظر الى صاحب نجد . وانا نحتكم الى ضمير القارئ فيما ينهب اليه بيت واحد في آخر القصيدة :

قصدت بهذا النظم نصيح أحبتي - وأختمه بالشكر لله والحمد .

ألا ترى معنا أن ابن الامير يعالج مشكلة أبناء عمه الذين كثر عددهم واشتدت وطأتهم على الشعب المسكين .

واليك ما قاله ابن الامير :

رجعت عن القول الذي قلت في النجدي	فقد صح لى عنه خلاف الذى عندى
ظننت به خيرا وقلت عسى عسى	نجد ناصحا يهدى الأنام ويستهدى
فقد خاب فيها الظن لا خاب نصحنا	وما كل ظن للحقائق لى مهدى

وقد جاءنا من أرضه الشيخ مرشد
ومن جاءني من تأليفه برسائل
ولفق في تكفيرهم كل حجة
تجاري على أجرة كل مسلم
وقد جاءنا عن ربنا في براءة
واخواننا سماهم الله فاستمع
وقد قال خير المرسلين نهيت عن
وقال لهم لا ما أقاموا الصلاة في
أبن لي أبن لي لم سفكت دماءهم
وقد عصموا هذا وهذا بقول : لا
وقال ثلاث لا يحل بغيرها
كدعواك في أن الصحابة أجمعوا
لمن لزكاة المال قد كان مانعا
فقد كان أصناف العصاة ثلاثة
وقد جاهد الصديق أصنافهم ولم
وهذا لعمرى غير ما أنت فيه من
فانهم قد بايعوك على الهدى
وقد هجروا ما كان من بدع ومن
فما لك في سفك الدماء قط حجة
وعامل عباد الله باللطف وادعهم
ورد عليهم ما سلبت فانه
ولا بأناش حسنوا لك ما ترى
يريدون تهب المسلمين وأخذ ما
فراقب اله العرش من قبل أن ترى
نعم واعلموا اني أرى كل بدعة

فحقق من أحواله كل ما يبدى
يكفر أهل الأرض فيها على عمد
تراها كبيت العنكبوت لدى النقد
مصل منك لا يحول عن العهد
براءتهم عن كل كفر وعن جحد
لقول الاله الواحد الصمد الفرد
فما باله لم ينته الرجل النجدي
أناس أتوا كل القبائح عن قصد
ولم ذا نهبت المال قصدا على عمد
اله سوى الله المهيمن ذى المسجد
دم المسلم المعصوم في الحل والعقد
على قتلهم والسبى والنهب والطرده
وذلك من جهل بصاحبه يردى
كما قد رواء المسندون ذوو النقد
يكفر منهم غير من ضل عن رشد
تجاريك في قتل لمن كان في نجد
ولم يجعلوا لله في الدين من ند
عبادة من حل المقابر في اللحد
خف الله واحذر ما تسر وما تبدى
الى فعل ما يهدى الى جنة الخلد
حرام ولا تغتر بالعز والجحد
فما همهم الا الأثاث مع النقد
بأيديهم من غير خوف ولا حد
صريعا فلا شيء يفيد ولا يجدى
ضلالا على ما قلت في ذلك القصد

ولا تحسبوا أنى رجعت عن الذى
بلى كل ما فيه هو الحق انما
وتكفير أهل الأرض لست أقوله
وها أنا أبرأ من فعالك فى الورى
ودونكها منى نصيحة مشفق
وتغلق أبواب الغلو جميعه
وهذا نظامى جاء والله حجة
تضمنه نظمى القديم الى نجد
تجاريك فى سفك الدما ليس من قصدى
كما قلته لا عن دليل به تهدى
فلا أنت فى هذا مصيب ولا مهدي
عليك عسى تهدي بهذا وتستهدى
وتأتى الأمور الصالحات على قصد
عليك فقابل بالقبول الذى أهدي

نعم ثم ان الكفر قسمان فاعلموا
وكل من القسمين أحكامه أبدى
الأول :

فكفر اعتقاد حكمه السفك للدما
الى أن يقرروا بالشهادة للذى
وأن يشهدوا أن الرسول محمدا
وأن يشهدوا أن المعاد حقيقة
خلا من له منهم كتاب فانه الـ
وسبى الذرارى واتهاب ذوى الجحد
له الخلق والأمر الاله الذى يهدى
نبي أتى بالحق والنور والرشد
يعيدهم رب العباد الذى يبدى
معاهد والابقاء حتم لذى العهد
الثانى :

وكفر كمن يأتى الكبائر لا سوى
كتارك فرض للصلاة تعمدا
وليس ككفر بالمعيد وبالمبىدى
وتارك حكم الله فى الحل والعقد
ثم يعدد من ألوان هذا القسم ويستطرد قلألا :

وهذا الذى فصلته الحق فاتبع
فان قلت قد كفرت من قال انه
مسماه كل الكائنات جميعها
مع أنه صلى وصام وجانب التوسس
طريق الهدى ان كنت للحق تستجدى
اله وأن الله جل عن النـ
من الكلب والخنزير والقرود والنهد
فى الدنيا ومال الى الزهد

فقلت استمع منى الجواب ولا تكن
فان الذى عنه سألت مجاهر
ونفى نبوءات النبين كلهم
غيبا جهولا للحقائق كاللد
بنفى الاله الواحد الصمد الفرد
فما أحمد الهادى لى ذاك بالمهدى

وتصوب أهل الشرك فى شركهم فما
ألا ليت شعرى أى دار أزورها
إذا ما ذكرت الذنب خفت جهنما
أليس رحيمًا بالعباد وغافرا
فقلت نعم لكن أتانا مقيدا
فهل أنا ممن شاء غفران ذنبه
هنا قطع الخوف القلوب وأسبل الـ
أبو لهب الا كحزمة فى الجسد
فقد طال فكرى فى الوعيد وفى الوعد
فقال: الرجا بل غير هذا ترى عندى
لما ليس شركا قاله الرب ذو المجد
بما شاءه فافهم وعض هنا الأيدى
فيا حبذا أم لست من ذلك الورد
دموع من الأبرار فى ساحة الخلد

قصدت بهذا النظم نصح أجتى وأختمه بالشكر لله والحمد

(٤)

فى هذا الوقت الذى اشتبك فيه ابن الامير مع الحركة الوهابية مؤيدا
ثم معارضا كان قد عاد من منفاه الذى لجأ اليه من عام ١١٣٩ هـ — الى عام
١١٤٨ هـ هربا من الفتنة الثانية التى حدثت بين بيت اسحق وبين المنصور
حسين بن المتوكل . وبعد أن عاد بثلاثة أعوام ١١٥١ هـ استطاع أن يخطب
الجمعة فى جامع صنعاء وأن يتصدر للتدريس والوعظ والتذكير .

وما أن يصل ابن الامير الى هذه المكانة حتى هب ريح الخطر على
العصابة التى عبر عنها فى تلك الأبيات الرائعة التى صدرنا بها هذا الكتاب .

فيقدم جماعة منهم ويحررون رسالتين الى المنصور حسين للأيقاع بابن
الامير واتهامه بتهم تسوقه الى نطح السيف ، ولكن ابن الامير يسارع الى
المنصور فيناقش الرسالتين فى أناة وسعة عقل حتى يسفه ما جاء فيهما تسفيها
لا يملك المنصور أمام قوة حجته الا الاقتناع .

ويعود ابن الامير الى مسجده ومدرسته . واستطاع أن يحدث ثورة أخرى في أسلوب الخطبة وموضوعاتها :

بدأ بالأسلوب فارتجل الخطبة في عام ١١٥٤ هـ دون الرجوع الى قرطاس وكانت ضجة أعقبها امتحان لقدرة الأمير على الارتجال ومفاجآت له لسبر غوره خرج منها ابن الامير منتصرا عملاقا .
وخرجت الخطبة على يديه من الشكلية والحدودية فامتدت الى الأحداث الجارية يفندھا ويبين رأى الشرع فيها ويبالغ في النصيح والتذكير .
وكان له في كل يوم مجلسا علم أحدهما بعد صلاة العصر والآخر بين المغرب والعشاء . ولم تكن دروسه أقل من خطبة ثورية وتناولا للأحداث وزجرا عن المعاصي وترغيبا في الحسنات .

وامتدت مدرسة ابن الأمير تغزو « الهجر » تلك المدارس التي كانت عدة بيت القاسم في تسكين العامة وتخديرهم ونشطت هذه المدارس في صنعاء وحوث وذمار وكوكبان وشهارة وظفير حجة . وأصبح فيها علماء يحملون الراية ولهم أتباع استنارت عقولهم واستنارت بصيرتهم .
وكان الامام لايقوى على أن يمس شعرة لابن الامير بأذى وكان ذلك كفيل بأن يشعل ثورة في البلاد وأن يشهر به خارج البلاد .
ولكن هل يسكت بيت القاسم أمام هذا الخطر الداهم وفي السكوت قطع اكل أمل لهم فيما هم فيه من استغلال البلاد واذلال العباد .
لم يسكت بيت القاسم وتزعّم حركة الثورة فيه أحفاد الحسين بن المهدي أحمد بن الحسن بن القاسم بن محمد :

وأنشأت الفرصة الأولى للمتآمرين في عام ١١٦٦ هـ عندما خطب الأمير خطبة الجمعة في جامع صنعاء وكان المسجد قد ضاق بالمصلين فاحتل كثير من الناس سطح الجامع وخشى الخطيب على الناس ما يلاقون من مشقة ووجدها فرصة ليتخلص من بدعة ابتدعها بيت القاسم : ألا وهي ذكر القاسم ابن محمد في كل خطبة .

ولم يكن ابن الامير يهتم بذكر القاسم أو عدم ذكره . فقد ذكره في خطبه السابقة ولكنه أراد أن يحو من أذهان العامة هذا الاعتقاد السائد أن الخطبة

لا تصح الا بذكر القاسم . ثم تناول فى خطبته بدعا أخرى وهى الجمع بين
وهنا يتحرك محمد بن على بن الحسين (١) وهو من رؤساء الدولة وآل
رسول الله صلى الله عليه وسلم نصه :

« من جمع بين الصلاتين لغير عذر فقد أتى بابا من أبواب الكبائر »
وهنا يتحرك محمد بن على بن الحسين . وهو من رؤساء الدولة وآل
الامام الا أنه خال من العلم .

وشايعة على بن عبد الله بن القاسم بن المؤيد محمد بن القاسم وكان
يدعى العلم وتابعهم جماعة .

والحق يقال أن بعض العقلاء من بيت القاسم حاولوا أن يثنوا الجماعة
عن هدفهم كما فعل محمد بن اسحق ولكنهم لم يفلحوا . وكان العباس بن
الحسين بن القاسم هو المتربع على العرش حينئذ . وأحس العباس بالخطر
يتنازعه من جانبين :

— تجمع بيت القاسم الذى يهدده شخصيا .

— ودعوة ابن الامير التى تهدد بيت القاسم .

وأراد العباس أن يوازن بين خطورة أى من الفريقين عليه وعلى ملكه
فناقش محمد بن على عندما ذهب اليه على رأس المتآمرين وكان مما قاله له :
(ان الأمر هين وأنه سيأمر الخطيب ألا يعود الى الترك) . ولكن الرجل
لم يقتنع . فلا شك أنه كان يستهدف من وراء هذه الحركة التسلم عليها الى
ما هو أكبر وتأكد العباس من هذا عندما هددته بأنه سيقول ابن الامير ان
لم يحسبه .

حينئذ عرف العباس طريقه . فدعا ابن الامير اليه ليناقش خصومه .
وكانت التهمة الأولى ترك ذكر القاسم فى خطبة الجمعة . وأجابهم الامير بأن
ذلك لا يخل بخطبة ولا صلاة ثم واجهوه بالتهمة الثانية فى خبث :

لم ينكروا عليه انكاره للجمع بين الصلاتين لغير عذر وانما ادعوا أن

(١) نشر العرف لزبارة

ما يأخذونه عليه استشهاده بحديث ضعيف وهو (من جمع بين الصلاتين لغير عذر فقد أتى بابا من أبواب الكبائر) فلم ينكر ابن الامير أن الحديث ضعيف وأخذ يتتبع لهم أسانيده فقد رواه حنش الصنعاني كما رواه الترمذى وذكر تضعيفه .

ولكن (العمل (١) عليه عند أهل العلم وعليه كان عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه بقى ثلاثا وعشرين سنة لا يصلى الصلاة الا توقيتا ثم هو دليل أهل المذهب القائلين بجواز الجمع لعذر . والخطبة انما شرعت لحث الناس على أفضل الأعمال) .

واستمع المجلس الى كراسات الأقسام بما فيها من جهل وتضليل واستطاع العباس أن يحول الموقف كله لصالحه :
أمر أن يحبس ابن الامير فى دار النقيب الماس أحد مباليكه وقواده
ففرق الجموع المتعطشة الى دم الشيخ الفانى .

ثم أوهم أتباع ابن الأمير أن الحكم ليس حيسا وانما هو توقيف فى دار الأدب . وأوعز الى النقيب الماس أن يحتفل بابن الامير ويكرمه حتى لا يثير ثائرة انسان .

وفى غمرة تفرق الجموع بعد الانتصار الذى أحرزه أبناء القاسم امتدت يد العباس فألقت القبض على زعماء الحركة .

أما على بن عبد الله فبقى فى حبسه خمسة عشر عاما .

وأما محمد بن على بن الحسين فقد زج به فى السجن ولم يشم ريح الحرية بعدها حتى مات فى عام ١١٧٣ هـ واستنصفى أمواله وخيله واستحوذ على الاقطاعات التى كانت تحت يده فى ضوران وآنس وما اليها وبلاد حبيش وكان العباس كان يتلطف لهذه الحركة حتى يتخلص من أخطر منافسيه ويفرق شملهم قبل أن يستشرى شرهم كما حدث من بيت أسحق فى عهد أبيه .

ولنترك لابن الامير فرصة الحديث عن هذه الحادثة اذ يقول :
(من الحوادث فى سنة ١١٦٦ هـ أنه اتفق أن أول جمعة من جماد

(١) ديوان ابن الامير

الأول سنة ١١٦٦ هـ خطبنا على القاعدة فى جامع صنعاء ولنا قاعدة أنه اذا اتفق تطويل فى الخطبة الأولى الوعظية أن نختصر الخطبة الثانية وندعو للخمسة أهل الكسا تفصيلا ثم ندعو للآل جملة • ومرت لنا أعوام على هذا الأسلوب ومنها تلك الجمعة) .

(فألقى الشيطان فى قلوب جماعة من الرعاع وجهال بيت الامام القاسم أن الخطيب ترك ذكر جدكم الامام القاسم والدعاء له . فاجتمعوا وقصدوا جماعة من أعيان بيت الامام وكبرائهم مثل المولى العلامة محمد بن أسحق رحمه الله . ودخلوا عليه وهم جماعة كثيرة . وعرفوه بهذا الواقع من الخطيب .

فأجاب عليهم بجواب العلماء وأن هذا الذى تركه ليس بواجب ولا يخل بخطبة ولا صلاة . وهجن عليه ما اجتمعوا له ووبخهم . وما زالوا يملكون على الأعيان حتى انتهوا الى محمد بن على بن الحسين ابن المهدي وهو من كبار بيت الامام سنا الا أنه عار عن حلل العلم والتقوى . فوافق فى نفسه على خليفة العصر هوى (١) . فقام بهذا الأمر وتولى كبره ودخل على الخليفة . فعرفه الخليفة أن الامر سهل وأنه يعرف الخطيب ألا يعود الى ذلك .

فما أقنعه جواب الخليفة ولا أرضاه . وأصر على اتباع هواه وأنه اذا لم يجس الخطيب فانه سيقته . وهاجت العامة وكثر « الهدار » . فألهم الله تعالى الخليفة أن طلب محمد بن على والجماعة الذين من رعاى بيت الامام الى القصر . فاجتمع الخطيب ومحمد بن على فى موقف الخليفة وذكر الخليفة للخطيب ما أنكره العامة .

فأجاب بأن هذه قاعدة له عند اطالة الخطبة الأولى ولم يخل ذلك بخطبة ولا صلاة . وبمثله أجيب على محمد بن على ثم ذكر الخليفة حديث الجمع بين الصلاتين وأنه قال العلماء أنه ضعيف وأنه ذكره الخطيب وأراد به حديث « من جمع بين الصلاتين لغير عذر فقد أتى بابا من أبواب الكبائر » .

(١) وهذا يشير الى ان ماصنعه العباس بعد ذلك لم يكن غضبا لابن الامير وانما كان تصفيه لهذه الجماعة التى خشى العباس أن تهدد ملكه .

فأجاب الخطيب بأنه كما قال العلماء حديث ضعيف من رواية حنشل الصنعاني . ولكنه رواه الترمذي وذكر تضعيفه ثم قال « والعمل عليه عند أهل العلم وعليه كان عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه بقى ثلاثا وعشرين سنة لا يصلى الصلوات الا توقيتا . ثم هو دليل أهل المذهب القائلين بجواز الجمع لعذر . ثم ان الخطبة انما شرعت لحث الناس على أفضل الأعمال » .

فقال الخليفة للخطيب : « فقد رأيت أن تبقى فى دار الادب » فقام الخطيب الى بيت بعض أمراء الخليفة .

ثم نهض الخليفة من مقامه وأمر بحبس محمد بن على وقبض خيله أربعة عشر عنانا وقبض البلاد التى كانت اقطاعا له وهى صوران وحبيش وبقي فى السجن من تاريخه الى وفاته فى يوم عرفه ١١٧٠ هـ نسأل الله رضاه وحسن الخاتمة .

وأمر بحبس بقية الجماعة الرعاع من آل الامام وهم نحو ثلاثين نفسا (١) .

(وكان السبب الحقيقى للجماعة الذين تجمعوا وتحزبوا اشتغال الخطيب بعلم السنة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام والتدريس فيها والتأليف والدعاء اليها ونشرها فوق المنابر وميل أكثر الناس اليها) .

(وفى أيام البقاء فى السجن كتب الله أن النقيب الماس وجماعة ممن اتصلوا بنا مالوا الى تعلم السنة واشتغلوا بعد ذلك بها ولما خرجنا وصلوا وقرأوا علينا مؤلفنا « سبيل السلام » وصلحوا صلاحا حسنا وحافظوا على الجعاعات فى أوقاتها . وانتشرت السنة انتشارا حسنا بحمد الله سبحانه) .

(وكنت قلت أبياتا الى اخواننا من أهل مكة المشرفة أصف لهم الواقع واستمد دعاءهم وأذكر لهم ما نقم منا أهل جهتنا وهو دعواهم أنا خالفنا أهل البيت فى مذهبهم وأنهم يرموننا بمخالفتهم منذ أربعين سنة .

(١) ويؤكد أمر الحبس لرعاع بيت الفاسم أن المؤامرة كانت على الملك أصلا وانما اتخذت الحادثة الدينية سبيلا لمهاجمة العباس وتسترا وراءها كما يحدث دائما من هذه الأسرة من اتخاذ الدين ستارا للوثوب على الحكم .

بسبب اشتغالنا بنشر السنة واعلاؤها وأوضحت فى الآيات أن مذهبهم هو الذى اتبعناه .

وأرسلنا بعد أن من الله - وله الحمد - بالخروج من القصر ولنا فى نشر السنة النبوية من سنة ١١٣٢ لله الحمد وقد نشرها تلاميذنا فى الجهات والحمد لله كثيرا بكرة وأصيلا ، والآيات هى) ..

والقصيدة طويلة تناول فيها ابن الأمير مؤلفاته وأشاد بتلاميذه وأساتذته وجهوده فى نشر السنة فجزىء لك منها :

لقد صدرت الى أعلا مقام لا علام لأعلام كرام

وإني بالقضـا راض وإني ألام على محبته وهدى وقد عجت محبته بلحمى فلست بتارك أبدا حماه وأنكر منهجى قوم حيارى أحاط بهم سراق كل جهل ومن لبس الجهالة وارتداها يقول الجاهلون هجرت علما أما علم الجهول القدم أنى حرام أن تقلدهم وتضحى	أعد الجبس فى المنن الجسام بسنته وأن بها غرامى وقد خلطت بسنته عظامى ولو أنى لقيت به حمامى رمونى بالسهم مع الملام فما يمشون الا فى التعامى رأى منها المناسم كالسنام لأعلام من الآل الفحام من الآل الجحاجة الكرام مقودا كالبهيمة بالزمام
---	--

أروم حياة سنته بجهدى وقد عوديت فيه فما أبالى نشرت على المنابر ما طووه	فراموا أن يلقونى حمامى بما لا قيت من كرب عظام بلا خوف هناك ولا احتشام
---	---

ثم لنستمع الى بعض ما قاله ابن الأمير فى السجن عن السجن :

إذا كان حبى أحمدا وحديثه فلى أسوة بالمصطفى ووصيه ولست أبالى أن جفنتى عشيرتى	يعدونه ذنباً فلا زلت ذا ذنبى فقد حبسا من قبل فى ذلك الشعب وربى راض فهو من دونهم حسبى
---	--

وكان أشق شيء عليه فى سجنه هذا الازعاج المتواصل الذى يسببه العمال اليهود وهم يعملون فى سك النقود « دار الضرب » .

وجاورت « دارالضرب » كرها وبئس ذا
مطارقهم هن الطوارق للفتى
فأنشدت بيتا قد تقادم عهده
ومن أعجب الأشياء أنى مسلم
جوار يهود مالهم فى الهدى سبت
فما لمنام العين فى قريبهم بخت
ولا عوج فيه لمثلى ولا أمت
حنيف ولكن فى خير أيامى السبت

كما أتاحت الفرصة الثانية فى أوائل عام ١١٨٢ هـ عندما فر عبد الله ابن يوسف بن القاسم بن الحسين وهو حفيد آخر للحسين بن المهدي الى جبل برط يتزعم حركة للوثوب على الحكم ولكنه يتحايل على هذه الحركة فيحاول أن يستشير القبائل للدفاع عن المذهب ويعلم الله أن هذه الحجة كانت ستارا يخنفون وراءه جميعا .

كان هو يطمع فى الوثوب على الحكم أو توسيع اقطاعياته وكانت القبائل قد شاققتها الخلافات بين الطامعين وشاقها أكثر من ذلك الهجوم على القرى والمدن وعلى صنعاء بالذات تسلب الآمنين أموالهم وتعتدى على حرماهم .

ودفع عبد الله بن يوسف العلماء ليكتبوا الى زملائهم فى مختلف البلاد يستنهضونهم للقضاء على حركة ابن الأمير .

ومما زاد فى تحزب بيت القاسم وحقدهم على ابن الأمير أن عالما من تهامة يدعى حسين النعمى وفد الى صنعاء وعينه العباس اماما لمسجد القبة الذى انتهى من بنائه حديثا . فاذا بهذا الوافد يقرأ كتب السنة ويعلمها للناس وكثر الآخذون عنه من الخاصة والعامة . وأصبح الجامع الكبير ومسجد القبة يأخذان بتلايب المتزمتين فى صنعاء .

وكانت المظاهرات التى يحرص عليها دعاة المذهب — تلك التى يتمسكون بها ويستقرئون منها ولاء العامة لهم وارتباطهم بهم — قد بدأت أفكار العامة تتسع لها ولغيرها فكنت ترى المصلين يتجاورون فى تسامح أخوى :

بعضهم يرفع يديه عند تكبيرة الاحرام وآخرون يتركون ذلك .
هؤلاء يضمون الأيدي عند القراءة وأولئك يرسلون وكان هذا في
نظر المتاجرين بالحكم كبائر ترتكب ومنكرات تستحدث لأنها تفسد البقرة
الخلوب على حاليتها .

كتب علماء برط الى علماء المدن أن حسين النعمى (والسيد : البدر
محمد بن اسماعيل الأمير خالفا المذهب فوصلت رسالة منهم الى المهدي والى
بعض الحكام وعرضت على علماء صنعاء وعلماء مدينة ذمار ومدينة حوث
فأجاب العلماء فى المدن المذكورة بجوابات مقنعة وأعظمها جواب السيد
العلامة امام العلوم زيد بن يحيى بن أمير الدين عالم حوث والمرجع
فيها . ثم وبخهم أن يصلحوا أنفسهم عن خروجهم من بلادهم لنهب الرعايا
والمحارم) .

وحرر البدر الأمير رسالة ذكر فيها من قال بالتأمين (١) من أهل البيت .
وأجاب حسين النعمى عن المعارضين وأطال الكلام فقنعوا بالجواب مدة ثم
بدا للمهدي أن يرضى حسن أحمد البرطى لكثرة الخوض منه بمنع التأمين .
فأمر المهدي متولى وقف صنعاء الشيخ عبد الله محبى الدين العراسى
أن يأمر المؤذن بجامع صنعاء . أن يعلم الناس بذلك (٢) .

(١) قول المأموم أمين عغب قراءة الفاتحة

(٢) لم يكن المهدي عباس يهتم من كل ذلك الا بالحرص على المظهرات التى
تؤكد ولاء العامة للمذهب الذى هو ولاء للحكم فى الوقت نفسه وقد ظل الأئمة
يقيسون نفوذهم بمثل هذه المظاهر كقول أمين وقدر النذور التى تصل
اليهم من الرعايا .

وقد حدث أن زار قاضى حضرموت الطاغية يحيى وأثناء رحلة القاضى من تعز
الى صنعاء مر بمدينة ذمار وكان الرجال الذين عينوا لمصاحبتة من الشافعية
وهو أيضا شافعى المذهب وعند الصلاة فى مسجد ذمار جهرؤا بقول أمين .
وبعد أن انتهت الصلاة . استنكر المتزمتون ذلك من الضيف وصحبه قائلين
(موسيقى فى المسجد) .

وعندما دخلوا على الطاغية كان أول سؤال لهم : زرتم ذمار ؟ نعم ؛ وقلتم
أمين ؟ نعم قلنا أمين .

ومنع عامة الناس بصنعاء حتى الشافعية والحنفية . فقليل له فى ذلك
فقال من كان من مذهبه قولها قالها سرا . فتحزب الناس حزبين) .

وفشلت الحركة التى كانت تنذر بشر كبير والتى كان المقصود منها فى
الحقيقة اسقاط حكم العباس ونهب عدد من المدن والقرى وفى الظاهر كان
الهدف اخراج ابن الأمير من صنعاء وطرد العالم الحر الذى أنكروا عليه
حريته وعلمه وأصالته فى المعرفة حتى تساءلوا عن شيوخه ومعلميه .

وفى غمرة هذا الغليان الذى تقلب بالناس وخلط بين عالمهم وجاهلهم
وقانعهم وطامعهم خرج علينا ابن الأمير بتلك القصيدة التى يكاد يختتم بها
حياته الشعرية والتى يبلغ فيها قمة الايمان والتصميم على مذهبه الذى
تقاضاه خمسين عاما من حياته الخصية .

نصف قرن من الزمان تنفق فيها الساعات بكل عزم وثبات فى سبيل
الدعوة لأحياء السنة والرجوع الى كتاب الله وطرد هذه العصاة
التي زادت على الآلاف تنهش فى أعماق الشعب العظيم .
لم تشبع يوما ولم تقنع .

ولم يستطع الشعب أن يجد من نهمها خلاصا .

وقد فعل فى ليلة السادس والعشرين من سبتمبر .

ومذهبي التوحيد والعدل لاسوى	وهذا لعمري دين كل موحد
كذلك تفسير الكتاب حفظته	ودرست فى التفسير كل موحد
على كل كرسى وفى كل مسجد	فكل بما قلناه يهدى ويهتدى

وأصلحت ما بين الأئمة قد جرى	وأطفأت نارا شبا كل مفسد
ثلاثة أصلاح ورابعها الذى	جرى بين مولانا الامام وأحد
ولم أرد الدنيا الدنية أو أرد	عمارة قصر فى أزال مشير

ولا قطعة اقتطعتها أو ولاية كما هو دأب الناس في كل مورد
ولا كيلة لى من زكاة ولم أذق لها جبة ولا لمست يدي

فكان علينا واجب كشف جهلهم بنظم كدر في الطروس منضد
أما فيكم من يستحي من الهمة أما فيكم من يهرب الخزي في غد
أما فيكم من راقب الله ساعة وتاب فقد أفسدتم الأرض عن يد
لكم كل عام مخرج تخروجه لنهب الرعايا في اعانة مفسد
وما الله عما تعملون بغافل وربك بالمرصاد فلنترصد

وقلتم بأنا مخرجون محمدا وأهليه من صنعا بغير تردد
كذبتم ويأبى الله والله غالب ولن ينصر الرحمن أفعال معتد

أجاب عليكم أهل حوث وبنوا لكم كل بحث بالدليل المؤكد
وقد نصحوا لو تقبلوه وانما جوابكم في غلظة وتشدد
دليل على أن العناد مرامكم ومن عاند الحق القويم فمعتد
ومن كوكبان قد أتنكم نصائح وفيها براهين بقول مجود
ومن سفح صنعا من امام معارف ومن باذل نصيح العباد ومرشد
كذا من ذمار قد أتنكم رسائل وليس يرد الحق من كان يهتدى
ووالله ما يسألكم عن مذاهب شغفتكم بها جهلا على غير مقصد

وقد أبرزت هذه الثورة مكانة ابن الأمير ومدرسته وعمقها وتغلغلها
في ربوع اليمن .

واستطاعت المبادئ أن تعلو على الأطماع .

واستطاع الشيخ وهو في عشر التسعين أن يقهر بالكلمة تكالب
الأعداء وأغراض المغرضين استطاع الشيخ أن يمد يده على بيوع اليمن
ليسيطر عليه :

لا بالسيف ، ولا بالمال ، ولا بالمؤامرات . ولا بتسليط الناس بعضهم على بعض يتصارعون كالذئاب الجائعة .

ولكن بالدعوة الخالصة المؤمنة البرة الرحيمة بالكتاب والسنة .

ولئن كانت الدعوة قد أصابها الضعف بعد ذلك بسيف الحجاج وذهب المعز فان قبسا من نورها لم ينطفئ على مدى الأعوام . وظل يهدى السارين حتى تفجر باهر الأضواء فجر السادس والعشرين من سبتمبر عام ١٩٦٢ م .

وكان الشيخ قد أرهقته الأيام ونالت من قواه ما تستجد به من أحداث وآن للغريب أن يعود الى مستقره .

وقد ودع الدنيا برا رحيمًا محمود السيرة بعد هذه الحادثة بأشهر قليلة .

اختاره الله الى جواره فى الثالث من شعبان عام ١١٨٢ هـ .

الفصل الثالث

فساد الحكم ودعوة الإصلاح

فيا عُصْبَةَ ضَلَّتْ عن الحق والهُدَى ومالت إلى أفعالٍ طاغٍ وفاجرٍ
بأى ملوك الأرض كان اقتيداؤكم فما لكم في فعلكم من مُناظرٍ
أَنَافَسْتُمُ الحجاجَ في قُبْحِ فعلِهِ فَفَعَلْتُمُ في الجورِ فعلُ مُفَاخِرٍ
يُفْديكمُ إبليس حين يَراكم يقول بكمُ والله قَرَّتْ نواظِرِي
نبتكم كتاب الله خَلْفَ ظُهُوركم ولم تَعْمَلُوا منه بِنَصٍّ وَظَاهِرٍ

خَرَاجِيَّةً صيرتم الأرض كلها وَضَمَنْتُمُ العَمَّالَ شَرَّ المعاشِرِ
لِذَلِكَ الرعايا في البلاد تفرقت وفارقت الأوطان خوفاً العساكرِ

ويا عُصْبَةَ من هاشم قَاسِمِيَّةٍ إلى كم تَرَوْنَ الجورَ إِحْدَى المفاخرِ
أَتَيْتُمُ بِأَصْنَافِ الضلالات كلها وجئتم بأنواع الأمورِ المناكرِ
ففى «بُرْدُقَانٍ» أَنْفَقْتُمْ وَحَشِيشَةً وخمرٍ لِحِمَارٍ ولهُوٍ لسامرِ
مَلَأْتُمُ بلادَ الله جَوْرًا وجئتم بما سُودَتْ منه وُجُوهُ الدفاترِ
ووليتم أمرَ العباد شراركم وخولتم أعمالكم كل ماكرِ

ويا وزراء السوء يَاشِرُ فِرْقَةٍ وَأَخْبَثَ أَعْوَانٍ لِنَاهِ وآمرِ

(١)

الفوضى التي شملت اليمن في هذه الفترة وألوان الفساد التي سيتعرف القارىء على صور عديدة منها لم تخف ولم تتغير حتى قامت الثورة .

وقد يقف القارىء العربى أمام بعض الحوادث مستنكرا مستغربا لبشاعة ما يقرأ . ولكن القارىء اليمنى سيجد هذا الذى كان مكررا فى حياته وفى عهد أسرة حميد الدين .

وما تكاد تقرأ الحادثة حتى تسمع من الشيوخ عشرات الحوادث من أمثالها حدثت لهم أو اتفقت لأهلهم وذويهم على مدى الأعوام التى عاصروها .

ولذلك فإن هذا الفصل يعطى صورة ليمن قبل الثورة وبنفس الدقة للصورة التى يقدمها عن تلك الفترة التاريخية التى عالجناها .

وسنترك للقارىء الحكم الذى يستخلصه بنفسه من استقراء ما سيعرض عليه .

وقد حاولنا جهد المستطاع أن نترك للمؤرخين الذين عاشوا فى ظل الأسرة الحاكمة أمانة النقل .

وإذا كان المؤرخ الذى حاول أن يبرز المحاسن ويبالغ فيها ويستتر العيوب ويبالغ فى سترها . إذا كان هذا المؤرخ قد ألزمته حتمية الحوادث بذكر بعض ألوان الفساد فإن ما يختفى وراء كتاباته أضعاف مضاعفة عما سجله .

وأول ما يطاتلنا من صور الفساد فى هذا العهد هو فساد الأئمة أنفسهم واستهانتهم بكل المقدسات فى سبيل الوصول الى الحكم وأمام هذا الهدف كان الاغتيال وسيلة مشروعة فى سياسة الحكم . وكانت العهود مهما بولغ فى توثيقها لاتساوى الورق الذى سطر تعليه وكانت الصلات

الانسانية بين الناس معانى لا يتطرق اليها الذهن حتى خان الابن آباءه وأوقع الأب بأبنائه وتآمر الأخ على أخيه .

وكانت المقدسات الدينية مظاهر يحرس عليها ووراء هذا الستار ترتكب الجرائم وتقترب الكبائر فى سهولة لا يخشى معها رجعة ضمير .

وكان الأئمة فى سبيل أطماعهم المادية يسرقون وينهبون ويصدرون الأحكام الشرعية تغل عليهم وتملاً خزائهم وتسكت خصومهم وترضى أنصارهم . حتى تحول اليمن الى اقطاع شرير وتاجر الأئمة فى العملة التى يضربونها وغيروا فيها وبدلوا لتدر عليهم كسبا غير مشروع . وأباحوا البلاد لأنصارهم يسلبون الرعايا ويعتدون على الحرمات .

وبالتالى أصبح السلب والنهب والاعتداء على المحرمات حقاً مكتسباً للخصوم .

ونشأ فى ظل الفساد عمال لا يرحمون وقضاة من طعام الناس وجهالهم وجنود لا يرعون لله حقاً . وأصبحت الرشوة شريعة والاعتصاب قانوناً والمتاجرة فى الخصومات مغنماً لحاشية السوء .

ونشط نفوذ اليهود فى صنعاء يعملون على انهيار هذا المجتمع وانتشرت المغاني والمواخير وبيعت الخمر علناً .

وأصبح الانسان الصالح غريباً فى المجتمع اذا اعتزل الناس اتهم فى ولائه أولاً ثم فى دينه ثانياً . واذا تولى عملاً وأرضى ربه وضميره تتبعه عمال السوء بالرشاوى والوقية حتى يعزل فان لم يستطيعوا اغتالوه .

وأيم الحق لا تتجنى على الحقيقة ولكننا سنعرض بعض المآسى التى حدثت فى هذا العهد قبل أن نعرض لصلة ابن الأمير وجهاده لاصلاح الحكم على النهج الذى رسمناه لهذا الفصل .

الاغتيال وتقض المهود :

× فى الثورة التى حدثت ضد صاحب المواهب وبعد ثلاثة أعوام من حكمه انضم الحسين بن عبد القادر الكوكبانى الى خاله على بن أحمد بن القاسم صاحب صعدة .

وفى احدى الحملات التى جهزها صاحب المواهب كان اسماعيل ابنه قائدها فلما وصل اسماعيل الى عمران وأرسل الى الحسين بن عبد القادر فى كوكبان (مرسوما (١) من والده أنه يكون كفارة خروجه مع خاله على ابن أحمد بن القاسم الخروج عليه مع ولده اسماعيل وأن الحسنات يذهبن السيئات)

(فغره ذلك وتحمل بمن معه من العسكر والخيال) فلما وصل عمران فرق جميع أصحابه ولبث عند اسماعيل بن الناصر (٢) الى الليل ثم أبرز له مرسوما آخر يتضمن الأمر بإيداعه السجن بقصر صنعاء (فصرى به ليلا وذلك فى سنة ١١٠٤ هـ ولبث فى السجن الى سنة ١١١٠ هـ) .

× قال لطف الله جحاف فى حوادث سنة ١١٢٥ هـ)

(وكان فى هذه الجهة الفقيه حسن بن صالح كعبية من خواص أصحاب المنصور فعامل عليه ابن الأحمر حتى قتله وأرسل برأسه الى وادعة) ومن وادعة أرسل الرأس الى المواهب) .

× ويترجم ابن الأمير لأحد تلاميذه ويدعى محمد بن اسماعيل العيدى فيقول :

شاب تقى عن العيوب تقى نشأ فى طلب العلم والأدب ودرج الى رحمة الله شهيدا قتله بعض السادة الحمزات الذين بجهات صعدة جهارا نهارا فى قبة الامام الهادى يحيى بن الحسين بصعدة رحمه الله تعالى .

(١) من نفحات العنبر .

(٢) هو المهدي صاحب المواهب .

× وفرجو أن يرجع القارىء الى الطريقة التى اغتال بها المنصور حسين صديقه على الأحمر الحاشدى فى بداية حكمه .

× وأثناء وجود ابن الأمير فى منفاه بشهارة حاول المنصور حسين أن يستقدمه اليه بشتى الوسائل فى سنة ١١٤١ هـ .

أرسل اليه بكتاب يتضمن تأمينه وأشهد على كتاب الأمان حكام الشريعة وبلغ هذا الخبر تلميذ ابن الأمير الحسن بن اسحق وهو فى سجن صنعاء ، فسارع بالكتابة الى أستاذه بشهارة واستعمل التورية فى شعره .

لا تركزن الى أمانى الغيد	فأمانها والله غير مفيد
وحذار ثم حذار منها انها	جبلت على ألا تفى بعهود
فلکم قتل من سيوف لحاظها	ولکم أسير موثق بقيود
لا يخذعنك لين منطقها ولا	قسم يحف بأحرف التأكيد
وكذاك أن قبلت شفاعة شافع	رأت الوفاء لذاك غير سديد
وضمانة الوجه المنير عن الرثا	سفه أعيذك بعد لطم خدود
وكذاك ان كتبت أنامل كفها	خط الأمان مؤكدا بشهود
لا تأمن فكم رأيت مؤمنا	غدرت به والغدر شأن الغيد
فاقبل عداك الحب نصح مجرب	قتلته بيض بالعيون السود
والبعد عن سفح الغوانى نعمة	عظمى بها يختص كل سعيد

وذاذ الدل واللحظ والغدر هذه انما يعنى بها المنصور حسين وما يفعل به خصومه .

قسوة القلوب :

× محمد بن الحسين بن عبد القادر كان ممن خرج على القاسم الرهيب ولتستمع الى قليل من أخباره وأخبار القاسم وابنه الحسين نقلا عن زبارة فى نشر العرف .

وغزا الحسين بن المتوكل شبام (فاستولى عليها وأخذ أصحابه معظم ما فى دور أهلها ونالت عائلة « محمد بن الحسين » بذلك ما نالت من الشدائد وقبض عليه الحسين وسار به الى والده (ولما وصل الى باب المنجل بالجهة الغربية الى الشمال من ضواحي صنعاء أرسل المتوكل (القاسم) السيد الحسين بن يحيى الأخفش لغل « محمد بن الحسين » بالحديد وادخله صنعاء واستمر وقوفه ومن معه أيام المتوكل على تلك الحال من شروق الشمس الى قريب صلاة العصر . وأمر المتوكل بقيده ثم بدا له أن يرسل به مقيدا الى حبس « زيلع » من جزائر اليمن على ساحل البحر بعد أن يطاف به مدائن اليمن وقال « محمد بن الحسين » من المحن والشدائد والأهوال ما لم يخطر له ببال) .

× فى سنة ١١١١ هـ حدثت فتنة أحد الثائرين المنجمين تعرف بفتنة المحطورى . وقد أرسل صاحب المواهب ثلاثة من أولاده على رأس جيش كثيف لقتال المحطورى (١) وعند وصولهم الى قرية ريمة ابن حميد من بلاد سنجان التقاهم أهل مدينة ثلاث بسبعين أسيرا من أتباع المحطورى وأجنداه فأمر « محسن بن المهدي » بأرجاعهم صحبته الى صنعاء ثم أمر بضرب أعناقهم بباب مسجد وهب بن منية) .

× وبعد خمسة أعوام أمر صاحب المواهب بالقاء القبض على ابنه محسن — صاحب الواقعة السابقة — لأنه ظن أنه يسعى للملك وبعد أن مكث ستة أعوام فى سجن صنعاء طلبه (فسار (٢) اليه مضبوطا فحبسه فى ذمار وضيق عليه حتى مات فى سجن ذمار) .

وعبد الله ابن صاحب المواهب ألقى به فى السجن من بداية عهد أبيه بالملك . وظل فى سجن الطاغية حتى مات .

ولعل السبب فى ذلك أغرب وأعجب . فقد أرسله أبوه على رأس جيش لمحاربة يوسف بن المتوكل (٢) (فخاف بادرة والده وسطوته فبايع يوسف ابن المتوكل) وانضم الى أعداء أبيه .

(١) نشر العرف لزبارة .

(٢) لطف الله جحاف نقلا عن نشر العرف .

× وفى تاريخ لطف الله جحاف أنه فى سنة ١١١٠ هـ تعاضم الظلم من ابن مغلس عامل المهدي صاحب المواهب على بلاد ريمة وبلاد وصاب فاضطروا الى الفساد . فسلط عليهم المهدي الشيخ صالح حبيش وأصحابه فقتل الكثير من أهل البلاد وشرذ البعض منهم وكان بعض أصحاب ابن حبيش يقطع أذن المرأة من الرعية طمعا فى الخرص الذى فيها .

وبيعت بعض الآذان بأخراسها فى مدينة صنعاء ولذلك خطب على منبر جامع صنعاء الفقيه محمد صالح العلفى خطبة أنكر فيها فعل ابن حبيش وأصحابه بأهل بلاد ريمة ووصاب وتحريم المثلة بهم .

فغضب صاحب المواهب لتلك الخطبة وأمر بارتفاع ابن حبيش وأصحابه من تلك البلاد ووضع الآداب من المال على أهل البلاد . وهم أن يوقع بالخطيب العلفى وعزل المغربى (١) عن الخطابة للآذن منه لللفى بالخطبة وحبس العلفى فى حصن عولى) .

× ومن نشر العرف نقلا عن القاضى أحمد قاطن :

(كان فى أيام المتوكل قاسم بن حسين وابنه المنصور حسين ينزل القبائل من حاشد وبكيل فى بيوت يصرفون للبقاء فيها من بيوت أهل صنعاء) .

ويستمر فى روايته حتى يذكر أن العاس بن الحسين رأى (أصحاب « القبيع » يخرجون امرأة من بيتها بقرب مسجد الجديد بصنعاء والمرأة عقب ولادة ومعها صبي فى خرقة وهى تصرخ بصوتها وتبكى لآخراجها من بيتها) .

وقد رأينا من قبل أن المنصور حسين كان يحقد على أهل صنعاء رميه بالعقوق لما وقع بينه وبين أبيه . وأنه اتخذ من انزال القبائل فى ديارهم لونا من ألوان التأديب لهم . وأن القبائل كانت تحتل البيوت لا ترعى لها حرمة

(١) الخطيب الرسمى لجامع صنعاء .

وتخرج أهلها منها لا تفرق بين عالمهم وجاهلهم وها أنت ترى أنها كانت لا ترحم امرأة فى ساعات وضعها الأولى .

وليست صنعاء وحدها هى التى ابتليت بهذا فكل المدن التى مرت بها جيوش الحكام أو جيوش المعارضين لهم لم تسلم من الاعتداء على حرمان أهلها وأموالهم . أرسل المهدي ابنه اسماعيل الى صعدة فى جيوش جرارة تغلبت على القبائل هناك (وذلت قبائل الشام) وصعدة وفى سنة ١١٠٤ هـ اشتدت وطأة الجند الناصرى المهدي على أهل صعدة وبلادها وتغافل الأمراء عن الانكار ... ظنا أن ذلك من التأديب والهوان والاصغار فنفرت القبائل وتحزبت (وتغافل الأمراء عن الانكار وتركهم للجيش يرتكب من الجرائم ما يجب انكاره رغبة منهم فى تأديب الشعب والحاق الهوان والصغار به : هذا يعطى القارىء صورة واضحة عن طبيعة ما كان يفعل بالناس .

ويلقى صاحب نفحات العنبر بعض الضوء عما كان يفعله الأمراء فى صعدة فيقول « ثم أمر المهدي أولاده بالحقق الى صعدة وأمدهم بالجيوش وكان قدرهم اثنى عشر ألفا . فدخلوا صعدة عنوة فهرب عنها « على (١) بن أحمد بن القاسم » الى بلاد الشام (٢) بجهات صعدة وكانوا له حلفاء وعلى عهده .

ولما استولوا على صعدة عاثوا فيها وشاطروا التجار وأساءوا السيرة حتى نفرت القلوب منهم وأجمع أهل البلاد أمرهم على حرب أولاد المهدي .

واجتمعت كافة القبائل من وادعة وخولان بن عامر وسحار وعمار وجماعة وأحاطوا بصعدة من جميع الجهات .

أطماع لا تنتهى :

رأينا فى الحكم الذى أصدره المتوكل اسماعيل قوله (ما أمر به الامام

(١) أحد أفراد اسرة القاسم الخارجين على المهدي .
(٢) هى مما يلي صعدة ولواء صعدة يسمى لواء الشام .

على الناس أو على بعضهم من نفقة الجهاد مال حقا مستحقا ودينا لازما كالخراج وضربة السيد على عبده) .

وامتداد هذا الحكم وتطبيقه وتفاقمه بعد ذلك ما لا يدخل تحت حصر حتى أصبح الرعايا لا يأمنون على أقواتهم بادرة الأئمة ومن يتعاونون معهم .

وعشرات من القصص عن أولئك العمال والوزراء الذين يملى لهم الأئمة فى تصرفاتهم حتى تتسع ثرواتهم وتمتلىء خزائهم وفجأة يقرر الامام على الواحد منهم مبلغا من المال « ادبا » يدفعه ويلقى بالرجل فى السجن حتى يحصل منه المبلغ فاذا أدى ما طلب منه عاد الى عمله موفور العاقبة قادرا على أن يسترد أضعاف ما قدمه فى فترة وجيزة وبأساليب أكثر درية وجرأة مما تعود عليها من قبل .

وقد يخطئ الامام فى تقدير ثروة صاحبه فلا يصرفه عن ذلك الحصول على المبلغ الذى علق بأطماعه بأى وسيلة كما حدث مع القاضى حسين بن محمد العنسى :

(وكان (١) المتوكل قد حول عليه فى أيام عمالته على بعض البلاد بثلاثة آلاف ريال بمجرد قول واش حسود وبعد أن اطلع الامام المتوكل على « حقيقة الحال » أرجع تلك الحوالة على ذلك الواشى المنكود) .

× كتب ابن الأمير عن أحد عمال المنصور واسمه محسن يوسف وكان عاملا على ريمة فقال :

« وكان هذا محسن مظلوما للرعايا تنقل فى الولايات والكتابة من أول الخلافة المنصورية فجمع الأموال من حرام ليس فيها حلال وكان وصل الينا كتاب من بعض علماء مكة أنه وصل الى مكة جماعة من رعية بلاد ريمة يشكون من جور محسن بن يوسف فأجيبت دعوتهم وانصرف عنه قلب

(١) نشر العرف لزبارة .

مخدومه المنصور وأخذ من داره ما يزيد على مائة ألف ريال من النقد ومن غيره من كل نوع ، وقبض المنصور أمواله وهى عديدة من الأطياف وأخرج أهله من بيته .

ولما مات المنصور حسين انتقلت الخلافة الى ولده المهدي العباس أطلق المذكور من السجن وأرجع له أمواله وبيوته على تسليم ثمانية عشر ألف ريال فسلمها وعاد الى بيته وعادت له أمواله) .

وأنت اذا تتبعت أخبار هؤلاء العمال والوزراء والامام نفسه وجدت أنها شركة أو عصابة لسرقة الشعب ، والا فما الذى يدعو أحد الوزراء الى أن يتحمل نصف المبلغ الذى يقرره الامام على أحد العمال .

ولنتابع قصة محسن بن يوسف يرويها غير ابن الأمير نقلناها لك من نشر العرف لزبارة وكان قد طولب بتسليم عشرة آلاف ريال مما قبضه .

فقال لا يقدر وتحمل الوزير منها خمسة آلاف ريال معه فأصر على الامتناع وتظلم .

فأمر المنصور بتسمير داره وأنفذ الحراس عليها وحبسه ولما صبح تسمير داره بذل تسليم أربعين ألف ريال ولا يكون الاطلاع على ما فى بيته فلم يسعد المنصور ، وبعد تفتيش داره — وجدوا فيها من الأموال ما لم يكن فى خزائن الامام ومن النفائس والجواهر ما تحار فيه الافهام مما أخذه بيد الظلم من الأثام . ومن النقد زيادة على مائة ألف ريال ، وبقي فى السجن حتى أخرجه المهدي العباس .

× ولنترك قصص العمال واستصفاء أموالهم جانبا فانما هى عصابة تتصرف تصرف العصابات ولناخذ بعض أخبار من الاعتداء على أموال الأفراد الذين لا صلة لهم بالحكم وليكن ذلك خبر أديب عالم تاجر اسمه سعد الدين العدينى وكان ذا حظ وافر هو وأخوه وكان ذا مكانة بين العلماء ويكفيه أن ابن الأمير يرأسه فيقول :

أحب أناسا في دمشق وجدة ببغداد أو من حل في الهند والسند
إذا كان في حب الحديث طريقه طريقى يهدى بالحديث ويستهدى
أحبك سعد الدين لا حب واحد بحبك لى والقلب يشهد بالود
جاء في تاريخ لطف الله جحاف عن هذا الرجل ما يأتى :

(وكان هو وأخوه عبد المولى مظموعا فيهما لسعة أموالهما . أرسل
أحمد بن المتوكل أمير تعز رسولا يشخصهما إليه فأشفقا من ذلك . ثم جد في
طلبهما فابتهلا الى الله تعالى بالدعاء أن يكفيهما أمره ، ثم خرجا واستصجبا
ثلاثين ألف ريال « فرانصة » (١) يستدفعان بها بلاءه .

فما هو الا أن دخلا باب مدينة تعز وإذا الناعية تنعى أحمد بن المتوكل .
فعادا وعلمنا أن الله تعالى قريب مجيب .

وابتلى سعد الدين رحمه الله آخر عمره وأيامه بكف بصره وامتنح
بقضية وهى أنه كان بعض قضاة المهدي العباس أشار عليه بأشخاصه من بلدة
العين الى حضرة الامام فأرسل اليه المهدي فاعتذر وشكا الضرر الحادث (٢) .
فلم يشك (٣) . فسأل الله تعالى وابتهل أن يكفيه ذلك الهم ثم لزم الطاعة
وتوجه الى امامه (٤) — وكان خائفا — فبلغ الحضرة فى حال موت الامام
المهدي رضى الله عنه (والدعاء الأخير دعاء من المؤرخ للمهدي لا لسعد
الدين .

وحقا ان سعد الدين شيخ فان على خلق وعلى دين شهد له بذلك
المسكين .

وحقا ان سعد الدين شيخ فان على خلق وعلى دين شهد له بذلك
الجميع .

(١) ريالات فضية . ماريا تريزا .

(١) ما أصيب به من كف البصر مع كبر السن .

(٣) لم يقبل عذره .

(٤) برغم الظلم الواقع من الامام على الشيخ المسكين كان جحافا يحاول أن
يبرز هذا الظلم ويحيط العباس بقداسة الأئمة وماحدث بعد ذلك هى كرامة
من كرامات طاعة الامام وأى امام هذا الذى يسطو على رعاياه ؟!

ولكن ما فائدة المؤرخ والتاريخ اذا لم يستر هذه المخازى بكل وسيلة.

انحلال :

ولا نجد صورة تمثل هذا الانحلال من سيرة هذا المملوك المسمى بسعد يحيى العلفى الذى كان مملوكا للفقيه يحيى بن أحمد العلفى وأعتقه . وكان يعمل مع سيده للمهدى عباس فلما مات الفقيه استطاع المملوك بوسائله أن يستقل بالعمل للعباس .

ولننقل اليك فقرات من حديث المؤرخين عن هذا الرجل ومرجعها الى نشر العرف لزبارة :

(الأمير الماهر البارع سعد يحيى العلفى الحبشى الأصل اليمنى النشأة الصنعانى الوفاة) .

« مشغوفا بعمل المركبات المفرطات من المعاجين والمشروبات وكان يتخذ الممالك الحسان لخدمته ... ومواجهة الناس بالديوان . فجعل بهم موققه . واستمال بهم طباع من لازمه وألفه » .

فكان يوم مواجهته موسما للسرور مطوى الشغلة بكثير من الأمور . ولا يحضره مشايخ الرعايا والتجار وأهل الكد والعمل القائمين للدولة بالدار الا وقد فتح فيه للأنس والراحة الباب المنسى بالحساب ، وأمر حسان عبيده بمشاغلة الكتاب فاذا راقط طباعهم ورق للناظر اجتماعهم : داروا عليهم بالشرابات المخدرة والمعاجين التى تولد خيالا للفكرة ، فيصير كاتب بيت المال كالأعمى لا يفرق بين الاسم والمسمى ، فيكتب ما شاء الأمير ويفوت من الحاصل الكثير) .

× واليك أيضا خبر « الحكيم الخريت الماهر العلامة رزق بن سعد الله محمد » مملوك محمد بن على بن الحسين .

« وحدثنا بعض أصحابه أنه خرج يوما لصلاة العصر بالمسجد الجامع بصنعاء فلقى غلاما جميلا بباب الجامع فقال على البادرة :

يا منية النفس والفؤاد وسالب العقل والرشاد
يسرني أن أرى ضجيجا لقدك العادل المهاد
وتقدمه الغلام الى الجامع ولما أقيمت صلاة العصر مر من بين يديه قبل
أن يكبر فقال حين رآه :

شغلونا عن الصلاة الوسطى .

فضحك أهل الصف الذي هو به .

ولما قضى الصلاة حدث الحاضرين أنه نظم بيتين داخل الصلاة وهما :
الحسن يختلب العقول ويلبس الليث المسذلة
وترى المصلى وهو أشغ ل ما يكون بريم ابـله
وليس لنا من تعليق على هذا سوى أن نشير الى الذين يضحكون من
مجون المملوك وهم وقوف بين يدي الله تعالى ثم يختمون صلاتهم بالاستماع
الى هذا الشعر الرخيص وهم فى الوقت نفسه يفزعون عندما يسمعون مصليا
يقول « آمين » خلف الامام وينكرون على أخوتهم فى الدين بعض الحركات
التي وردت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

استغفر الله ما ذنب هؤلاء وقد ظل أئمة وقضاة وفقهاء يلقون على
أبصارهم وفى آذانهم حتى التبس عليهم وجه الحق .

× وهذان أخوان عملا للمهدى عباس وهما أحمد وحسن ابنا محمد
الأخفش أما أحمد فقد ولاه المهدى بلاد تعز والحجرية وأما حسن فعينه
حاكما (١) وكان الحسن مشاركا لأخيه فى الأموال التي اكتسبها فيقال
انها بلغت تركتهما فوق مائة ألف ريال وكان الحسن محبا للملبوس متأثرا فى
المعيشة راغبا فى العمائر) .

(وكان هو وأخوه أحمد من عجائب الزمان وغرائب تروى عنهما أخبار
مضحكة .

(١) نشر العرف لزبارة .

أراد أحمد أن يتصرف ببعض الأموال وهى مشتركة بينهما فأنكر عليه الحسن ، فأرسل اليه رسولا يقول :
« ان أخاك أحمد يقول لك لا تعترض فما سيتربع فى قعر جهنم الا هو لمباشرته للمظالم وهذا من خلاعته وطيشه » .

فساد العمال وافسادهم :

عين الطاغية يحيى أحد العلماء قاضيا وحدد له مرتبا لم يرض به القاضى وراجع الامام فى زيادة مرتبه لما يتحمله من أعباء عائلية لا يفى بها المرتب .

فقال له الامام : خورجها

وآخر فى نفس الوقت أجابه يحيى : اسرق لك

وليست الرشوة واستغلال الناس من الأخبار التى سنحنى بتسجيلها لأنها أكثر من أن تحصى . ولكننا سنختار لك كيف كان العامل لبيت القاسم يسير فى الرعية ثم تضافى عليه ألقاب التعظيم والمهابة ويوصف بكل صفات التقى والورع .

× أحد أبناء القاسم بن الرشيد واسمه عبدالله عين فى عهد أخيه اسماعيل عاملا على دمار . فكان علاوة على ما يفعله بقية العمال يتتبع الأغنياء والموظفين بالعقوبات المالية .

يستدعى من يقع عليه اختياره منهم ويفرض عليه المبلغ الذى يراه ويزج به فى السجن حتى تصل الأتاوة الى يدي الأمير .

وأسرف الأمير فى ذلك حتى ضج الناس بالشكوى وتحرك من الشاكين أخلص أعوانه .

وتعجب عندما تقرأ سيرة عبدالله هذا فى بغية المرید حتى لكأن صاحب البغية يكتب لقوم لا يفقهون واستمع اليه :

(وكان سيدا نجيبا أميرا جليلا صالحا مهيبا كاملا فى المحاضرات قليل الكلام والحركات له رياسة عظيمة) .

« واستمرت عمالته فى ذمار حتى شكا أهل ذمار الى صنوه المتوكل على الله اسماعيل زيادة التأديب والعقوبة بالمال ورحل حاكم ذمار القاضى العلامة يحيى بن محمد بن على بن معوضة الشيبى الى الامام المتوكل الى السودة شاكيا » .

وقد لاقى الناس من أبناء الأئمة هؤلاء ومن استهانتهم واستهتارهم الكثير . أليس أدل على ذلك من أن يعين المتوكل اسماعيل ابنه الحسن قائدا على جيش كثيف ويوجهه الى بلاد صعدة ثم يقطعه بلاد اللحية ومور والزيدية والضحى وما اليها من جهات تهامة حتى دعا هذا الموقف الحسن بن أحمد الجلال الى أن يقول متمثلا :

طفل يرق الماء فى وجناته ويرق عوده

ويكاد من شبه العذارى فيه أن تبدو نهوده

ناطوا بمنطق خصره سيفا ومنطقه يؤوده

جعلوه قائد عسكر ضاع الرعيل ومن يقوده

× وكان سخط الشعب على العامل أو الوزير مدعاة لتمسك الامام به حتى ولو ظهرت سرقاته وتأكدت جنايته .

وكان صالح الحريبي ومحسن الحبيشى وزيرين لصاحب المواهب وكثيرا ما تعالت الصيحات من مظالمهما وقسوتهما ثم أمر صاحب المواهب بالقبض على محسن الحبيشى فبادرت العامة الى نهب بيته فى ذمار ثم كان تفتيش بيوته التى فى أب فوجد فيها من نفائس الذخائر وكل ثمين من الحلوى والحلن والسلاح الفاخر والمال المتكاثر والجواهر وهدايا ملك العجم التى أرسلها لصاحب المواهب وهى على صفتها مطبوعة بخاتمها ، ومن الجنايى (١)

(١) الى الحناجر .

الجليلة ذوات الأثمان نحو مائتين وأربعين جنبية وما لا يخطر على البال من اللؤلؤ والذهب والقشاش وكل ثمين ونفيس ونقلت جميعها الى المواهب .

وكان نقل محسن الحبشى قبل موت المهدي ففرح الناس بزواله (١) ومع ذلك فما كاد يمضى عامان من تولية القاسم حتى أعاد الوزيرين اليه (وأعاد الناس الشكوى والضجيج من أعمال الحريبي وتقريبه محسن الحبشى) .

× وآخر يدعى شرف الدين المنجم تناول تاريخه لطف الله حفاف بقوله : (فى سنة ١١١٥ هـ) استعمل المهدي صاحب المواهب على صنعاء شرف الدين القاسم فسار فى الناس بالعسف وكان ماهرا فى الشعوذة والتنجيم فرجع الناس الى الله بالتضرع والابتغال .

وفى سنة ١١١٦ هـ أمر المهدي عامله المذكور على صنعاء بالقبض على ولده محسن بن المهدي وعلى من معه من الأعيان وتقريبهم فى الجبوس) .

ثم بدا للمهدي أن يعصف به فأمر بصادرة أملاكه (ثم كان الاطلاع على ما فى دوره فوجدوا بها من النفائس والذخائر ما تزيد على وصف الواصف . وأرسل ابراهيم بن المهدي على الجمال الى والده مالا تضبطه الأقلام من دور شرف الدين) . ثم يتولى القاسم الرهيب فيعيد تعيين شرف الدين عاملا على بلاد وصاب وعين معه قاضيا على بن محمد العنسى فكان القاضى ينكر عليه ظلمه ويرفع الى المتوكل سوء سياسته . فعزله المتوكل — عزل القاضى العنسى لا شرف الدين — وأعرض عنه وجبهه .

والقاسم الرهيب كان يملئ للعامل حتى تمتلىء خزائنه ثم يتحسب قدرته على المبلغ الذى يفرضه عليه . وكان للأئمة وسائلهم الخاصة فى ذلك .

ومنذ قليل عرضنا عليك قصة القاضى العنسى وما قرره عليه ثم أحال ما قرره على الواشى الذى وشى به أو بمعنى أصح على الرجل الذى لم يحسن تقدير ما عند العامل .

(١) نشر العرف لزبارة .

وفى الرواية التى سننقلها اليك بعد نشير الى بعض النقاط :

— كيف كانوا يستدرجون خيار العمال ليشاركوهم وبحجج مضللة .

— كيف يغرقون فى الفساد ولا ينكرونه ولا يحاولون اصلاحه بل يدعون أنه أمر لا يقوى عليه الامام نفسه .

— كل عامل تثبت نزاهته يعزل .

والرواية منقولة عن الدمية لأحمد قاطن عندما ترجم للقاضى اسماعيل حنش الصناعى . وكيف كان الرجل فقيرا مشهورا بالعلم والتقوى فعرض عليه الحسن بن زيد الشامى أن يتولى المخازن للمهدى عباس (فقال الفقيه معتذرا ان أكثر الزكاة تصير الى من لا تحل له (١) .

فأجابه السيد الحسن : ان المراد الأهم المقدم صيانة الرعايا وباب الصرف باب آخر وليس أمره اليك ولا يمكن للامام نفسه ازالته وما يخاطبك الله فى ذلك . والدفع عن الرعية مع الامكان واجب وقد أسعدك الامام على ذلك وأمكنك فما أنت بمعذور عند الله سبحانه .

فحسن الحال فى أعوام توليته المخازن وأتعب نفسه كثيرا واستعمل أهل الديانة وبقى أعواما عديدة على الحال الجميل ولم يظلم أحدا مع توسطه . ثم عزل من هذه الوظيفة لا لسبب غير غلبة بطانة الشر) .

أساليب السيطرة على العقول :

صورتان مختلفتان للمهدى صاحب المواهب :

احدهما توضح كيف كان يلقي رعاياه والأخرى تبين كيف كان يعيش .

أما الأولى فمرجعها للشوكانى فى البدر الطالع ننقل بعض عباراتها دون

تعليق :

(١) لأنها تصرف للسادة وهى محرمة عليهم كما ستعرف بعد .

« كان يأخذ المال من الرعايا بلا تقدير وينفقه بلا تقدير ، فلما قام هذا « يعنى صاحب المواهب » أخذ المال من حله وغير حله ، ومع ذلك فهو يتزهد فى ملبوسه فانه كان لا يلبس الحرير ولا رفيع الثياب . وكان يسمى صاحب السجده لأنه كان اذا خرج فى موكبه ورأى ما بين يديه من الأجناد المائلة للفضاء ترجل عن جواده وسجد شكرا وتواضعا ومرغ وجهه بالأرض وكان سفاكا للدماء بمجرد الظنون والشكوك وقد قتل عالما بذلك السبب وشاع على الألسن أنه كان يأتيه فى الليل من يخاطبه بأنه يقتل فلانا وينهب مال فلان ويعطى فلانا ويمنع فلانا فاذا كان النهار عمل بجميع ذلك » .

أما الصورة الثانية فننقلها من نفحات العنبر للحوثى وهو يترجم للسيد محمد حسن الكبسى .

(وكان صاحب المواهب يرسل اليه بكسوة فيتخرج من قبولها وأخيرا أرسل فى طلبه فامتنع وخشى أصحاب الكبسى أن يفتك الطاغية المجنون به . فتقدم أحد أصدقاء الشيخ رسولا الى صاحب المواهب يلتمس عذرا . « فلما وصل الى المواهب اتفق بالوزير صالح الحريبي وعرفه بحقيقة الحال . فقال له الوزير فبأى شئ نعتذر له ؟ قال بعجزه . قال سيرسل له بمركوب ولكنى أشير بعذر أحسن من هذا . وهو أن تقول : لما بلغنى أمركم الشريف بوصول السيد محمد الكبسى اليكم طلبت من الأمير سليمان وصولى اليكم لأعرفكم أن السيد محمد قد عرف الامام المؤيد محمد بن المتوكل وأنتم عارفون كيف كان حاله من الزهد والورع فى ملابسه ومركوبه وأحواله كلها .

وأنتم بحمد الله كذلك . غير أن هذا الزمن حاله يقتضى خلاف الحال الأول لبستم له هذا الملبس الفاخر وفعلتم العدة العظمى للخيال واستكثرتم من حلى الذهب والفضة لأجل القاء المهابة فى الصدور ولتشبيد الأوامر والنواهي . وان السيد الكبسى قد يستنكر ذلك كثيرا ولا يعرف حقيقة ما لديكم وهو يعتقد أن حالكم كحال المؤيد وأنكم مثله من جميع الوجوه .

ولفرط محبتي لكم أردت أن أفيض هذا اليكم .
وينتهي الأمر بأن يخشى صاحب المواهب قدوم الكبسى عليه ويعدل
عن استدعائه ليبقى رافلا فى حلل الذهب والفضة حتى اذا خرج أمام الناس
سجد ومرغ جبهته فى التراب تضليلا للعامة .

شهادة الشهود :

ولنرجع الى بعض ما قاله الشعراء والعلماء عن حكام هذا العصر فهو
خير دليل يمكن أن يوضح حقيقة الحال . فقد يتزايد المؤرخون وقد يغفلون
بعض الحقائق ولكن الأدب مها بولغ فيه فهو الصورة الصادقة التى
لا تكذب .

(١) الداعى محمد على الغربانى :

ولقب الداعى هذا يلقب به الواحد من أفراد الهادويين اذا رأى منكرا
فأنكره ودعا الى اصلاح . فيخرج الى أحد الحصون فليجأ اليه ويرسل الى
الامام بدعوته تلك لا منافسا على الامامة مكتفيا باعلان معارضته للحكم
موضحا فى كل مناسبة أنواع الشرور معددا لطرق الاصلاح .

وكان هؤلاء الدعاة يزعمون الأئمة أشد ازعاج ويخيفونهم أعظم الخوف
وقد واجه صاحبنا هذا حربا لا هوادة فيها من أبناء القاسم ولولا أن الأمر
يطول بهذا الحديث لنقلنا اليك قصة الرجل كاملة ولكننا نكتفى ببعض
مختارات يهاجم فيها جور الأئمة وعمالهم .

كانت دعوة الرجل سلمية خالصة لوجه الحق فاذا بهم يوجهون اليه
جيوشا جرارة لحربه ومن تقاليد القبائل أن تحمى أمثال هؤلاء الدعاة وان
كانت لا تعلن خروجها على الامام .

وعجبنى بنى القاسم الأكرمين
وقل لهم يا بحور الحجج أتيتم بشيء بكم يسمح

جنودكم من جميع القري الى رجل واحد تزعج
وليس له ثروة لا ولا خلا الله أوس ولا خزرج
ولم يأتكم منه ما تكرهه ون سوى أنه قال ذا المدرج
وما قال انى امام ولا الأما مة عنكم لها مخرج
ولكنه قال ان كان ما ذكرت هو المنهج الأوهج
فحيى اليه اذا شئتم والا فمأشئتم فانهجوا

وهذا الداعى الى الحق الزاهد فى الدنيا الذى لا يملك الا الكلمة
الصادقة يوجهها الى الطغاة كتب قصيدة يصور فيها الفساد الذى عم البلاد
مطلعها :

باسم الحكيم العدل ذى الاحسان منزل الكتاب والميزان
يدعو فيها العلماء الى كلمة سواء بينه وبينهم ان كان ما يدعو اليه حقا
فليصدقوه وان باطلا فليوضحوا ذلك من كتاب أو من سنة أو من اجماع
وقياس . ثم هو بالتالى يحملهم تبعة السكوت على المنكرات ومحاباتهم
للملوك وذوى السلطان . ويعدد فى القصيدة أنواعا من الظلم لا يملك انسان
أن يقرها أو يسكت عليها .

فالمكوس التى بالغ فيها العمال وفرضوها على الأغنياء والفقراء وخرجوا
بها عن مقررات المشروع والمعقول .

والرجل بدأ دعوته هذه من عام ١٠٧٥ هـ معارضا للمتوكل اسماعيل
وظل على هذا المنهج حتى توفى عام ١١٢٦ هـ فى عهد المهدي صاحب المواهب:

واسنم اليه يتحدث عن أحد عمال المتوكل اسماعيل :

ومثل ما يفعل نجل الحسن فى اليمن الأسفل من أرض اليمن
من حيل للمال سرا وعلن كثيرة تجرى على غير سنن
لا حق ما تؤتى بلا اثمان

كفرقة القروش؛ والموازين والصوم والصلاة والدواوين
والخيل والقادوم والأوتاوين وغيرها مما تكل السراوين

بلا دليل ولا بيان

ونجل الحسن هذا عاث في اليمن الأسفل فسادا وصال عماله وجالوا
دون أن تأخذهم في الناس رحمة أو وازع من ضمير *

وإذا قيل لهم في هذا قالوا ان ديارهم فتحت عنوة -ويا للشعب المسكين
من هذا الحكم الذي أصدره المتوكل اسماعيل - والداعى يتعجب من هذا
في سخريه قاتلة ويطلب أن يطبق الحكم على أوسع مداه :

ان قلت ان دارهم كفرية لأنهم عصاة جبرية
فهى اذن فى الحكم خيرية لفتحها بالسطوة القهرية

والحرب والضراب والطعان

قلت فلا يخلو اذن من أحكام وأن يكونوا مثل أهل الأصنام
والكافرين محريين الأسلام فحكمهم ضرب الرقاب والهمام

وحصدهم بالسيف والسنان

ونختار لك من هذه القصيدة أيضا تصويره لمراحل الشكاوى
والوشايات التى تصل الى الامام أو الى عمال الامام وكيف يتصرفون فيها .
وكيف تستغل هذه الشكايات لابتزاز الأموال والاعتداء على الناس :

المرحلة الأولى :

فما بطاقة عليه تعرض فيها نفاعه لذنب يفرض
جاء بها واش اليه يرفض من جنده أو غيره يحرض

بها على النائى أو المدانى

الا تلقاها بوجه ضاحك وحطها معه على الأرائك-
وخصها باسمه المبارك مشرفا لها على الألائك
كأنها فى منزل الرحمن

المرحلة الثانية :

ثمت يعطيها من الأجناد كم من لئيم شرس القياد
ليس به عطف على العباد همته الفساد فى البلاد
من راجلى الجند أو الفرسان

المرحلة الثالثة :

فان أنيلها وحيزت ييده ورصده محسوبة من رصده
سار بها من يومه أو من غده ممتلئا من تيهه وحرده
يميس للنخوة كالسكران

لا يرحم الباكي منه أن بكى ولا يصيخ لكلام من شكى
ولو يكون كالجنيد فى الزكا ما رفع الرأس له عن متكى
ولا وقاه عاملى الأعوان

ولو ثوى فى بابه سنينا ينشده ذا القوة المتينا
مشفعا بالنهد الأئينا معفرا خديه والجيننا
ماحط منها عنه درهمان

الهدف :

ثم اذا سلم ما عليه لم يزجر عن الذنب الذى كان اجترم
ويطلب الاقلاع عنه والندم وبوعده ان عاد عليه بالنقم
جزاء ما جاء من العصيان

بل غاية السؤل هي الدراهم ليس لها في حكمها مساهم
فان تأتت هانت الجرائم كما يراه جاهل وعالم

لا يترى في ذلكم شخصان

(٢) وليست هذه الأموال التي تجبى على قاعدة متبعة أو قانون يلتزم
بل هي مثل كل العقوبات التي توقع على الشعب في الشمال والجنوب بلا
ضابط و لحدود .

وهذا هو الشيخ العلامة محمد حسين المرهبي يخاطب المهدي صاحب
المواهب في ذلك :

وهل شرع الله الحدود على الوري جزافا بتسديق الكلام المجرد
أما ربطت أحكامه بشـررائط بناها على الشأن العظيم المؤكد

(٣) وأحرار الفكر من بنى القاسم كانوا ينكرون على أبناء عمومته
ما يفعلون أو هم في الحقيقة يتوصلون بهذا الانكار الى اكتساب شعبية
تمهد لهم الطريق الى الحكم .

وها هو الحسين بن علي بن المتوكل اساعيل يخاطب أبناء القاسم :

بنى عسنا صيرتم الظلم عادة	على غير تدبير عد مناكم معا
أسود على نهب المساكين جرأة	ثعالب ان لاقيتم السر شرعا
جبلتم على نهب الرعايا تجاريا	على الله من تيه لديكم وادعا
وجرتم على كل الأنعام بجرأة	فلهم يجدوا منكم سوى الله ذرعا
فمن أجل هذا فرق الله شملكم	وبدد منكم كلما قد تجععا
فلا عالم قد رام جمع شتاتكم	ولا عاقل في لف شملكم سعى
وسلط أشرار الخلائق كلها	عليكم بظلم منكم قد تنوعا

وأعجب منكم في الوري علماؤكم لأطماعهم لم ينصحوكم تشرعا
حاربونكم دون المهين يالها مداهنة سدت من الشرع شرعا

عدمتهم ما أبعد العلم عنهم فدعوا هم للعلم لا شك ادعا
فهل فيهم لله يظهر دينه كمثل على أنزع الرأس أصلا
يحكم فيهم سيفه وسنانه وان كان سيف الله أمضى وأقطعا

(٤) وهذا ابن عم آخر في أيام المنصور حسين وقد رأى الأمور
وصلت الى ذروتها ورأى حكم المتوكل اسماعيل أصبح وبالا وشرا لا طاقة
للعباد به :

يقول الحسين بن عبد القادر الروضى :

يا ناصح القوم قد أبلغتهم حججا فسا وعتها من المنصوح آذان
لأنهم شغلوا عنها بزخرفة حوت أعاجيبها دور وحيطان
وأحدثوا فى الملاهى كل نادرة غريبة ضنها المرسوم بستان
شادوا قصورا وفيها من «مفارجهم» ملاعب ما رآها قبل انسان
وكم عمائر فى صنعا مزخرفة ووسطها من صنوف الوشى ألوان
وكم طيالات خيل انما ربطت للفخر ملبوسها الديباج أفنان

قد استبدوا بيت المال أجمعه وأخذه من ذوى الاسلام عدوان
قالوا امامهم اسماعيل عالمهم أفتاهم بمقال فيه برهان
يقول ان جنود الترك كافرة دانت لهم من جميع القطر بلدان
وبعدهم قد ملكناها بقوتنا صارت الينا حلا لا بعد ما بانوا
وكل شخص من الزراع عاملنا على الذى بيديه أينما كانوا
أصولنا تقتضى هذا فلا حرج بسا أخذنا ولا والقول بهتان
ابليس سول هذا والنفوس دعت اليه رغبتها فيها لها شان
هذى الخيالات لاتجدى ليوم غد اذا قضى بين أهل الأرض ديان

(٥) وما أصدق هذين البيتين اللذين قالهما شاعر من شعراء هذا
العصر يصور حال اليمن وما فيه والخلافات التى مزقت اليمن شر ممزق :

وطنى صار رافلا فى ثياب من الحسن
كان للغير ملعبا فاغتندى ملعب الفتن
(٦) وهذا الشيخ الكبير وقد زار ابنه الشاعران المواهب يلتمسان عند
صاحبها بعض الخير فرجع أحدهما مجنونا والآخر مريضا .
وكان بعض ما لقيه فى المواهب كفيلا بأن يسوقهما الى هذه النهاية
المحزنة ..

ويا لمخزية الشيخ وحزنه :

ابنأى قد زرا امام الهدى امامنا ذا الرتب العالية
لم يظفرا منه بما أملا الا ذهب العقل والعافية
(٧) تزويج مسجد « المذهب »

بقى أن نسوق اليك مختارات من هذه القصة الرمزية الرائعة الشيقة
للقاضى على بن صالح أبى الرجال . فهى فى حد ذاتها تفى بما يجب أن يقال
ولا تحتاج الى تعليق .

ونرجو أن تحسن الظن ولا تطلق للخيال العنان « فمسجد المذهب »
هذا مسجد حقيقى وليس اسما لرجل أو قائدا من قواد المتوكل على الله
اسماعيل ثالث ملك فى الأسرة القاسمية .

وقد عجلنا اليك بهذا الاحتراس حتى لا تفاجأ بنهاية لم تتوقعها ولم
تخطر لك ببال ونحن فى هذا البحث نحصر على حقائق التاريخ تقدمها اليك
وأنت وشأنك بعد هذا فيما يسوقك اليه الخيال .

ولكننا نرجو ألا يبعد بك الظن فتتصور أميرا من الأمراء يدعى مسجدا
وأن المتوكل أو غيره من الملوك أراد تزويجه وأنه اختار له العروس ذات
الحسب والنسب وأقام له الأفراح والزينات ورغب فى أن يزف الى عروسه
فى قصر جديد فأطلق أتباعه يجمعون الأموال من الناس كيف شاءوا فالبلاد

ملكه وما فى أيدى الناس حق من حقوقه . ولا بأس عليه وعليهم ان اختاروا
قصورا من قصور الأغنياء فأفرغوه من أصحابه وقدموه الى الأمير مسجد
ليعيش حياة الهناء والسعادة .

ويرحم الله القاضى على بن صالح أبى الرجال رأى المساجد فى صنعاء
قد أهملت إهمالا شديدا حتى كادت تنداعى وحرمت من الفرش والانارة
والمياه وتهدمت وخربت مرافق المياه فيها مع كثرة أوقافها .
ولكن الأوقاف عدا عليها السادة من بيت القاسم يأكلون خيرها ولا
يجدون راعيا ولا داعيا يقول لهم :

قد قسوتهم على الناس فرققا بالمساجد
وسرقتهم الأحياء فعفوا عن الأموات

ومتى يحدث هذا الخراب الذى شمل المساجد جميعها ؟ فى المدن
والبوادي ؟ فى عهد المتوكل اسماعيل . فى أول عهد الأسرة بالحكم وفى
ظل ملك اعتبر اليمن ملكا خاصا له يتصرف فيه كيف شاء وأعطى لنفسه
الحق فى استنصاف أموال من يقع عليه اختياره من الأغنياء ، ويصبح ذلك
حقا مستحقا وضربة السيد على عبده .

رأى « أبو الرجال هذا فأطلقها صرخة مدوية فى قصة رمزية رائعة
لا تصور حال المساجد فى صنعاء وخارج صنعاء وما يفلعه آكلوا أوقافها
بها فحسب ولكن القصة تناولت :

- ا (نظار الأوقاف وكيف كانوا يعتدون على أوقاف المساجد .
- ب (تهدم أكثر المساجد وعدم العناية بفرشها وانارتها ومياهها .
- ج (تحول كثير من المساجد الى بساتين ومرافق للشعب .
- د (كيف يشارك أرباب السلطان فى سرقات اللصوص .
- هـ (أسلوب الأئمة فى حل مشاكل الشعب وتعاليمهم والرغبة التى أدخلوها
فى نفوس العامة .

و (سرقة أحجار المساجد وأبوابها ونوافذها لعمارة قصور الأئمة والسادة .
ولولا أن القاضى يرحمه الله قد لجأ الى بعض الصور التى وعدنا
القارىء بأن نبعد أقلامنا عنها لسقنا القصة اليك كاملة فهى تحفة نادرة
ووثيقة يحكم بها على أدب العصر وعلى أسلوب الحكم فى هذا العصر .
ومع هذا فنرجو أن تقدم لك أكبر قدر منها ونحن على يقين بأنها
ستمتعك أيما امتاع بعد أن تنفذ الى أعناق النفوس ألما وضيقا بما كانت
عليه بيوت الله :

يقول أبو الرجال :

« لما كان شهر محرم الحرام سنة ١٠٨٥ من هجرته عليه الصلاة
والسلام ترجع لمسجد المذهب لما لم يجد من الفقر مذهب ، وصار الناظر عن
النظر اليه واقف مخالفا لما أراده الواقف وهو خال عن الفراش والسراج
محتاج الى اصلاح صرحه غاية الاحتياج أن يشاور بعض اخوانه ليشير عليه
بما يعنيه على زمانه » .

« فقصده مسجد جناح وأوضح له الشكاية غاية الايضاح وطلب منه أن
يواسيه أو يشير عليه بالنصيحة أو يؤسسه فأطرق جناح أطراق الأفعوان ثم
رفع اليه رأسه بعد زمان وقال : قد عرفت ضعف حالك وركعة مسعاك وخيبة
آمالك » .

« الا أنى أرى لك من باب النصيحة لما بينى وبينك من المودة
الصحيحة أن تتزوج بمدرسة من مدارس الأتراك التى تراك كفؤا لها ولا
نأباك » (كانت مدارس ومساجد فى الوقت نفسه) فعلها أن تفرج عنك
الغمة وتؤنسك عند الظلمة والنساء مصاييح البيوت ولست تحتاج لها الى
شراب ولا قوت » .

وطلب منه أن يختار احدى مدرستين البكيرية أو المرادية .

« فقال قد اخترت البكيرية ذات العمارة الباهرة والقناديل الزاهرة
والمفارش الفاخرة وما أظنها ترضى بى لفقرى وشدة عسرى » .

وذهبوا اليها يعرضان الأمر عليها « فأعرضت عنهم أعراض العلية عن الأرذلين وقالت مسكين المذهب أى مسكين لقد ذبحه أشعب بغير مسكين والله لا أرتضيه سيفاً لقراي ولا اماماً لمحراي ولا بواباً لبابى .

فاخرج باجناح أنت والمذهب قبل أن تصفع وتضرب فخرج المذهب الى طرف الميدان وتمثل بأبيات غيلان :

على وجه مى مسحة من ملاحه وتحت الثياب الخزى لو كان باديا
وأخذ المذهب يوجه اللوم الى زميله على مشورته . وفضل أن يصرف
النظر عن فكرة الزواج وألا يجرب حظه مع المرادية بعدما حدث من البكيرية
ولكن جناحاً ألح عليه وساقه اليها فقدم نفسه اليها فقبلت الفكرة من حيث
المبدأ قائلة « الا أنتى أشترط عليه مفرشتين أستتر بهما وأتجمل وقنديلا
أتضع به ليلة أتأهل » .

فقال المذهب : من هذا كنت أحاذر فلست على تحصيلها بقادر
فالمفارش غالية وليس عندي غير بسط رداعية بالية «

فوبخه جناح على هذا الكلام وأفهمه أن مثل المرادية لا يصح أن
يعرض عليها البسط فطلما تحلت بالفراش وأشار عليه بمشورة يحصل بها
مراده وينتقم مما أصابه من البكيرية « فإذا كان جنح الظلام وقد هجع
النوام انسلت انسلال الخائف الذليل وأخذت منها مفرشتين وقنديل « وتم
للمذهب ما طمع فيه ولما ذهب بالمهر الى المرادية اذا « بسديوان الحرض «
يتوسل الى جارته المرادية أن تعيره مفرشة وقنديلا وأن تطالب المذهب
بزيادة المهر لها فلعله أقدر من المرادية ومن ديوان الحرض على تحصيل
المفارش والقناديل .

وقال جناح للمذهب عاود ذلك المحل فلعلك تظفر بالأمل وقد كانت
البكيرية جمعت من حولها من المساجد القريبة وطلبت منها رأى فى دفع
هذه المصيبة فأجمع رأى المساجد والمدارس على أن يستأجروا لها حارس .
فقال على تحصيل الأجر وعليكم تدريك رجل من أهل الخبرة ، فاختاروا
لها مسجد عقيل وقالوا لها هذا نعم الحارس النزيل .

فلما جن الظلام وهجع النوام أقبل مسجد المذهب وهو خائف يترقب فخرج عقيل ومن حوله من المساجد وحملوا عليه حملة رجل واحد فهرب من بينهم وفر . فما قعد فى مجلسه ولا استقر حتى وصلت به المساجد على الأثر فهتف بالجيران يغيرون عليه فأقبلوا يهرعون اليه وقد اشتد بينه وبين المساجد الخصام وكثر الكلام والزحام . فقال اعلموا يا جيرتى أنى راقد بمكانى وقد ترجح لهذه المساجد أن تأتى جنح الدياجى تريد تسرق بساطى وسراجى فأعينونى على الحق وأدركونى ولما أمزق . فرجع كل من المساجد انى مكانه وعلم أن الظاهر مع المذهب وكل الناس من أعوانه .

ثم اجتمعت تلك المساجد عند البكيرية فى الليلة الثانية ليتفاوضوا فى دفع هذه الداهية فأجمعوا على أن يحفروا له حفرة فى الأرض بقدر طوله والعرض وأن يربطوا الشباك الى جانب الصومعة بالشباك ثم يقبضوه فى محله ليظهر للناس كذب قوله فسكت عنهم أيام ثم أقبل على حين غفلة من الأنام وقد نكر اللباس ووضع الشراريف من فوق الراس فوقع فى تلك الشباك فكاد يشرف على الهلاك فاتبه اليه مسجد « الأبرز » فصاح بالمساجد وسعى اليه « فقال من أنت قال : غريب » .

« فقال قد عرفت أنك المذهب فاصبر وتأدب أما علست أنهم دعسوا لمظاهيرى (١) قطعة من باقى دعامات فصبرت عليها والحساب يوم القيامة » . فأقبلت المدرسة وهى مقطبة ومعبسة وقالت من هذا الذى أقدم الى ساحتى وتعدى على جارتى ، فقال ضعيف ضل المسلك فكاد أن يهلك .

فوثبت صومعتها وارتفعت وصعقت بصوتها وقعقت وقالت أما علست أنى صابرة ومحتسبة ومغمومة ومكتتبة وقد شرع دائرى الأسفل يستأكل لعدم انتباه الناظر على الساحل فاصبر مثلى والا أحربتك حرب حين وغادرتك أثرا بعد عين .

ثم أقبل مسجد الأبيضين من باب دا الروم وهو يهز السلوة ويكثر

(١) مراحبض .

اللوم وقال يا هذا انى قد نسيت الفراش والسراج وصرت مأوى للحمام والدجاج فسلمت الأمر وأغمضت جفنى على الجمر .

ثم أقبل مسجد النورين ودمعه ينهمر من العينين وقال : ما ذلك على اقتحام المهالك والولوج فى أضيق المسالك « هلا صبرت على الشدة وانتظرت انقضاء المدة فانى قد صرت بيتا من بيوت بساتين الحيدوكم من شبكة نصبت فى داخلى للصيد ، أحن حنين المطحن التى فى زاويتي وفى كبدى نار أحر من الجمر بها نشفت ماويتي وخباز السرجين الأخضر فى صرحى والكر اليابس منشور فى سطحى ، ثم أقبل مسجد ازدمر فقال ان طاقتى قبتى الشرقية قد صارت محلا للبرمة والأثفية والمناخل والقذاح والجفان معتادة للاستعمال والطبيخ فى كل أوان « مع أنى من مساجد المؤيد بالله ولكن أقول لا حول ولا قوة الا بالله .

ثم أقبل مسجد على بالصومعة العوجا وقال أقسم بئن يؤمل منه الخير ويرجى أنك المعتدى وقد أوقعك الله فى يدى . ثم وثب الى قذاله وجعل يدوسه بنعاله وقال أما علمت أنى مسجد على بن أبى طالب وقد صرت مظلوما من كل الجوانب فصبرت على ما أقاسى حتى ارتفعت متخذاتى فوق رأسى .

ثم أقبل مسجد معاوية ، ثم مسجد الأخضر ثم مسجد رباط الفندى « .. وقال أما علمت أن الرماد قد جاوز محرابى حتى رجع السيل الى بابى فهلا صبرت مثلى وفعلت مثل فعلى » .

(ثم أقبل مسجد معاذ وقال أما علمت أن مطاهيرى سنة مغلقة الأبواب لعدم فاعل الحسنة)

ثم أقبل مسجد جبال الدين ومسجد بروم ومسجد المفتون ومسجد نوح (وقال أما علمت أنى قد صبرت على ما لم يدخل تحت طوقى وأن مطاهيرى ارتفعت من فوقى ثم أقبل مسجد الطاووس ومعه الشمعة والفانوس وقال هلا صبرت مثلى يامنحوس فقد صار وبقى مطسوس .

(١) جورة المياه •

ثم ما زالت مساجد صنعاء تفقد جيلا بعد جيل ورعيلا فى أثر رعييل
فمنهم من يشتمه ومنهم من يلطمه ومنهم من يتركه ويرحمه وقد صار بينهم
كالأسير قد غلبه البكاء والزفير .

فاجتمع مسجد الهادى ونصير ومسجد ازدمر والزيير وقالوا نخشى أن
هذا يفارق الحياة فأدركوه قبل الممات . فأرسلوا الى مسجد أبى طير فهو
الذى بيده الخير واليه مرجع الكلام .

فقال بعضهم ان مسجد الامام يجبل أن يطلب الى هذا المقام . ولكن
نخرج المذهب من هذه الحفرة ونسوقه الى تلك الحفرة . فلامته المساجد
على مقاله وعرفته ما لم يكن فى باله . وقالوا لو يخرج المذهب من هذه
الشبكة لأورد الجميع مورد الهلكة فلا يخذعناك بالدموع المنسكبة والقامة
المحدودة فانه عفريت من العفاريت الكبار وعند الحرب سابق لا يشق له
غبار . فالصواب الارسال لمسجد الامام هذه الساعة) .

» فعند ذلك أرسلوا لمسجد الامام صلاح الدين رجلا من أهل الخبر
واليقين . فعرف مسجد الامام بذلك وحقق له ما هنالك فأرسل الامام
مسجد موسى بعد أن تحرى عليه وتقصى وقال اذا لم يمثل لك وكرته
بالعصا . ففكر مسجد موسى ساعة فى أمره ثم رفع رأسه الى مسجد الامام
وباح له بسرهم وقال يا مولانا انى لست من أهل الوغى وأنا نخاف أن يفرط
علينا أو أن يطفى فقال له مسجد الامام سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما
سلطانا فلا يصلون اليكما أتتما ومن اتبعكما الغالبون قم معه يامسد الوشلى
وأخبراه أنكما رسولان من قبلى . فان لم يمثل أخذتما بتلابيبه وعبثتما
بجلابيبه حتى يأتى خاضعا ولأمرى طائعا . فنهضا عليه ثم أقبلا به اليه
والمساجد محدقة به من الجهات الأربع خائفة أن يصلوا عليهم ويرجع فلما
قربوا من مسجد الامام طأطأت صومعة المدرسة برأسها للسلام ثم عانقتهم
صومعة مسجد الامام معانقة الألف للام ولما نظر مسجد المذهب الى مسجد
الامام أعلن التحية وأعول فأمر مسجد الامام بتقريبه اليه ليقص أمره
عليه . فقال يامولاي انى من ذوى المروءات وقد ورد الأثر بأقالتهم عند

العشرات . وقد عثرت هذه العثرة ووقعت فى هذه الحفرة وهذا القضا الذى أوقعنى فى هذه المكيدة (١) . فزجره مسجد الامام ونهاه عن هذه العقيدة . فقال بعض المساجد : يامولانا ان الناظر عامله لما عرف باعتقاده . صرف أوقافه بنفسه وعمل باجتهاده .

فقال مسجد الامام : ما أظن العامل الناظر عمل بعلمه ولا اتعظ بمواعظ ابن عمه والا فهذه الأمور لا يجوز أمرنا ولا يسوغها شرعنا (٢) فان هذا المسكين أولى بحقه وانتفاعه بوقفه خير من سرقة فظلم مثله عندى خطيئة كبرى والفقر كاد أن يكون كفرا وامثال أمر الواقف يجب عليه وجوب « ومن يعظم شعائر الله فانها من تقوى القلوب » فاستعينوا بالله واصبروا ان الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين .

ثم التفت على المذهب وقال ان لم تبرهن عن نفسك أمرت بحبسك فقص عليه القصص وما لاقاه من الغصص وتعلق بأهداب الستائر والقفص فرق مسجد الامام لشكواه وعلم صدق دعواه . وقال قد عرفت أن ظلم المساجد عام وأنه قد شمل المأموم والامام فان دعائى خربت من ضعف عمل العامل وكاد بيت « القشام » ينحط فوق المنازل فارجع الى الله مثل أصحابك واصبر على مآذهاك من مصابك .

ثم أمر مسجد الامام بأحضار « المرادية » فى الحال لتمام ذلك المقام . « فأقبلت تميمس فى ثيابها تائهة على أترابها » وتصرف مسجد المذهب بما أوجب تأديبه وحبسه عند الجامع الكبير . واستنع الجامع الكبير لقصة المذهب فقال الجامع الكبير :

« ياولدى قد فسد الزمان وعدم المعوان . انظروا الى ما أنا فيه من

(١) هذه مسألة خلافية بين المذاهب وقد أكثر علماء التوحيد فيها « أفعال العباد » ونرجو أن نشير الى مايرمز اليه هذا النقاش من الخلافات المذهبية وما تجره على الشعب من محاربة فى الأزواق .
(٢) على عادة الأئمة دائما يدفعون عمالهم لكل منكر ويتبرأون منه أمام العامة .

التقصير وأنا الجامع للصغير والكبير ألا ترى أنهم جعلوا بين المسمورة والمنقورة (١) شباكاً من خشب قبيح الصورة لا يصلح إلا لبستان قشام أو لصلب من صبول الأنعام وأنا ممن يستحق الرعاية والتعظيم والمواساة والتكريم فعاملوني معاملة مسجد البوادي ووقفي في كل جبل ووادي وعند كل حاضر وبادي ، وانظر الى مسجد نصير لقربه من بيت ابن الامام كيف قام به غاية القيام وما علمنا له بمزية علينا فيخصص ويفرش من دوننا ويخصص . فاصبر فلنا ركن شديد فعال لما يريد يسهل ولا يهمل فخفف الحزن عن نفسك وسهل . ولكن اذ قد بليت بهذه الشدة ولم تنتظر الى انتهاء المدة فأرى لك ترك مساجد « أزال » فانها مهمة غاية الاهمال ولها عليك حق الجوار ، فتب الى الله من سرقته وارجع عن الاصرار .

فاذا نويت أن تسرق ما يسرق فاخرج الى مساجد البادية جنح الليالي من الخندق فاذا وقعت على شيء فلا تترك والدك من المواساة (٢) فقد عرفت ما كابده من الفقر وقاساه فلعلك تجد عند مساجد « الروضة » حاجتك .

« وأما مساجد الجراف فهي داخلة معنا في الجراف فلا تحدثك الأنفاس بقصد — مساجد الغراس فانها مساجد من له الفضل والأنعام وفي حرمة مولانا سيف الاسلام (٣) فاني لك من الناصحين وعليك من المشفقين . فصاحبها الذي مهد البلاد فاحذر كل الحذر فان من أنذر قد أعذر قبل أن تهدم رواكبك وتكسر ويجعل في كل حصن منك حجر . فقال لا أخالف لك كلام ولا أعصيك في مرام ثم خرج من الخندق في بعض الليالي فسرق قطعة من حصير ونصف فنجال ثم عاد الى الخندق فوجد السيل قد أحاط به وأحرق فوقف ساعة يتأمل . ثم شمر ثيابه وغاص بين الماء ودخل فتهدمت بعض

(١) المسمورة والمنقورة دعامتان في الجامع الكبير يحددان مكان أول مسجد بنى في الاسلام بصنعاء .

(٢) وهذه ظاهرة أخرى مما كان يفعله العمال وما كان يسير عليه الأئمة من مشاركتهم فيما ينهبونه .

(٣) لا يخفى ما في كلام أبي الرجال من التهكم وقد اسنهر سيف الاسلام هذا و احمد بن الحسن بن القاسم « بالظلم والعسف ولاقى منه السجن الأسفل بلاء شديدا .

أركانها بعد ما وصل . « فبلغ مسجد الامام صلاح الدين ما وقع مع المذهب وأنه قد ذهب به الفقر كل مذهب وأنه يريد أن يتغرب لما فاته المطلب . فطلبه اليه ثم أقبل عليه وقال بلغنى أنك تريد مفارقة هذه البلدة (١) لما لاقيته من الفقر والشدة والظلمة والوحدة فقال نعم قد أزمعت على الارتحال » « فقال له قد رأيت أن تتزوج بالمحكمة لتؤنسك فى الليلة المظلمة وقد صارت من جيرانك وهى عارفة بحالك من قديم زمانك . وهى وان كانت خالية خراب من الشبايبك والأبواب فهى كثيرة الأوقاف كاملة الأوصاف .

ففيها من الظرف القديم بقية فى الزاوية

فان غيرها من مدارس هذه الأمة ستجيب عليك بجواب مى على ذى الرملة فقال المذهب بعدما ضحك وتعجب : أما قولك أنها كثيرة الأوقاف فقد صارت مشاركة لنا فى الحراف .

ولم يقبل المذهب مسجد المحكمة فعرض عليه مسجد قبة عامر فقال دعنى وذكر المقابر . وأخيرا عرف مسجد الامام رغبة المذهب فى الزواج بالمرادية فما زال بالأمر حتى تم الزفاف . ١٠

وفى نهاية القصة يوجه أبو الرجال قصيدة تحمل شكوى من المساجد الى أمير صنعاء من قبل المتوكل اسماعيل وهو ابنه محمد الذى تولى الملك بعد وتلقب بالمؤيد نجتزى لك من تلك القصيدة :

شكية من جملة المساجد
فالكل منا للفراش مفتقر	محتسبا لما دهاد مصطبر
والجص لسنا نرتجيه منه	كلا ولسنا سائلين عنه
وانما المطلوب اصلاح الفنا	قبل الخراب والهلاك والفنا
ولا نريد غير حفظ الحرمة	والمنع من دخول أهل الذمة
وتجدر الأبواب فى الخراب	خوفا من الأوساخ والكلاب
ولا نريد الوقف بالاسراف	بل المراد منه بالكفاف
واتفّعوا بفضل الأوقاف	للسادة الأبرار والأشراف
ولا ندع أوقافنا لناظر	يصرفها فى الفرش للمناظر

(١) كما كان يفعل الشعب عندما يشتد الفقر والظلم .

ثم يطلب مساواة المساجد بالمسجد المجاور لقصره وبالقبة المختصة
بوالده المتوكل اسماعيل :

وافرض لنا فى الوقف مثلما لها	فكلنا نعد من أمثالها
وانظر الى جارتها فى « وهب »	كيف أحل وقفها للنهب
وارحم « جناحا » مرتج الأبواب	عارى الجناح أغبر الأهاب
قد منعوه من جميع الناس	لغير جرم ولغير باس
ومسجد القصر بغير ماء	الا الذى يأتى من السماء
ولو ترى مساجد البوادي	ما اكتحلت عينك بالرقاد
وانظر الى الأجزاء والمصاحفا	قد صار منها كل جزء تالفًا
قد أصبحت أوراقها منتشرة	فى كل طاق كالعظام النخرة
قد حوت التصحيف والتركيبا	واللحن فى الآيات والتحريفا
وبادر العامل للأحجار	واختار منها خيرها للدار

وفى النهاية يقول موجهها كلامه لمحمد بن اسماعيل بن القاسم :
وان عدلت عن طريق الصدق وما حكمت بيننا بالعدل
نحننا على الاسلام أى نوح وعوض التعريض بالتصريح

وبعد :

فليسأل أهل صنعاء بعضهم بعضا : ما بقى من هذه المساجد التى ورد
ذكر أسمائها فى القصة . أسر حكمت باسم الدين وادعت حمايته وفى مدى
قرنين من الزمان يختفى فى ظلها عشرات من بيوت الله .

اتنا لا نبحت عن مصير الأوقاف .

ولكننا نتساءل . أين هذه المساجد (١) ؟

(١) مسجد وهين مثبه .

(٢)

فما هو موقف بن الأمير من كل هذا ؟

غالب الظن ان ابن الأمير فى أول الأمر لم يكن مهتما بغير طلب العلم والانكباب على الكتب يستوعبها وينقلها ولا يصرفه عن ذلك صارف حتى عهد عنه أنه كان ينسخ الكتب على ضوء القمر لعدم توفر السراج

ولعل الرحلة الأولى الى الحجاز فى عام ١١٢٢ هـ أو فى عام ١١٢٤ هـ على اختلاف الرواة فى ذلك قد أيقظت فيه هذا الاتجاه الذى لازمه بعد ذلك . فقد التقى بشيوخ من غير المذهب وتلمذ عليهم ورأى نظما فى الحكم قد تختلف فى كثير عن نظام الحكم فى اليمن وقد تتفق فى بعض الوجوه وهو لا شك قد التقى بكثير من حجاج بيت الله وفدوا من بلاد المسلمين وتحدثوا اليه عن ملوكهم وحكامهم وحدثت مقارنات بين هؤلاء الملوك والحكام وتناول المجتمعون قصصا مختلفا ونقدا للعيوب فى مجتمعاتهم وتسجيذا لمحاسن أممهم . واشترك ابن الأمير فى ذلك بالقدر الذى أتيح له حتى اذا عاد الى اليمن وجد البلاد تضطرب اضطرابا عنيفا لم يعهد من قبل . فقد أخرجت الحصون رجالها وتسلم كل زعيم رقاب أتباعه يعدد مساوىء الحكم وظلم صاحب المواهب وما صنعه باليمن وما هو يصنعه ودفعوا القبائل الى ثورة عارمة واشتبكوا مع جيوش المهدي فى حرب طاحنة شملت اليمن من أقصاه الى أقصاه .

وفى مبدأ الأمر كان الشوار اليمنيون يقتتلون مع أنصار الحكم الينيين والبلاد تفقد كل يوم خير بنيتها .

ولا شك أن الشعب كان مخلصا وجادا فى ثورته وكانت الآمال تملأ آفاق البلاد فى أن يتخلص اليمن من المواهب ومن صاحب المواهب ومن وزرائه أمثال الحريبى ومحسن الحبشى . لذلك فان تكتل الشعب قد أذهل الماك فى ذلك الوقت حتى أحوجه الأمر أن يستعين بالعبيد المجلوبين يلبسهم الجوخ الأحمر والطرايش الحمر ويغدق عليهم الأموال بصورة لا عهد لهم

بها ويأمرهم بأن يضعوا السيوف فى رقاب الشعب لا ترحم صغيرا ولا كبيرا
ولا شيخا فانيا .

وينكسر جيش تلو جيش ويلجأ صاحب المواهب الى رشوة زعماء الجند
وينجح هذا السلاح مرحلة من مراحل الثورة ولكن الشعب الغاضب الثائر
لكرامته ما يلبث أن يدفع زعماءه الى المضى فى الثورة لتعود أقوى مما
كانت . ويحس وزراء المهدي بخطورة الموقف فيتآمرون عليه وعلى أبنائه
وينجحون فى اشاعة عدم الثقة بينه وبين بنيه . وفى الوقت نفسه يطلقون من
السجن ابن أخيه القاسم بن حسين « القاسم الرهيب » ليقود جيوش عمه
نحو الثورة والثائرين . وبذلك ضمنوا لهم مكانا عند أكثر القواد حنكة
وأعمقهم دهاء وأقلهم علما .

وينطلق القاسم الى الشمال فى مناورة حربية وسياسية أيضا لا يلبث
أن يعرف منها مكانه فينضم الى الثائرين وينقلب الى المواهب على عمه وولى
نعمته بجيش الدولة وجيش الثائرين معا ليحاصرها وينتزع من صاحبها تنازله
للحسين بن القاسم بن المؤيد فى شوال من عام ١١٢٧ هـ .

وقد كان الحسين عالما فيه غرة وكان القاسم جاهلا يملك الدهاء
والدربة لذلك لم يلبث أن سطا على الامامة فاحتواها بالطريقة التى عرفناها
من قبل .

وترقب الشعب ثمار ثورته خمسة أعوام والقاسم يسير بالحكم الى
هاوية سحيقة .

ولعل بعض المحظوظين من الناس كانوا يلتمسون من تقلب الملك
السابق وقلقه وجنونه كثيرا من الخير ثم ينقلبون به بعيدا عنه وعن مدينته .

ولكن هنا فى عهد القاسم وجدوا رجلا كان أداة القسوة والبطش فى
العهد السابق . - وجدوا حاكما يعرف طريقه الى أخذ الناس بالشدّة ويعرف
أكثر من ذلك كيف يعمل سيفه فى خصومه وكيف يختار أعوانه الذين
يتسلطون على رقاب العباد ويشددون قبضتهم على البلاد .

والتصق بأداة الحكم كل لثيم الطبع شره النفس يعرف كيف يرضى
سيده وكيف يرضى هو من الأموال المغتصبة والحريات المستباحة .
وبرز أمام الناس قضاة سوء يزينون للدولة أفاعيلها ولا ينكرون على
الحكام منكراتهم .

وكانت المعركة بين الثائرين وبين الملك السابق معركة بين الاقطاع فى
أعنف صوره وبين الملك ولكن الشعب بمعدنه الأصيل حول الموقف الى
معركة بين مصالحه هو وبين مصالح الاسرة الحاكمة فلما جاء القاسم رأى أن
أخطر خصومه هم رجال الاقطاع من بنى عمه فأراد أن يقلم أظافرهم حتى
يحرم الشعب من زعامته .

ومن أسف أن الشعب المسكين كان لا يجد له طريقا للثورة الا أن
ينتزع من أفراد الأسرة من يتصدر أمامه . ولا سبيل الى رجل من أبناء اليمن
يقود ثورة اليمن حتى لا يتهم بالكفر والمروق وتستل لسنه من فيه ويؤمنون
جبهة بنوه .

وكان الصراع بين أفراد الأسرة هو السبيل الى أن يتنفس الشعب وأن
يجد له منطلقا الى حياة .

ومن هنا ندرك مدى المعجزة التى حققتها ثورة اليمن الأخيرة عندما
أعادت حق الشعب للشعب .

نقول ان القاسم رأى أن يقلم أظافر الاقطاعيين وأن يحد من سلطانهم
على الناس وكان من بين هؤلاء الاقطاعيين جماعة تسمى الأجبار وهم الذين
حصلوا على تفويض من الأئمة أن يحصلوا من الرعايا فى اقطاعياتهم الزكاة
المفروضة عليهم ويتولوا هم بأنفسهم توزيع الزكاة على مستحقيها وفى
اقطاعياتهم أيضا . وكانت أكثر الفرائض تجبى أضعافا مضاعفة ويبالغ فى
تحصيلها حتى أنها فى كثير من الأحيان تعدو على رأس المال نفسه . ثم هى
فى النهاية تكس فى خزائن صاحب الاقطاعية لا ينال منها فقير ولا يطعم
منها جائع .

وكانت الثورة الأخيرة قد وسعت من دائرة الاقطاع على أصحابه حتى لم يبق للقاسم الا ما كان له من الغنيمة الأولى . لذلك لم يلبث بعد عامين من حكمه أن أعاد اليه وزراء عمه الحريبي والحيشي وعاد معهما أتباعهما من الجلادين وانضم اليهم شرير آخر هو الشجنى .

وبدا للقاسم أن خير ما يبدأ به بالنسبة للاقطاع أن يتولى هو قبض الزكاة من اقطاعياتهم لتكون حجة أمام الشعب وليقطع على خصومه ما يكسبونه فيزداد غنى ويزدادون هم ضعفا .

واختار لهذه المهمة وزيرا من عامة الناس يتسلط على أمراء بيت القاسم مبالغة في اذلال بنى عمه . ذلك الوزير هو أحمد الشجنى . وكان أكثر ما أهم الأمراء أن يكون أمرهم الى الشجنى لا الى رجل منهم . لذلك فقد سلم أكثرهم بتقديم الزكاة الى القاسم : اليه مباشرة دون واسطة هذا الشجنى .

وكانوا في ذلك على قدر كبير من الحكمة والدهاء . فالزكاة كانت في هذا الوقت مجال أحاديث الشعب وتدره في جباياتها وعمالها ومصارفها فليخلصوا من هذه القضية ليخوضوا مع القاسم قضية أخرى يمكن استشارة الشعب بواسطتها .

ولكن القاسم لم يكن همه الزكاة فحسب ولكن الهدف الأصلي هو اذلال الأمراء واستقاط مكائنتهم في البلاد واضعافهم ماديا .

لذلك فقد كان قراره الأخير موجها الى خصومه ومنافسيه أمام أعوانه ومن يسировون في فلكه فقد بقى حالهم على ما كانوا عليه وزادهم القاسم نفوذا وأعمالا .

ونشط هؤلاء الأعوان في خدمة القاسم حتى وصل بهم الأمر الى اغتيال خصوم الدولة والتمثيل بجثثهم . ومن جناياتهم التي أثارت الرأى العام قتل الحسين بن طالب وتمزيقه والقاء أشلائه في المقابر .

وكان بيت اسحق « ويتزعمه أستاذ ابن الأمير محمد بن اسحق » قد حدد موقعه من القاسم من أول عهده بالملك وخاض معه المعارك الأولى بجوار

الحسين بن القاسم . بل كان أبناء اسحق هم موضوع النزاع الظاهر الذى تسلق منه القاسم الى اضعاف جانب منافسه ومن ثم اسقاط حكمه فلم يكن بيت اسحق فى جانب القاسم فى يوم من الأيام .

وبيت اسحق على علاقة وثيقة بابن الأمير ما منهم الا أستاذ أو تلميذ أو صديق وصلتهم لا تنقطع بابن الأمير يلتقون به صباح مساء على موائد العلم وأبسطة الاخاء والصدقة ويكشفون فى هذه اللقاءات الصورة المظلمة القاتمة للقاسم وحكمه مما أكد لابن الأمير ارتباط دعوة الكتاب والسنة بدعوة الإصلاح . وأن القضيتين لا تنفصل احدهما عن الأخرى .

عاد الأمراء يثيرون الشعب من جديد ويضعون أيدي العامة على مكامن الفساد وكانت أقوى صرخة تفجرت فى البلاد تلك القصيدة التى أنشأها ابن الأمير وانكب عليها رجال المعارضة ينسخونها ويثونها فى البلاد لا نجد مجتمعاً الا ترددت على مسامعه ولا مسجداً الا عرجت عليه ينشدها الدعاة قبل الصلاة وينشدونها بعد الصلاة حتى صارت أبياتها على كل لسان . وحتى قام لها القاسم وقعد يبحث عن قائلها ويجد أصحابه فى أثر منشدها . ولا تلقى التهمة على رجل حتى يزج به فى السجن دون تبصر .

وكانت تهمة هذه القصيدة تكفى لأن تلقى الفرع فى القلوب وتثير الرعدة فى أوصال الرجال .

ولنقرأ معا أبيات القاضى على بن محمد العنسى عندما زج به فى السجن متهما بانشائها :

امام الهدى هبنى جنيت جناية بحق الذى أبقاك فى خلقه كهفا
فوالله مالى قط ذنب عرفته وهذا الذى أبدى والله ما يخفى
امام الهدى هبنى جنيت جناية فهبنى لأطفال كطير القطا ضعفا

وقد برع أصحاب الأمير فى أن يكتسبوا عليه كما برع هو فى أن يعدد ألوان الفساد ويشوه الحكم تشويها ليس بعده شيء أو بمعنى أصح أن يصور الحكم تصويراً دقيقاً .

وقد استغل ابن الأمير هذه الفرصة ليعرى بيت القاسم وليكشف عن آثامهم جميعا لا فرق بين القاسم وبين من سبقه ومن حوله . سلكهم جميعا فى جرائم الحكم وفوضى المجتمع وتضليل العامة . والقصيدة واضحة كل الوضوح تفضل أن تقدمها اليك كاملة لترى أى لون من ألوان الحكم هذا الذى تستر وراء الأمانة واختفى خلف مظهر الدين .

ناعى الدين

سماعا عباد الله أهل البصائر	لقول له ينفى منام النواظر
فشقوا ثياب الصبر عند سماعه	وصبوا من الأ جفان دمع المحاجر
ولا تحسبوا هذا وفاء بحق من	تقضى وأضحى فى مضيق المقابر
فقد قام ناعى الدين فيكم مناديا	بأرفع صوت فوق أعلى المنابر
واسمع سكان البسيطة كلها	فما مؤمن للسامعين بعاذر
أوقر على الأسماع أم فى أكنة	قلوب البرايا أم عسى فى البصائر
أيدفن فيما بينكم شرع أحمد	ويهدم من بنيانه كل عامر
ولم ير محزونا عليه كأنما	دفتتم عدوا ففده غير ضائر

أين التناصح

ثكلتكم أين التناصح للهدى	وآين التسامى للعلا والمفاخر
أضعتم وصايا المصطفى وهجرتهم	طريقته فى نهيه والأوامر
وجئتم بأمر منه يبكى ذوو الهدى	ويضحك منه كل رجس وخاسر

عصاة ابليس

فيا عصبة ضلت عن الحق والهدى	ومالت الى أفعال طاغ وفاجر
بأى ملوك الأرض كان اقتداؤكم	فما لكم فى فعلكم من مناظر
أنا فستم الحجاج فى قبح فعله	ففعلكم فى الجور فعل مفاخر
يفديكم ابليس حين يراكم	يقبول بكم والله قرت نواظرى
نبذتم كتاب الله خلف ظهوركم	ولم تعملوا منه بنص وظاهر

من عشرة الى خراجية

خراجية صيرتم الأرض كلها
لذلك الرعايا فى البلاد تفرقت
وقد رضيت بالعشر من مالها لها
فلم تقنعوا حتى أخذتم جميع ما
إذا سئلت عن جوركم وفعالكم
وضمنتهم العمال شر المعاشر
وفارقت الأوطان خوف العساكر
وتسعة أعشار تصير لعاشر
حوته وما قد أحرزت من ذخائر
أجابت علينا بالدموع البوادر

قضاة السوء

فقل لقضاة السوء لا در درهم
أما أخذ الميثاق ربى عليكم
قنعتهم بأخذ السحت منهم وبالرشا
معاذير راجت عند ابليس لا سوى
أما لكم فى نصحبهم سهم قامر
بأن تنصحووا بالحق أهل المناكر
ودافعتهم عنهم بسيف المعاذر
وما هى الا ضحكة فى المسامر

أين تذهب أموال الشعب

وقلتم لمولى الأمر يأخذ مالهم
وما خاف مولاكم عليهم وانما
ويأخذ بالمنقول منهم عقارهم
ويكنز ما فيها ليكوى جبينه
إذا ما عليهم خاف سطوة جائر
غدا منقفا أموالهم فى العمائر
ويعرض عما قد تلى فى التكائر
مع الظهر منه يوم كشف السرائر

العصاة الهاشمية القاسمية

ويا عصبة من هاشم قاسمية
وأحلتكم ما حرم الله جهرة
وجوزتم أخذ المكوس بأرضنا
وقلتم نرى فيها مصالح للورى
تساويتهم فى كل قبح فعلتم
الى كم ترون الجورى احدى المفاخر
وشر ذنوب الخلق ذنب المجاهر
وتوفيرها ظلما على كل تاجر
وربكم أدرى بكل الضمائر
أكابركم فى فعلهم كالأصافر

آكل الزكاة

أأحلتكم أخذ الزكاة وأكلها
ورديتم نص الكتاب بمنعكم
كأحلال أهل السبت صيد الجزائر
فقيرا واعطاء الغنى المكائير

انحلال

أتيتكم بأصناف الضلالات كلها وجئتم بأنواع الأمور المنادر
وأما الجزاءات التي كل ليلة تسمى سيارا وهي إحدى النواقر
ففى « بردقان » أنفقت وحشية وخمر لخمارة وهو لسامر
لقد أثرت هذى القبائح بينكم وقد ظهرت فى كل باد وحاضر

اغتيالات

لما قد رأينا فى الحسين بن طالب وتقطيعه ملقى بجانب المقابر
وبأن لكم من غير شك غريمه ولكن طرحتم فوقه ثوب ساتر
وحاييتم الجانى لأجل قرابة وخشية أن يخزيكم فى المحاضر

الأكابر والأصاغر

أكابرهم قد ميزوا لصلاحهم واغضائهم عن موجبات الأوامر
باقطاعهم ما حرم الله أخذه فسحقا وبعدا بعد ذا للأكابر

خطوب وخطباء

وأشنع خطب ما يقول خطيبكم من الكذب المنشور فوق المنابر
منابر كانت للمواعظ والهدى فما بالها عادت لسخرة ساخر

شرار العمال

ملاؤتم بلاد الله جورا وجئتم بما سودت منه وجوه الدفاتر
ووليتم أمر العباد شراركم وخولتم أعمالهم كل ماكر

عهد المهدي وعهد القاسم

وقد كنتم ترمون من كان قبلكم بظلم وجور قد جرى فى العشائر
وقلتم نرى المهدي قد بان جوره لكل سميع فى الأنعام وناظر
صدقتم لقد كان الظلوم وانما بظلمكم قد صار أعدل جائر
فكل فتى قد كان يشكو فعالة وسيرته قد صار أحسن شاكر

الأوقاف والمساجد والمدارس

وما أخذ الأوقاف قط ولا اشتكت
ولا أمر « الشجنى » يأخذ مالها
فبالأخذ كم قد أغلقت من مدارس
وكم فى زبيد أغلقت من مساجد
وفى آنس كم قرية قد تعطلت
ولو تشتري تلك المساجد باعها
مساجدنا فى عصره كف قادر
فيا بئس مأمور ويا خزى أمر
وكم من سبيل قد غدا غير عامر
وأغلق فيها مسجد للأشاعر
مساجدها عن كل تال وذاكر
بيخص وما بالى بصفقة خاسر

يا وزراء السوء

ويا وزراء السوء يا شرفرة
الى أى حين فى الضلالة أنتم
أما « بالحريى » الشقى اعتبرتم
هو الرأس فى كل الضلالات كلها
ولكنكم جئتم بأضعاف ظلمه
وأخبث أعوان لناء وآمر
جهلتم بأن الله أقدر قادر
ففى فعله للخلق أعظم زاجر
وأول من شاد الضلال لآخر
وزدتم على ما شاده من مناكر

الأجبار

وقلتم نرى الأجبار أموالهم لهم
ولكن دعوا آل الخليفة كلهم
ومن خفتهم من شره وفساده
فما يفعل الدجال مثل صنيعكم
فأفعالكم لو رمت حصرا لعدها
خذوها عليهم يا ولادة البنادر
وأعوانهم من حاكم ومؤازر
(كردمان) (وابن الحاج) أهل العشائر
فلا تشتموا من بعد هذا بكافر
لأفنيتم فى الدنيا مداد المحابر

علماء الدين

ويا علماء الدين مالى أراكم
أما الأمر بالمعروف والنهى فرضكم
فان هم عصوكم فاهجروهم وهاجروا
تغاضيتهم عن منكرات الأوامر
فأعرضتم عن ذاك اعراض هاجر
تنالوا بنصر الدين أجر المهاجر

انذار

إذا كان هذا حال قاض وعالم و حال وزير أو أمير مظاهر
ولم تنتهوا عن غيكم فترقبوا صواعق قهار وسطوة قادر
فما الله عما تعملون بغافل ولكنه يملئ لطاغ وفاجر
وقد أرسل الآيات منه مخوفا ولكن غفلتم عن سماع الزواجر
رماكم بقحط ما سمعنا بمثله وحبس سحب بالأغائة ماطر
أجيبوا عباد الله صوت مناصح دعاكم بصوت ماله من مناصر

(٣)

وتعتبر هذه القصيدة اعلانا لثورة والتزاما من ابن الأمير لما وهب نفسه له فى خدمة الشعب وقد واجه بعد القصيدة موقفا دقيقا كاد يجره الى ساحة المساومات والخصومات الرخيصة . ولكن الرسالة كانت واضحة فى ذهن الأمير ومن هذا الوضوح استطاع أن يخلص من ملاسبات المواقف وأن يسير نهجه لا ينحرف عنه .

كان من رأى ابن الأمير أن القضية بين المعارضة وبين القاسم هى قضية اصلاح لاداة الحكم وأسلوبه ولا يجب أن تنتقل بهم الى قضية التنازع على الحكم نفسه . ونصح القوم وألح عليهم ألا تبدر منهم بادرة خروج على القاسم . فالقاسم كفىل بما معه من مال وأعوان أن يحطم كل خارج عليه وينفرد بالبلاد لا يرتفع صوت فى وجهه .

ثم هى فى تقديره انحراف عن الهدف وابتعاد عن الطريق وان الضغط الشعبى كفىل بأن يؤتى ثماره وأن يجرد القاسم من طغيانه أكثر من القوة المسلحة . وكل حركة نزاع بين متنافسين تستغل من جانب القبائل أسوأ استغلال وقد بلغ الأمر من السوء أن أصبح الزعماء يختلقون المنازعات ويدفعون اليها فان لم يجدوا الى ذلك سبيلا انطلقوا الى أغراضهم الأصلية فى انتهاب المدن والاغارة على بعضهم البعض .

ولكن الأطماع كانت قد أترعت النفوس وحركتها وانطلقت بأصحابها من صنعاء ينازعون القاسم الملك . وآثر ابن الأمير أن يلجأ الى مسقط رأسه فى كحلان بعيدا عن هذا النزاع الشكلى الذى سيسقط طاغية ويحل محله آخر . ويحصد الشعب بين هذين أرواحا بريئة ضللوها وأموالا محرمة اغتصبوها وحرمات مصونة انتهكوها .

وفى الفصل الذى سنتحدث فيه عن علاقة ابن الأمير بيت اسحق سنستكمل هذا الحديث وكيف سارع ابن الأمير بالعودة من كحلان ليواجه القاسم الرهيب فى شجاعة يظهر أمامه وأمام الشعب أنه داعية اصلاح وليس طالب ملك أو سلطان .

كما سنتحدث فى هذا الفصل عن دور ابن الأمير فى الاصلاح بين القاسم وبين محمد بن اسحق والتأثرين معه . ولم تكن هذه القصيدة التى قدمناها اليك هى الوحيدة التى تناولت عيوب الحكم والهجوم على ظلم الحاكمين والتندر بقسوتهم بل واصل ابن الأمير بعدها رسالته ينظم القصائد ويتلقفها تلاميذه وأتباع مدرسته يشرقون بها ويغربون .

ولنضرب لذلك مثلا بتلك القصيدة التى تدل على مبلغ شجاعته وعمق ايمانه بقضية الاصلاح والتى أرسلها لا متخفية ولا مجهولة وانما سارت مع رواتها تحمل طابع صاحبها كما تحمل اسمه وسجلت فى ديوانه بتعليق من ولده الذى تولى جمع هذا الديوان :

سؤال فهل مفت عليه يحزر ويرز برهانا صحيحا وبزير
ويتركنا من قول زيد وعمره ولكن كتاب أو حديث محرر

ويتساءل ابن الأمير عن المصدر الذى يستند اليه الأئمة فى اطلاق هؤلاء العمال وراء أفراد الشعب لا يرون طعاما ولا شرابا ولا حيوانا ولا مالا الا وتقاضوا عليه اتاوات ظالمة جائرة بدون رحمة أو شفقة .

ثم يمضى فى تساؤله :

وما بال اقطاع البلاد لسادة
فياخذها منهم غنى ومتصرف
يغذون منها فى المهود صبيهم
أليس أبوكم لأك فى فيه ثمرة
دعاها لتنفير الطباع غسالة
تحاليتهم أكل الرشاش فكأنما
وساجلتهم عمالكم فى ضلالهم
إذا لم نساعدهم على هفواتهم
وما شأن تقويل (٢) البلاد وانه
أفيقوا أفيقوا وانصحوا أمراءكم

• • • • •
ورب فقير دمه يتحدر
فيمشى فى مرط الهوى يتبخر
فأخرجها المختار وهو مغير (١)
فما بالهم لم ينفروا حين نفروا
يدار عليكم فى المواقف سكر
وقلتم لنا رزق لديهم مقدر
جفونا وأقصونا وللرزق قنوا
لفاقة فى الدين للناس تفقر
عساكم لما أسلفتموه تكفروا

(٤)

اليهود :

رجع ابن الأمير من كحلان ليوجه دفعة الاصلاح الى المجتمع وهى
لاشك نظرة صائبة . فاصلاح المجتمع جزء لا يتجزأ من اصلاح الحكم .
والفساد وحدة مترابطة بين القادة وبين الشعب .

رأى فى صنعاء الخمر تباع علنا والمواخير تغزو الأحياء وتكشفت
النساء بصورة تخل بالحياء والآداب وبالتقاليد والرشوة تمتد الى صغار
الناس وكبارهم والضماير تلفظ أنفاسها الأخيرة الابقية من العلماء والخاصة
آثرت أن تنجو بدينها بعيدا عن المجتمع .

(١) يشير الى تناول الحسين رضى الله عنه نمرة من ثمر الصدقة ولاكها
فادخل النبى صلى الله عليه وسلم أصبعه وأخرج الثمرة من فيه وهو يقول •
كنخ • كنخ يا حسين • وروى عنه عليه السلام أنها لاتحل الزكاة لمحمد ولا آل
محمد وعلل المنع بأنها غسالة لذنوب العباد • وصاحب المذهب يقول أن المضطر
من الآل يقدم الميتة على أكل الزكاة •

(٢) يمنح السيد أو شيخ القبيلة مع قبيلته ناحية من النواحي يتولى جمع
الآداب منها ويفرض عليها الواجبات وينفرد بها وبخبراتها •

ووجد ابن الأمير أن منطلق الفساد من اليهود .

فاليهود بزعاماتهم فى صنعاء يعملون على انهيار المجتمع بسا يعصرونه من خمور ويجعلونها مصدر ربح ومصدر افساد وانهم ييسرون للناس سبل الشر بسا يقدمون لهم فى مواخيرهم من متع حرام وانهم يدفعون نساءهم الى التصدى للرجال فى الأسواق .

وهذه الأموال التى تجمع من الشعب ترتد أسلحة دمار لافساد الضمائر وتقديم الرشا .

وبدأ الناس يقرأون مؤلفات لبعض العلماء المعاصرين تناقش قضية ايهود فى جزيرة العرب . وهل حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ووصيته على فراش الموت باخراج اليهود من جزيرة العرب .

هل صح هذا الحديث أصلا ؟

وهل اليمن من جزيرة العرب ؟ حتى يصدق عليه هذا الحديث ؟

وفى الوقت نفسه استغل زعماء اليهود هذا الاضطراب الذى غطى على المجتمع فأخذوا يستحدثون بيوتا للعبادة لم تكن موجودة من قبل . يقيمونها وينفقون عليها ويعلون أسوارها لتكون لهم حصونا قبل أن تكون لهم بيعا .

وكان الحكم الاسلامى قد ضمن لهم عددا من بيوت العبادة لا يعدو عليه انسان وظلت هذه البيوت قائمة مئات السنين لاتمتد اليها الأيدى ولا يطمع فيها طامع تغير القبائل وتغزو الجيوش وتروح منتصرة منهزمة لايتعرض لها أحد بسوء .

واذا بالناس فى هذا العصر يمسون ثم يصبحون على أعداد هذه الكنائس يتضاعف الى درجة لاتتناسب مع اعداد المتعبدين . واذا بأبنية هذه البيوت تخرج عن طبيعة البيع الى نظام الحصون .

وشغل الناس فى يوم من الأيام بحادثة منكرة اذ دخل رجل سكران الى مسجد من المساجد وحاول الاعتداء على أحد الصبيان .

وكانت ضجة وواجهوا القاسم الرهيب بها وطالبه أنصار ابن الأمير بأن يستأصل أسس الداء ألا وهو إباحة بيع الخمر للمسلمين .

وكان ابن الأمير في هذا الوقت يقوم ويقعد بهذه القضية يناقش العلماء ويشرح للعمامة ويعمق القضية في نفوس تلاميذه .

واستدعى القاسم زعيم اليهود « سالما العراقي » يسأله عن سبب مخالفة الأوامر التي تقضى بعدم جواز بيع الخمر للمسلمين .

فما كان من سالم الا أن قال :

ان اليهود مرخص لهم ببيع الخمر وان الذى أعطاهم هذا الترخيص هو محمد بن اسماعيل الأمير والحسن بن اسحق .

أرأيت الى هذا الدهاء الذى قصد به الرجل أن يستفيد من المحنة .

وكانه لم يكتف بان يدافع عن نفسه ويخلص من هذه القضية لا عليه ولا له ولكنه أراد أن يخرج منها بكسب كبير . ألا وهو القضاء على ابن الأمير وأضاف اليه الحسن بن اسحق لعلمه أن القاسم يتمنى أن يوقع بأحد أبناء اسحق فى قضية شائنة مثل هذه القضية .

ولتعلم أن سالما العراقي لم يكن يعمل وحده فى المؤامرة بل كان معه رجال لهم خطورتهم فى بلاط القاسم وسرى بعد أن سالما كان يتحكم فى حاشية القاسم الى أبعد مدى يصدقه عقل .

عندما علم الأمير بما قاله شيخ الطائفة سارع الى القاسم قائلاً قد اتهمت أمامك اننى أفتيت ببيع الخمر ولا سبيل لمعرفة الحقيقة الا بمواجهة هذا الكاذب الشرير .

وفى الفترة بين هذا الحديث وبين استدعاء سالم أخذ ابن الأمير يوضح للقاسم عدد الكنائس التى كانت لليهود من قبل وعدد الكنائس التى استحدثوها .

وطلب من القاسم أن يواجه شيخ الطائفة بسؤال واحد أولاً وقبل أن يسأله عن القضية الأصلية وهو :

كم عدد الكنائس فى قريتكم ؟
وجاء الرجل ووجهه بالسؤال وأخذ يعدد أسماء الكنائس وأماكنها غير
مدرك ما يخفى وراء هذا السؤال .

وهنا بادر ابن الأمير يقول :

ها قد رأيتم كم عمروا ؟

وأدرك سالم دقة الموقف ومغزى السؤال وما يكمن وراءه . وأفقدته
المفاجأة دقة التفكير وضيعت عليه خطته فأخذ يغالط ويداور .

وانتهز الأمير الفرصة وسأله :

(أنت قلت أنى أفيتتك بجواز بيع الخمر (١))

ففى أى وقت لقيتنى وأفيتتك ؟

أو كتبت لك بخطى فتوى ؟)

فتردد الرجل ثم ألقى التبعة على غيره قائلاً :

(قال لنا عالمنا) .

عندئذ لم يملك القاسم الا أن يأمر بسجن شيخ الطائفة فطالب ابن
الأمير بزيادة العقوبة بأن يقيد .

ولم يكن الأمير يهتم بقيد سالم أو اطلاقه وانما أراد أن يدلل على
نفوذ الطائفة بالرشا والى أى مدى يصلون الى ما يريدون .

وقد واجه القاسم صراحة بهذا فقال ان هذا الرجل يبذل الأموال
لمعاونيه وسيراجعونكم بشأنه ويتشفعون له .

وأفكر القاسم هذا الادعاء .

وخرج ابن الأمير واثقا مما قال بعد أن أصدر المتوكل أحكامه القاطعة
فى كل ما يتصل بالقضية .

(١) ديوان ابن الامير .

وما كاد ابن الأمير يصل الى المسجد حتى تناهى اليه أن المتوكل أمر
بفك القيد ثم تساقطت الأحكام حكما اثر حكم قبل تنفيذها . وكأن لم تكن
جريمة ولا قية عقاب .

(٥)

سلطان الدولة :

وقد يظن ظان أن الامام كان حاكما لليمن يمتد سلطانه على البلاد
ويتربع على عرش حكومة مركزية تسير دفعة الأمور وتوزع الخدمات على
انبلاد وتجبي اليه الأموال من الأطراف وتحاسب المسمى وتكافىء المحسن
وتحصى الحدود وتؤمن الطرق وتنتصر للضعيف وتلزم القوى الحدود التى
رسمتها .

ولكن الحقيقة التى تتضح لكل ذى بصيرة أن الامام كان أشبه بشيخ
الطريقة أو برأس عصابة على حد تعبير ابن الأمير . ليس له نفوذ أكثر من
صنعاء وما اليها أما بقية البلاد فموزعة على الاقطاعيين .

فان كانوا من أوليائه أرسلت اليه النذور وبعض الهدايا وعين فيها
القضاة والعمال يحددون مرتباتهم حسب قدراتهم على ابتزاز الأموال
وضرب الرعايا بعضهم ببعض واستغلال الخصومات لمصالحهم الشخصية
فاذا أحسن الامام من أحدهم كسبا وفيرا وزيادة فى المدخرات قدر عليه مبلغا
من المال فان أداه أعاده الى عمله وأن تأبى عليه حبسه وباع وظيفته الى
آخر أقدر على الأداء منه . .

واذا كان صاحب الاقطاع خارجا على الامام مستعصيا عليه لم يملك
من أمر المنطقة شيئا سوى بعض النذور تتسلل اليه خفية .

والزكاة فى كلتا الحالتين يتقاضاها عمال صاحب الاقطاعية يحددون
غلة الأرض وعدد البقر والغنم ويحددون مقدار الحق المفروض .

ويضيفون اليه مقررات بمسميات غريبة لا يملك المواطن منها فككا .
حتى زاد الظلم وعجزت الأرض عن أن تفى بحاجات المواطن العادى وبأطماع

سأدته من الاقطاعيين ففارق الناس أراضهم وديارهم يلتسبون الحرية والحياة فى أرض الله الواسعة .

هذا ان كانوا من سواد الناس اما ان كانوا من أصحاب النفوذ وذوى الكثرة الكاثرة التى تقاتل وتشترك فى سوق المنافسة ويلتمس رضاها من الأصدقاء ويخشى بأسها من الخصوم فانها تسعى للحصول على اقطاع مثل اقطاع السادة تعيش به وتحصى أتباعها فى ظله .

وان لم تستطع تحصنت فى القلاع والحصون تعدها للهجوم والدفاع . وأصبحت هذه الحصون تقليداً بين القبائل يبالغون فى اشادتها ويختارون لها الجبال المنيعه التى تسيطر على الطرق وتتحكم فيها ويسامون بها صاحب صنعاء .

وبلغ الهوان بالملك المتربع على العرش ان كان يدفع رواتب — وان شئت فسمها اتاوات — لأصحاب هذه الحصون حتى يضمن ولاءهم .

وكانت الحصون التى تهدد أمن الطرق ويضج الناس منها بالشكوى ويحس الامام أن لامناص له من التعرض لها ولأصحابها كان يتحايل هو وأتباعه على مساومة صاحب الحصن حتى يشتريه منه ثم يقوم بهدمه كما فعل المنصور حسين بـحصن « قصبه » الذى كان يهدد طريق الحج فاشتراه من صاحبه بالف ريال . ثم هدمه .

وما كاد العباس يعلى العرش بعد أبيه حتى سارع صاحب الحصن الى اعادة بنائه واعادة التهديد من أبراجه .

وانصرفت أكثر القبائل عن الأرض والزراعة والرعى وأصبحت مصادر الرزق شيئاً آخر غير هذا .

أصبح الرزق يلتمس من الحروب الدائرة بين الطامعين فى الملك فاذا لم يكن هناك طامعون فلتكون القبائل منها فرقا تغير وتسعى للغزو وسلب المدن والقرى وانتهى الأمر الى أن أصبحت هذه الاغارات أسلوباً للحياة وموسماً لحصاد الرزق اغتصاباً من عباد الله الوادعين .

وتبعاً لكل ذلك استهان الشعب بقانون الدولة وأصبح للقبائل قانونها الذى تحكم به وتفض به منازعاتها وتحل به مشاكلها وتلجأ اليه فى معاملاتها وسميت هذه القوانين « أحكام الطاغوت » .

ولا تظن أن الشعب كان راضياً عن هذه الفوضى المدمرة وإنما كان يئيل هذا الذى هو فيه لأن أى قانون وأى نظام خير من نظام ينفذ اليه من صنعاء ومن حكام صنعاء .

لقد كان حكم الطاغوت على بدائيته خيراً من أحكام يقضى بها قضاة صنعاء .

وكان الاقطاعى من شيوخ القبائل خيراً للناس وأخف وطأة عليهم من اقطاع السادة .

وكان شيوخ القبائل فى حكمهم أقرب الى ذويهم من صاحب صنعاء ووزرائه وعماله .

وقد كان ابن الأمير يهدف بحركة الاصلاح التى نادى بها أن يبعد هذه الأسر المتكاملة على الحكم . لأنه يعلم أنها أساس البلاء فى اليمن .

وان لم يستطع فى ذلك الوقت أن يجاهر الناس بهذا رأى فما ذاك الا لأن المجتمع لم يكن مستعداً لأن يتقبل هذا التغيير الأساسى .

وقد مضى على الناس مئات السنين تصب فى آذانهم فكرة الامامة لأبناء فاطمة الزهراء — رضى الله عنها — حتى أصبح بعيداً عن الأذهان مستعصياً على الخواطر أى رأى يخالف هذا الرأى .

وليس بغريب على شعب اليمن أن يعيش فى هذا الوهم . فقد استغل محمد على ثورة الشعب المصرى فى أعقاب الحملة الفرنسية لما وجد الفكرة السائدة أن يكون الوالى تركيا أو مملوكاً .

وبعيد كل البعد أن يكون مصرياً من أبناء مصر .

وسطا الجندى المجلوب من « قوله » على ثورة الشعب فشرذ زعماءها وعلى ملك مصر فتقلده وورثه أبناءه من بعده .

وعندما كشف الغطاء عن العقول وأزاحت الغشاوة عن الأبصار قامت ثورة يوليو الرائدة وهب الشعب يساندها بكل قواه .

بل كانت هذه الثورة تعبيراً في أساسها وهي الطليعة الثورية لشعب مصر العظيم .

فهل يلام شعب اليمن في ذلك العصر أن بعدت عن متناوله هذه الفكرة واستنكرها .

وهل يلام ابن الأمير معه أن سلك إلى أهدافه طرقاً قاصية . وإن عسى على أصحاب النفوذ ومالكى البلاد غايته التى يعمل من أجلها . وإن اضطرب فى كثير من الأحيان إلى أن يجامل ويداور ويمدح ويسوق الكلمة الطيبة تمضى وراءها العقيدة الثابتة التى لا تتزعزع . ألا وهى القضاء على الأسر القاسمية خاصة وأسرة السادة عامة واقصاؤهم عن الحكم . ولو كان الطريق إلى ذلك أعمال السيف فيهم حتى يأتى عليهم جميعاً .

لهذا لم يتبع ابن الأمير أبناء اسحق ولم يتحالف مع القاسم بل ظل أمة وحده يوضح للشعب أن هؤلاء وهؤلاء عصاة يمتصون دماءهم ومتفقون متحالفون ، ويزهقون روحه وهم متنازعون متنافرون .

انه يقرع الرءوس بصوت مدو حتى تنفض عنها ما رسخ بها من أباطيل وما عمق فيها من ترهات .

وبيت اسحق قد أزعجه ألا يلحق بهم ابن الأمير فى هجرة شاطئ عندما خرجوا فى عام ١١٣٦ هـ ولذلك كتب اسماعيل بن محمد بن اسحق تلميذ ابن الأمير إليه ليعاتبه على هذا التخلف .

ورأى فيها ابن الأمير فرصة ليبين لاصدقائه رأيه واضعاصريحا لا لبس فيه ولا موارد ولا خفاء .

وليوضح للشعب فى الوقت نفسه حقيقة هذه العصاة التى تقتتل على امتلاكه .

لذلك فهو يشرح لتليذه أن تجربته مع الحكم والحاكمين أكبر وأعمق
من أن تسوقه الى التورط معهم فيما هم فيه :

إذا قد حبلت الدهر أشطره وقد جربت خائن أهله والوافي
ونظمت فيه وفي بنييه قصائدا متغايرات أبحرا وقوافي
سحقا لأبناء الزمان فانهم ما فيهم صافي الوداد مصافي
ليس من هدى يابني أن أبعد القاسم لأهل محله محمد بن اسحق .
والحاشية هي الحاشية والولاء والقضاة هم القضاة .

وابن الأمير لا يتخلى عن أدبه الجهم الذي عهد عنه عندما يناقش الولد
قضية أبيه :

وذكرت من يدعو الى نهج الهدى ويريد منه حياة ربع عاف
وأنا لا أنكر فضل أبيك ولا توفر شروط الامامة فيه .

لكنه يدعو أناسا مهمهم في خصب عيشهم وفي اسراف
صم عن الداعي وان قالوا له قولا ففعلهم لذاك مناص
قوم عن العليا قعود جثم ليسوا بأهل صفائح وصحاف
لا يغضبون على الشريعة ان غدت منهدة الأركان والاكشاف

ولا تظن أني أقصد بهؤلاء جماعة غير أبناء عمنا الذين تعالوا على
الناس جهلا وترفعوا عليهم بغيا وطغيانا وجعلوا تعاليم الاسلام وراءهم
ظهريا .

الاسلام الذي يسوى بين الناس جميعا ويفاضل بينهم بالتقوى
فحسب .

الاسلام الذي حارب ترفع الأسر وتعالى فرد على فرد ، أن ابن الأمير
يحدد من يقصدهم صراحة بآيياته السابقة هؤلاء الذين كل همهم الخصب
والاسراف ولتكن سرقات وليكن النهب والسلب والرشاوى وكل موبقات
الأرض في سبيل الوصول الى الخصب والاسراف .

هؤلاء الذين يقولون ما لا يفعلون .

هؤلاء الذين قعدوا عن كل مكرمة ، لا علم ولا حرب .

هؤلاء الذين يزعمون أنهم أرباب الشريعة وحماتها مع أنهم لم يغضبوا
لها فى يوم من الأيام .

أتدرى يا اسماعيل من هم هؤلاء :

أعنى بهم من يزعمون بأنهم رأس الورى والناس كالأخفاف
وتزعمون أنكم خرجتم لنصرة الهدى وتطهير البلاد من الفساد وأنا
أسلم لكم بما تزعمون ولكن :

قل لى بأى عصابة يرجى بها نصر الهدى ونكاية الألفاف
هذه العصابة التى التفت حولكم وتلك العصابة التى التفت حول
القاسم .

وعصابات أخرى تترقب نتيجة المعركة بينكما لتشب أو تختفى :

ان كان عندك من يدير عليهم كأس الردى بالسمر والأسياف
من دون هتك محارم وأرامل ومدائن ومعازل وضعاف
فأدره لا تخشى عليهم رأفتى مثلى يحن على الجهول الجافى
انصح أباك يا بنى أن يسارع بالصلح مع القاسم وأن يجنب البلاد
ويالات ما هى مقبلة عليه . وكفى تضليلا على الشعب .

اتنا يا بنى عصابة .

عصابة كثر عددها حتى زادت على الآلاف .

عصابة تكالبت على خيرات الشعب وأرزاقه .

عصابة لم تقنع بأكل ما حرم عليها من أموال الزكاة .

بل عدت على ما يملكه الانساز المسلم تنتزعه منه كرها بلا تعفف بلا
استنكاف .

انى ومن بيت الامام عصاة فى العد قد زادوا على الآلاف
مسترزقون من الرعايا ليتهم قتعوا بأكل فرائض (١) الأصناف
بل يأخذون من الرعايا كل ما يحوونه كرها بلا استتلاف
يابنى : انها ليست قضية التقى الورع الذى يلى الملك ويتربع على
العرش ولكنها مشكلة الأسرة عدد أفرادها آلاف مؤلفة يملك كل أفرادها
بتملكه ، ويتحكم كل أفرادها بتحكمه .

هل يقبل هذا التقى الورع أن يتربع على العرش ويحرم ذوى قرباء ؟
واذا قبل هو هذا فهل يقبلون هم ؟
لماذا اذا قاتلوا من حوله وملكوه ؟

انه ان فكر فى هذا أشعلوا فى الأرض نارى فتنة وخلاف
أتظن من منكم يلى أمر الورى يلقي قرابته بلا استخفاف
لا بل يقول عطاهم لى لازم بل ذلك المقصود فى استخلافى
اعطى الصغير مع الكبير معما ذات الخمار وربة الأشناف (٢)
واذا أراد خلاف هذا أشعلوا فى الأرض نارى فتنة وخلاف
قسما لقد فسد الزمان وأهله فالكل عن نصر الهدى متجافى

وقد كان صاحبنا صادق النظرة ملهم الفكرة عندما بعد بنفسه عن سوق
الفساد والكساد . فما هى الا أيام حتى جاءت، الأخبار تروى أن جيوش ابن
اسحق قد عدت على الصلبة وبلاد حفاش .

وكان النهب والسلب واتتهالك الحرمات ووزعت الأموال المنهوبة
وبيعت الذخائر المغتصبة أمام أصحابها وهم يعولون ويولولون دون أن يرق
قلب أو يرحم راحم .

(١) مصارف الزكاة محدده بنص كتاب الله وقد حرمت الزكاة على محمد
عليه السلام وآل محمد ان كان هؤلاء من آل محمد .
(٢) لا يعجب الفارىء ، فقد كان نساء السادة تحصل على اقطاعيات مثل
الرجال .

ويسارع ابن الأمير الى تلميذه يعاتبه فى الظاهر على ما جنى هو وذووه
ثم هو فى الحقيقة يؤدب تلميذا كان محط آماله ويوضح للشعب أن الدائرة
مفرغة دائرة هذه الأسرة وعلى الشعب أن يخرج منها .

وابن الأمير يتناول هذه المحنة فى قصيدته بطريقة تغنيك عن البحث عما
كان يفعل فى كل حركات النهب والسلب والاعتداء .

وما حدث فى عهد القاسم الرهيب على أيدي بيت اسحق هو نفسه
ما حدث فى عام ١٩٤٨ على يدى الطاغية أحمد حميد الدين .

ولنسمع الى ابن الأمير :

عتاب

أمثلك يرضى بارتكاب العظائم ونهب الرعايا وانتهاك المحارم
كانك لا تخشى ملامة لائم ولا فى الردى الجارى عليهم باثم

ماذا فعلتم بأموال الرعايا الآمنين

أيقسم أموال الرعايا تجاريا	وأنت بمرأى كل طاغ وظالم
تداولها أيدي الطغاة كأنها	تراث أيهم أحضرت للتقاسم
أبن لى أبن لى أى ذنب لمسلم	مصل لرب العالمين وصائم
غدا ماله نهباً وأضحى مروعا	وأصبح يذرى دمه كالغمام
يرى ماله فى كل كف مفرقا	يباع بأدنى سومة لمساوم
وأمواله كانت عليه عزيزة	معظمة مدخورة للفظائم
وكان غنيا آمنا متنعما	فأمسى فقيرا خائفا غير طاعم
تضيق عليه أرضه وسماؤه	كأن بلاد الله حلقة خاتم

يا من خرجتم لنصرة الهدى

أنهب الرعايا دأب من ينصر الهدى	وترويعهم فعل الهداة الفواطم
واخراجهم من أرضهم وديارهم	فعال ذوى التقوى وأهل المكارم
شكلت الهدى ان كان ذا فعل أهله	وذقت الردى ان كان ذا فعل حازم

أبعد أن علمتك تصبح رأس عصابة ؟

ضياء الهدى لهفى على دينك الذى	سمحت به جودا ولا جود حاتم
اتنفق ريعان الشيبية والصبيا	على طلب التحقيق من كل عالم
وأحرزت فيه ما تريد وثلثه	وصرت فريدا فى العلا لم تزاحم
ومن بعد ذا أصبحت رأس عصابة	أبليس أضحى همهم فى المظالم
يرون اتتهاب العالمين غنيمة	وأطيب مغنوم لأخبت غانم

ما بهذا ينصر الدين ؟

بهذا أردتم نصر شرعة أحمد	وانقاذ أهل الأرض من كل ظالم
فصرتم عليهم نقمة عرفتهم	بان ولاية الجور رحمة راحم
وحببتهم أفعال من كان جافرا	لقد صار مشغوبا بها كل غارم
اتهجر قول الله فيما أتيتـه	وتؤثر قول الشاعر المتقادم
(ومن عرف الأيام معرفتى بها	وبالناس روى رحمه غير راحم)

يا لضيعة نصائحى لكم

ويا طالما شافهتكم بنصائحى	وبحت بما تلقونه غير كاتم
وتابعت نصيحى بعد أن شطت النوى	بشر ونظم معجز كل ناظم

لو كان هذا يقضى على الظلم والظالمين

ولو كنت أدرى ان فى مثل فعلكم	زوالا لمن فى الأرض أظلم حاكم
لكنت وحق الله أول ناصر	وكنت لربع الجور أول هادم

مصيبة العصر

ولكن خبرنا الناس من قبل خبركم	فما همهم الا اتباع الدراهم
فلو يعقل الدينار صلوا لأجله	وصاموا وقالوا أنت رب العوالم

توبوا عن الأطماع

أما آن من بعد الذى قد رأيتم	لكم أن تعودوا عنه عود مسالم
وان تتركوا ما قد جنيتهم وتقبلوا	على توبة تمحو عظيم الجرائم
إذا اعتل دين المرء داوته توبة	فما غيرها للدين أشفى المراهم

وتلزمنا هذه المناسبة الأليمة أن نتطرق الى موضوع لا نملك أن نتجاهله فى هذا البحث .

كان الأئمة يدفعون أتباعهم لمثل هذه الجرائم وعندما ترتكب يديرون أعينهم عنها تغافلا حتى اذا راجعهم مراجع غاضب لله ولدينه أنكر الامام وبسمل وحوقل وقال « لا نرضى بهذا » .

ودرج كتاب التاريخ على تجاهل هذه المآسى فان اضطروا الى ذكر واحدة منها حرصوا على أن يسجلوا عقب كل مأساة « ولم يرض الامام » « وفعلوا هذا دون رضى الامام وعلمه » .

(واتتهبت (١) الصلبة وبلاد خفاش من غير ارادة الأمراء لذلك) .

وفى حصار صنعاء أيام المنصور جد الطاغية أحمد كانت المرأة تتسلل من المدينة التى أقفرت من الطعام وقد صحبت معها وليدها فلا تسلم بنفسها ولا تسلم بما معها من جنود المنصور ثم يقول صاحب المقتطف « لم يرض الامام » .

وفى محنة صنعاء عقب ثورة ١٩٤٨ التى فعلت فيها القبائل الأفاعيل كان الطاغية أحمد يقول « ونحن لم نأمر بهذا » وروج بعض الأذئاب هذه الأكذوبة .

ولم يعلموا أو يعلم طاغيتهم أن الناس أطلعوا على أوامر بخط أحمد فى أيدي شيوخ القبائل يبيح لهم فيها صنعاء .

ولكن اسماعيل بن محمد بن اسحق كان أكثر شجاعة من هؤلاء ولم يستطع أن يغرر بأستاذه .

فهو يعترف بالجرائم ويفلسف لها .

يدعى انه يحطم ظلما بظلم .

ويقضى على الضلال بنهب وانتهاك الحرمات .

(١) نشر العرف نقلا عن نفحات العنبر .

فيجيب على قصيدة ابن الأمير بقوله :

أيمكن أن ينهد ركن المظالم	بغير القنا والمرهفات الصوارم
وتذهب آثار الضلالة في الورى	بدون انتهاب وانتهاك محارم
محال زوال الظلم من دون أن يرى	معرة جيش الحق عند التصادم
وانى أرى نصر الهدى ووقوع ما	به لمت أمرا صار كالملازم
فما كان من أجنادنا مثل ما مضى	على الناس فى عصر مضى متقادم
ولا بد من هذا لمن رام فى الورى	زوالا لمن قد صار أظلم حاكم
فهل جاز تضمين الرعايا وجعلهم	خراجية ظلما بغير تحاشم
وأن يتولى أمرهم متقلب	شديد على مظلومه غير راحم
يقلد أحوال الرعايا عصابة	يرون اتباع الجور ضربة لازم
تمالوا على ظلم العباد فقصدتهم	وان أغضبوا الرحمن جمع الدراهم

وكان أقسى شئ على نفس ابن الأمير هو الاعتداء على الوادعين
وانتهاب المدن والقرى .

ولولا ان حركة النهب هذه أصبحت تقليدا لكل جيش لكان لابن
الأمير موقف آخر من الحكم والحاكمين فى هذا العصر . لذلك فقد سارع
بالتوسط فى الصلح بين بيت اسحق وبين القاسم حتى أتمه ورجعت الأمور
الى ما كانت عليه .

ولم يكن انتهاب المدن والقرى والأسواق قاصرا على الفترة التى تشور
فيها المنازعات بين أفراد الأسرة .

فطوال عهد المهدي صاحب المواهب والبلاد تتعرض لهذه المحن وتلقى
منها ما تلقى . وقد رأينا ما صنعه أبناء المهدي وجيوشهم الجرارة بمدينة
سعدة وعدم انكارهم على الجنود ما يرتكبون حتى هبت القبائل تشار
لكرامتها .

ثم هاهى قبائل المشرق ثور لتنتقم من الوزير محسن الحبيشى فتجمع جموعها ثم يخرجون مظهرين (١) ارادتهم أخذ مدينة قعطبة وما اليها حسب العادة فى خروجهم لنهبها . فاقتهبوا فى طريقهم ما وجدوه من الأنعام وغيرها . ووصلوا الى ميتم وجبل بعدان .

وفى نهار السبت عاشر الشهر قصدوا مدينة اب فحملوا عليها بسيوفهم وبنادقهم حملة رجل واحد .

وكان العامل عليها وعلى مدينة جبلة السيد حسن بن محمد بن عبد الله المحرابى غير عامل بما يجب من الحزم والثبات .

فقام أهل المدينة بحفظ بابها وغفلوا عن سورها الضعيف فدخلت قبائل المشرق الى المدينة من بعض السور والباب .

وقتلوا من وجدوا فيها من كبير وصغير ورجل وامرأة بسيوفهم ولم يحترموا أحدا من المسلمين فاستولوا على مقدار ثلثى المدينة قتلا واحراقا بالنار وخرابا ونهباً . وأخذوا جميع ما فى سوقها وخان البانيان والمساجد وقتلوا كل من وجدوه غير مستسلم .

(واستمرت الحرب فيما بينهم وبين من حمى داره بالبندق) .

وأما سائر المدينة فاستولى عليها قبائل المشرق ، واستمرت الحرب بالمدينة يوم السبت وليلة الأحد ويومه . حتى ظن الظان أنها قد قامت القيامة .

والحروب التى دارت فى نهاية حكم المهدي والتى طالت حتى يئس الناس من نهايتها ولم يكن الأمراء يقدمون للجيش أموالا وانما يقدمون لهم صكوكا وأحكاما تبيح لهم ما فى البلاد من أموال وعتاد .

وها هو عهد القاسم ترى فيه أبناء اسحق يخرجون وتنتهب الصلبة وبلاد حفاش .

ويفسد ما بين القاسم وابنه الحسين الذى تلقب فيما بعد بالمنصور ويجر

(١) بقبة المريد .

الحسين ورائه كثيرا من القبائل تنتهب وتعبث . ثم ينتهى عهد القاسم وتشور الفتنة من جديد بين المنصور وبيت اسحق وتسقط بلاد بين برائن المتنازعين وكانت الأمور تهدأ حيناً من جانب أسرة القاسم فتهد القبائل بحكم العادة لتغير وتغنم .

ومن هذه الغارات التى كانت تفرع الشعب الوادع المسكين وتعدو على مقدساته تتعرف على مدى تفكك الدولة وضعفها وان سلطانها لا يكاد يمتد بعيداً عن صنعاء .

واستكمالاً لحركة النهب هذه فاتنا سنتتبع منها ما كان ذا صلة بابن الأمير سواء ما ارتبط بالنزاع على الحكم أم كان خالصاً لوجه السطو والنهب .

وأول هذه الغارات كانت بتحريك القبائل بزعامة الحسين لنهب صنعاء . كان المتوكل يفرق بين ابنه أحمد والحسين منذ الصغر حتى أفسد ما بينهما .

ولما تولى الملك خص ابنه أحمد بامارة تعز واختص الحسين بعمران وما اليها .

وفرق بين الامارتين فى الخيرات والنفوذ .

وأخذت الأمور تتعقد بين الحسين وأبيه والصلات الأسرية فى تقاليد الأسرة هشة رقيقة ما أيسر أن تنقطع وتنبذ . وقد فعل الحسين ذلك فألب القبائل من حوله وسار بها متجها الى صنعاء لا تبقى ولا تذر .

وكان الشعب الوادع المسكين يسابق الجيوش الجرارة فى الوصول الى صنعاء يلتبس فيها الأمن والحماية .

وفى أول الأمر لم يكن قد شاع بين الناس أن الحسين بن القاسم هو الذى يريد رأس أبيه .

وبلغت قسوة الموقف على الناس حدا لا يطاق .

سيول من المواطنين لا تنقطع عن صنعاء صباح مساء يسوقون
حيواناتهم وأطفالهم وما استطاعوا حمله .

وشرطة القاسم وعمال المكوس يساومون الناس على ما فروا به من
أوطانهم .

وتسمع الناس عن حركة لتجميع جيش أو استنفار الرجال ليدافعوا عن
أنفسهم أو ما يشعر بأن الامام المتوكل على الله قد غضب لما يفعل برعاياه .
لا شيء من ذلك .

وهناك يتحرك ابن الأمير فيجمع العلماء والأعيان في « قبة محسن » عند
باب السبحة ويشرح لهم الموقف ويحملهم واجبهم في مثل هذا الظرف الدقيق
الخطير . وألزمهم بأن يتجهوا جميعا الى القاسم لمناصحته .

ويذهب الجميع الى قصر القاسم واذا بالطاغية الرهيب يخاف لقاء
العلماء فأخذ يستدعى بعض خلصائه يشاورهم ويستفتيهم كيف يكون الحديث
والجواب على هؤلاء .

حتى اذا اطمأن لموقفه استقبل العلماء يتزعمهم ابن الأمير . ومن أسف
أن العلماء كانوا يرتجفون خوفا من القاسم لذلك عندما سألهم القاسم : عن
موجب حضورهم اليه قال أكبرهم سنا وأعلاهم مكانة هاشم بن يحيى
الشامي :

(الولد (١) محمد الذي جمعنا فيتكلم) .

ولم يكن ابن الأمير ليتخلى عن مسئوليته في هذا الموقف ولم يكن
ليتخلى عن أدبه والتمسك بالتقاليد العظيمة التي يسير بها المجتمع فأجاب بأنه
هو الذي جمعهم حقيقة (لكن في المقام من هو أسن منى وأحق بالكلام) .

(فتكلم هاشم بأن هؤلاء القبائل قد أفزعوا الخاص والعام وأخافوا
برعبهم الرجال والأطفال والأرحام فلا عذر عن جهادهم أو اصلاحهم) .

(١) الولد هنا كلمة اعزاز في عرف اليمن ويقصد بها الابن والولد هو محمد
ابن اسماعيل الامير .

ثم تناول الحديث ابن الأمير بعد ذلك فوضع القاسم أمام مسئوليته .
ويكتشف الباحث من هذا الاجتماع أن القاسم كان يعلم بخروج ابنه
الحسين على رأس هذه القبائل ولم يكن المجتمعون يعلمون هذا الخبر .
وكان السر في سكوت القاسم انه أراد أن يستدعى ابنه ليوقع به .
الابن يريد رأس أبيه والأب لا يختلف شعوره عن شعور ولده .
وأخيرا أقنعوا القاسم بأن يكتب لابنه يدعو له للولاء والبر به والصلح
معه .

وخرج ابن الأمير بالكتاب للقاء الحسين ولم يلبث أن يعود . وليكتشف
أنها مؤامرة حتى يتمكن القاسم من الوثوب على القبائل في غفلة منهم .
ودارت الحرب وعرف القاسم أن النتيجة غير مؤكدة فأعاد حديث
الصلح بلسان ابن الأمير .
وما زال الأمر يتردد بين الحرب والصلح حتى أقنع الأمير الحسين بأن
يلتمس رضا أبيه ويعود الى عمران .
وقد فعل .

وتوفي القاسم في رمضان عام ١١٣٩ هـ واثارت الفتنة بين محمد بن
اسحق وبين المنصور حسين وشملت الحروب شمال اليمن وجنوبه قرابة عامين
على النهج الذي كانت تسير عليه الحروب «نهب وسلب وانتهاك للحرمان» .
وتوقع ابن الأمير ما يحدث فأثر أن يتعد عن المعسكرين ولعل اليأس قد
دب في نفسه من اصلاح الحال . فخرج الى الحج ولما عاد كان الاتفاق قد تم
على أن يبايع الحسين محمد بن اسحق فسار اليه ابن الأمير والتقى به في
« شبام » . ولكن البيعة لم تلبث أن انتقضت فسارع ابن الأمير الى شهارة
وواصل رسالته من هناك .

يواصل تلاميذه في مختلف البلاد بالرأى والتوجيه وكان كثير من
هؤلاء التلاميذ مخلصين للمبادئ التي غرسها الأستاذ لا يجيدون عنها ولا
يصرفهم عن التزامها مال أو سلطان .

وهذا هو يحيى بن محمد عروبا الحوثى تلميذ بار من تلاميذ ابن الأمير وأحد الأعلام المبرزين فى مدرسته يلتزم بخطة استاذة حتى أصبحت حوث أحد المعامل التى يعتز بها ابن الأمير ويتخذ منها منطلقا لرسالته .

وكانت مدرسة حوث تبادر تارة الى العمل الذى وهبت نفسها له وتارة أخرى تتلقى تعليماتها من شيخها فى شهارة .

(فى (١) سنة ١١٤٢ هـ خرجت قبائل يام من نجران وغيره يقودهم المكرمى ففتحت لهم قبائل حاشد الطريق وانضم اليهم أحمد بن محمد أبو منصر صاحب « ذيبين » فاتتهبوا مدينة « بيت الفقيه » ابن عجيل بتهامة على حين غفلة من الاستعداد لشدة مرض عاملها الأمير ذى الفقار .

ولما بلغ الخبر الى المنصور الحسين بن المتوكل جهز من حضرته المولى على بن عبد الله بن القاسم بن المؤيد بن القاسم فى رجال من بكيل وأمرهم بتعجيل ملاقة يام . ثم أردفهم بالمولى الحسن بن المحسن بن المهدي وأعطاهم المدد والعدد .

فواصلوا سيرهم الليل والنهار حتى أدركوا قبائل يام بموضع يقال له « المحمرة » من أطراف تهامة .

فجمع قبائل يام ما أخذوه الى الوسط وحفظوا الأطراف فحمل عليهم جنود الامام المنصور فسلموا قبائل يام ما نهبوه ورجعوا بالغنائم الواسعة بعد انهزام أهل يام وقنوعهم من الغنيمة بالاياب .

(فحمد المنصور الحسين من جنده ما فعلوا) *

(وبعد أخذ جند المنصور الحسين ما أخذه قبائل يام على أهل بيت الفقيه : كنت الامام المنصور الحسين البشارت الى البلدان اليمنية ومنها مدينة « حوث » فأجاب عليه أهل حوث بمقتضى ذلك . وكتب اليه « يحيى بن محمد الحوثى » (الكتاب الذى سننقله اليك والذى سيتضح منه :

(١) نقلا عن نشر العرف .

- حقيقة ما كانت تفعله القبائل بالبلاد الآمنة .
- جيش الدولة الرسمي وكيف كان يتصرف وانه لا يختلف فى قليل أو كثير عن القبائل المغيرة .
- ب ان الشعب يفقد ما يفقده فى هذه الغارات ولا يمكن أن يفكر انسان أن يرد عليه ما فقده أو ينتصف له .
- ان الامام لا يغضب لنهب رعاياه وانما يغضب أشد الغضب لأن هذا النهب قدتم دون أن يحمل اسمه .
- ان الفرق بين القبائل الأولى والقبائل التى تحركت بأمر الامام ان الأخيرة حملت وثيقة من الامام بأنها مجاهدة فى سبيل الله .
- ومن قتل منها فهو شهيد .
- وما استحوذت عليه من مال وحيوان ونساء وأطفال فهى غنائم أحلها لهم الامام المنصور بالله .
- وأخيرا يوضح الكتاب يقظة هذه المدرسة وايمانها برسالتها التى رسمها لها ابن الأمير .
- ويبدأ الكتاب بتعبير شائع فى الرسائل اليمنية وهو « حاوى خير » وهى عبارة يقصد بها لفت نظر القارئ الى كل ما يأتى بعدها . وان كل ما يرد بعد هذه العبارة مهم يجب العناية به .
- وقد تطول مقدمة الكتاب وتقصر فاذا وصل الكاتب الى ما يريد أصلا بكتابه بدأ بعبارة « حاوى خير » ثم يكتب ما يريد :
- واليك الكتاب :
- (حاوى خير الى الحضرة الشريفة العلية المنيفة بعد رد السلام والتحية والاكرام) .
- فانه صدر جواب أهل الهجرة المحمية بالصالحين عن كتاب البشرى العظيمه بانكسار الفرقة الباغية والفئة الطاغية فنقول :

الحمد لله رب العالمين . ذلك من فضل الله على المسلمين خلا ان كتابكم أعلن بما لا تقتضيه الحال والمقام . وان لكل مقام مقال ولكل مقال حال . يعرف ذلك من نظر فى علم البلاغة وان لم يكن من أهل الكمال . دع عنك من صال فى ميدان ذلك العلم وجال .

والحال يقتضى أن يؤتى بكتاب حادث عظيم وخطب جسيم وكتاب تعزية بما حصل على المسلمين والضعفاء والمساكين وما لاقوه من الظلمة الضالين ثم تأسونا بما اسانا به القرآن وبما وصانا به رسول الرحمن صلى الله عليه وعلى آله ما اختلف الملوان وكر الجديدان وبما قاله السلف الصالحون .

« الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا انا لله وانا اليه راجعون . أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون » .

وكيف لا وهذه مصيبة فى الاسلام وحادث جلل على الأنام وقد سببت كذا وكذا امرأة وكذا وكذا ولدا وأهلكت النفوس المحترمات . وصار المسلمون خولا وأموالهم دولا . ونساؤهم كالاماء تباع وتشتري . فخلق بالمسلمين أن ييكوا دما لا ماء وان يسبلوا الدمع من العيون ، وأن يعزى بعضهم بعضا . وان يظهروا التلهف والجزع والنحيب والفزع . لاسيما من أخل بالدفع وهو عليه فرض .

فهذا المقال هو الذى يقتضيه الحال لا ما استعرتوه من الأبيات المصرفة والفقر المسجعة والألفاظ المرسعة . فهذه البضاعة لا تنفق الا عند أهل هذه الصناعة من الجهلة الاغمار . لا عند الناظرين بعين الاعتبار من ذوى البصائر والأبصار .

دع عنك المهرة الشطار .

وما ذكرتموه ونقتموه من الواقع الذى ملأ بحسرتة الأسماع هو خلاف الواقع الشائع . فخلاصته وحقيقته :

ان هذه الفرقة الطاغية والفئة الباغية لما خرجت من بلادها واتها القبائل الحاشدية الباغية ومضت معها فى جهتها وسارت هى وهم على

المؤمنين والضعفاء والمساكين الى أن بلغوا بلاد كوكبان وحفاش وملحان فقتلوا فى قرية واحدة نحو ثمانية عشر رجلا واحدى عشرة امرأة ونهبوا البلدة بأجمعها الا أن بعض الحاضرين من حاشد (١) توجه فى رد النساء وبعض النهب .

ثم تقدم بقية يام الاشرار الى بيت الفقيه فنهبوه وجميع ما حوله من البلدان لم تسلم الا القلعة وبعض شىء من البيوت ممن لهم منعة .
فحصر المنهوب بنحو عشرين لكا وصار ذلك المحل أطلالا بالية ومنازل خالية .

ثم عادوا ووصلوا الى محل يقال له المحمرة فنزلت منهم أهل البلاد وأهل « زليل » .

ثم ثارت بعد ذلك قبائل بكيل فتقاتلت هى ويام كما تتقاتل الكلاب على الميتة . وأخذت هذه جانبا وهذه جانبا . بعد سقوط القتلى من الجائين ومن القبيلتين (٢) . وانكسرت حاشد من حفاش وملحان كسرة ربانية وهزيمة سلطانية . وخذيلة الهية . قلب عليهم الأحجار شزيمة من أهل البلاد . واستولوا على جميع ما أخذ من أهل البغى والفساد .

وأما الطائفة الشامية اليامية فاستولت على أنفس الأشياء عندها وحملت الى محلاتها وبلادها .

ثم طلعت بكيل الى حضرتكم الى صنعا وفتحوا فيما نهبوه وغصبوه البيع والشراء وتصرفوا فيه تصرف المالك فى ملكه . والسيد فى عبده ورقه . لا يمنعهم من ذلك مانع ولا يدفعهم عنه دافع ثم أرسلوا بسا لم يبيعوه الى بلادهم فوصل الى « بنى صريم » من حاشد فنهبوه وتقسموه .
هذه حقيقة الحال وخلاصته .

(١) أعطى الوجه أى قال هن فى وجهى أو أنا جار لهن

(٢) من آنام أسرة القاسم يقاد نار العداوة بين ابنى العم حاشد وبكيل

فكيف يقال لهذه بشرى ؟ أو يقام لها ذكرى أو ترفع لها قدرا ؟
كلا والله انها مصيبة من أعظم المصائب وثلمة فى الاسلام من أعظم
المثالب . ومنقصة على المسلمين وفضيحة الى يوم الدين .
وما ذكرتموه من أن المجاهدين الثابتين فعلوا وفعلوا فما ذكرتم
لا يستحق اسم المجاهد الشهيد .

وانه قد حدد لنا نبينا عليه الصلاة والسلام حين سئل من هو فقال :
« من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا » .

وهؤلاء انما قتالهم على حطام الدنيا .

وكان يجب عليكم الدفع عن رعيتم من الضعفاء قبل أن تنهشهم
الكلاب والذئاب وقبل أن يصلوا بلاد حفاش وملحان .

ولو كسرتم تلك الفئة الباغية قبل أن يصلوا الى المسلمين لعددنا ذلك
نعمة جسيمة وبشارة عظيمة ولكأنكم فتحتم القسطنطينية وفلسطين .

ولو كان جندكم من أهل الحق — كما ذكرتم — لردوا ما نهبوه الى
أهله . ولما بقوا فى الحيمة وحراز محرزين أنفسهم من سقوط السماء أو
كأنهم حافظون لها . وهى لاتقع على الأرض الا باذن الله .

نعم قد كتبنا اليكم كتبا من جهة المصالحة لحاشد وبكيل ويافع وأجبتهم
علينا بجواب مغالطة .

تركتهم ما ذكرناه لكم من المصالحة لأنكم لو فعلتم ذلك لما نهبت يافع
قمطبة وادخلت النسوة بلادها وكذلك أيام الطعام مثلها ثم ضربتم البشارات
بانكسارها .

ومن أنفل ثم رجع لم يسم ذلك انكسارا ولم يكن فعله عارا .

والسبب فيما حصل أنكم حظيتم بوزراء سوء كل واحد منهم عن الدين
عاطل . ديدنهم أكل أموال الناس بالباطل .

ولا يصلون الى ذلك الا بفتح هذه الممالك ولم يراقبوا شديد بطش
المالك .

فبعضهم يقف فوق سجاداته بعض يومه وليته : وتلك شبكة لأموال المسلمين .

وبعضهم يخطط يخطط عشواء كحاطب ليل فى ظلماء لا ينظر فى الأمور بعين الحقيقة ويوهم بأنه من أهل الطريقة .

وكلهم يتبع ما يهوى كلما قيل له هذا كذا قال بلى هذا يصلح هذا من أحسن ما يكون .

فهؤلاء يجب عليكم افتقادهم والنظر فى حالهم ، فعزلهم من أهم الأشياء ..

وكذلك يجب عليكم الدفع عن المسلمين بما أمكن :

اما بقتال العدو أو المصالحة كما كان عليه من قبلكم .

وكذلك النظر فى المحبوسين . فان تحميلهم القيود الثقيلة المهلكة أو المشقة مما لا يجوز وكذلك غيرهم من المستضعفين .

ثم يختم الحوثى كتابه بقوله :

« اللهم اشهد انا قد بلغنا ما يجب علينا . وان لم يكن عندنا ملكة فى أسلوب الكلام فانما أردنا اظهار الحق وابلاغ النصح وحسبنا الله وكفى ونعم الوكيل » .

وظلت حوث تقف فى وجه الطغيان بسلطان الكلمة يوجهها عالمها يحبى الحوثى أو توجه اليها من محمد بن اسماعيل الأمير من شهارة .

ووجد القوم فى فترة خمسة أعوام من ملك المنصور ان عدد البلاد التى نهبت قد زادت زيادة تستعصى على التصور .

لقد فتح المتصارعون على الحكم الطريق أمام القبائل ثم أقعدتهم الاقطاعيات والوظائف وصنوف الترف وألوان اللهو والمتع وانطلقت القبائل تباشر هوايتها فى نهب المدن والقرى والبنادر لاتردها قوة ولا يردعها سلطان .

فى تلك الفترة الوجيزة نهبت :

اللحية - قعطبة - دمت - جبن - لحج - عدن - بيت الفقيه
- حفاش - مور - الضحى - حبور وما لهم يحص انسان » » كما يقول
ابن الأمير .

عندئذ يوجه ابن الأمير قصيدته النونية الى حوث ليقوم تلميذه
بنشرها فى أنحاء اليمن .

على أن ينسبها الى نفسه تخوفا من أن تحمل القصيدة اسم الأمير
فيعدو المنصور حسين على والده الشيخ الذى أقعده المرض فى صنعاء :

أيها النيام

هل فى القلوب بيوم الحشر اذعان	وهل بنا قاله الرحمن ايسان
وهل علمتم بان الله سائلكم	عما قريب وللأعمال ديان
ياساكنى السفح من صنعاء هل سفحت	لكم على ماجرى فى الدين أجفان
عن « اللحية » هل وافاكم خبر	تفيض منه من الأعيان أعيان
ويعدد ابن الأمير أسماء القبائل	التي باشرت أعمال النهب ثم يقول :
أسماء شر وأفعال مقبحة	طوائف ما لهم يمن وايمان
فما يخافون من يوم المعاد ولا	عليهم لذوى السلطان سلطان
فكم أخافوا وما خافوا وكم نهبوا	وأخربوا فلهم فى الأرض نيران

احصاء

فى دولة الملك المنصور كم هلكت	بنادر ومخاليف وبلدان
فى الشرق والغرب منها والتهائم بل	والبحر قد خافهم فى البحر حيتان
لا تنس « قعطبة » ان كنت ذاكرها	فقد أباح حماها قبل قحطان
كذا المعادل من « دمت » ومن « جبن »	« ولحج » طاف بها للحرب طوفان
والبندر البندر المشهور من « عدن »	سارت باخباره فى الأرض ركبان
وهل نسى أحد « بيت الفقيه » وقد	صكت باخبار يام فيه آذان

كم من عزيز أذله وكم جحفوا مالا وكم سلبت خود وظيان
ودع «حفاشا» «ومورا» «والضحى» ولا
تذكر «حبورا» وما لم يحص انسان

حقيقة الأسرة الحاكمة

أسرة القاسم

عليكم الملك أعراب وبدوان بها جوار وديياج وعقيان كأنهن - وحاشا الذكر - قرآن فى كل حين على الأبدان ألوان فما يقام له فى العدل ميزان كأنها غنم والقوم رعيان كأنها بيد الصبيان قصبان	فيابنى القاسم المنصور قد سلبت لم يبق من مجدكم الا القصور لكم أو المزامير تتلى كل آونة أو الثياب على الأبدان صار لكم بمال كل ضعيف من رعيتمكم فلا يخاف العدا شرا لخيلىكم ولا يخافون ان طالت رماحكم حرام عليكم
--	--

مزقتم اليمن

كل يرى أنه للناس عنوان كل له قطعة قفر وعمران مراقيا مارقاها قبل خوان بل الجميع سواء فيه أعوان قد طال منكم لهم ظلم وعدوان أيدي سبا مالها فى الأرض أوطان	والآن صرتم عدا فى ذات بينكم مزقتم شمل هذا القطر بينكم وكلكم قد رقا فى ظلم قطعه فما الامام ملام فى رعيته فقدموا العدل والانصاف فى أمم تضحوا يدا فرعاياكم مفرقة انى نصحت لكم
---	--

هذه النصيحة منى غيرة لكم ما فى مقاتها زور وبهتان

وان سئلت غدا عن قبج فعلكم فانها لى عند الله برهان
أقول انى نصحت لكم بمقدرتى نظما ونثرا فما دانوا ولا لانوا

زادت أعمال النهب وعم الفساد كما قد رأينا والامام فى صنعاء يضرب
القبائل بعضها ببعض .

تنطلق هذه لتنهب فيرسل فى اثرها الأخرى لتنتزع منها أسلابها .
والشعب هو الخاسر دائما وهو المعتدى عليه دائما .
وماذا على الامام من بأس ان قدمت اليه فى النهاية بعض الهدايا
المنهوبة وقدم الى حاشيته ما يسد أفواههم ويرضى أطماعهم .
ماذا عليهم بعد ذلك ان شاع هذا الفساد .
وماذا يهمهم من سلطان الدولة ونفوذها ووحدة البلاد واجتماع
شمل الشعب ما دامت خزائنهم تزخر بما فيها .
أليس الهدف من الحكم أن تمتلئ هذه الخزائن . وأن تتوفر المتع
وأن يحيط الترف بالامام وحاشية الامام .
أما الشعب المسكين فليتنصارع تصارع الذئاب الجائعة وليعدو بعضه
على بعض . والغالبون هم جند الامام . هم الجند المنصور . هم المجاهدون
فى سبيل الله .

هذا هو الحكم .

هذه هى الدولة .

وهذا هو مصير الشعب العظيم الذى صنع حضارات قديمة خالدة
قبل الاسلام .

شيد حضارات معين وسبأ وحمير . ونشر العلوم والمعارف فى أرجاء
الجزيرة وما حولها .

حتى اذا جاء الاسلام خرجت قبائله الشجاعة تحمل فى أيديها سيوفا
وفى قلوبها ايمانا فبسطت لواء الاسلام فى أرجاء المعمورة .

وكان منها كبار الصحابة .
وكبار القادة .
وكبار العلماء .
كان منها العدول من القضاة .
والعدول من الولاة .
وكان منها المصلحون الذين ملأوا بلاد الاسلام عمرا .
هذه القبائل العظيمة التى تكون هذا الشعب العظيم أخذت هذه
البيوت المتصارعة على الحكم تنحدر بها .
تضلها بتعاليم بعيدة عن روح الاسلام .
وتباعد بينها وبين نور العلم والعرفان .
وتعزلها عن العالم من حولها .
وتحدد لها طريق الرزق والحياة :
بالنهب والاغتصاب والعدوان .
وأوهموها ان البغى شريعة .
وان الاغتصاب حق .
وان العدوان جهاد فى سبيل الله .
حتى صار اليمن الحضارى .
اليمن العربى .
اليمن المسلم .
الى تلك الصورة التى رأينا .
ولكن الشعوب المتأصلة فى القدم والحضارة لا بد أن تفيق من
غفلتها .
وقد أفاقت فجر السادس والعشرين من سبتمبر :
وعادت قبائل اليمن :

تعرف طريقها الى حريتها

تعرف طريقها الى أمجادها

تعرف طريقها الى وحدتها

تعرف طريقها الى عروبتهما

وحملت لواء الجهاد تدافع عن ثورتها وعن مقدساتها .

وإذا انحرف بعض وضلل آخرون فانهم سرعان مايكتشفون الطريق .
ويسارعون الى درب الحياة الحرة الكريمة .

وكنا نحب أن نختتم الكلام عن سلطان الدولة الى هذا الحديث ولكن
من حق هذا الشعب العريق أن تقدم له وثيقة تاريخية تؤكد انكاره لهذه
الأساليب وتطلعه للقضاء عليها ونصرته لكل حركة اصلاح يشعر بها ويؤمن
أنها طريق خلاصه مما هو فيه .

وان كانت الظروف المحيطة والرواسب المتراكمة قد أبعدته عن الطريق
ولكن يكفيه أنه برغم ما كان يحيط به كان يبحث عن سبيل الخلاص .
وتلك الوثيقة تقدمها الينا الحركة التي قام بها أبو علامة التكرورى
الناجم .

وقد ظهرت حركة أبى علامة فى بلاد الشرف ومن نفس المنطقة التي
ظهر فيها القاسم بن الرشيد والمحطورى الناجم .

ويقال ان الرجل من أصل مغربى نشأ بسكة ومنها قدم الى اليمن فى
صورة منجم والتف حوله جماعة من الاتباع يسيطر عليهم بعمل الأوفاق .
ويدعى الرجل النسب الى البيت العلوى لذلك فهو يشق طريقه
سريعا فى بلاد الشرف .

وغالب الظن أنه لم يكن يفكر فى ملك أو يتطلع الى سلطان ولكن
جماعة من اليمنيين رأوا نفوذ الرجل ينتشر فى البلاد سريعا ويفد عليه فى
كل يوم اعداد من سكان القرى والمدن والبادى يلتصقون منه هذه

الأحجية وغيرها مما يدعى صنعه واتقانه . فرأوا فيه رجلا يمكن أن يستغل لاحداث ثورة تخلصهم من بيت القاسم وأعوانهم .

ومما يؤكد هذا الرأي : الخبر الذى رواه عبد القادر بن أحمد الذى أرسله المهدي عباس ليستطلع حال أبى علامة ويعرف هدف الحركة التى يقوم بها (فإذا له أصحاب (١) دهاة أولو مكر وخديعة وحذق وصناعة للارجاف والتعمية .

والتصرف لهم وليس لأبى علامة الا عمل الأوفاق لهم فقط) .

وبدأ أبو علامة والرجال من حوله يشعرون بقوته وقدرته على احداث تغيير فى المجتمع ونظام الحكم فأخذوا يتصلون بالقبائل يطالبونهم بترك حكم الطاغوت (٢) وتأمين الطرق .

وسرعان ما لبث القبائل نصائح الرجل وامتد نفوذه وأخذ يزداد مع الأيام .

وكانت الخطوة الثانية التى خطاها أبو علامة هى هدم الحصون التى شادتها القبائل واتخذتها مركزا تنطلق منه للاغارة على البلاد .

فكان يرسل عددا من أتباعه لايزيدون على أصابع اليد الواحدة فيهدمون الحصن الأشم فى ساعات قليلة ولا يلبث أن ينضم اليهم ما فى الحصن من حراس .

وبالفرحة الشعب عندما يهدم حصن من الحصون فكنت ترى النيران تشتعل فى رءوس الجبال اعلانا بتأييد أبى علامة ومناصرة له .

ومن هنا ندرك مدى ضيق الشعب بالفوضى التى كان يعيش فيها وجهه للخير ورغبته فى الاصلاح .

طلب أبو علامة من القبائل أن تؤمن الطرق فأمنتها .

(١) نفحات العنبر

(٢) الاحكام العرفية القبلية .

وأرسل فى هدم الحصون فأعاتته وفرحت بنجاحه وأوقدت النيران ليلا على قمم الجبال تأييدا لثورته .

وطلب منها أن تعدل عن حكم الطاغوت الى حكم الاسلام فرجبت بذلك .

اذن فقد كانت الحصون التى استعلت بها تعبيرا ثوريا غير واضح الملامح .

وكان حكم الطاغوت تأكيدا لعدم ثقة الشعب فى حكامه . وما دامت شريعة الغاب هى التى تسيّر دفة الحكم فليكن قطع للطرق وترويع للآمنين ونهب للمدن والقرى والبنادر .

فلما وثق الشعب فى داعية جديد يرد له أمنه وثقته وآماله سارع بالالتفات حوله والانتصار له .

كل هذا يحدث وصاحب صنعاء المهدي عباس لا يحرك ساكنا وكان هذا الذى يحدث بعيد عن اليمن وشعبه .

أليست صنعاء وأوقاف صنعاء وما حولها يجبى اليه ويستكثر منها ما شاءت له أطماعه .

فليفعل أبو علامة ما شاءت له دعوته . وهو على ثقة بأنه فى النهاية سيربح من هذه الحركة كل شيء .

لينتصارع أتباع أبى علامة مع القبائل .

فالحصون التى تهدم كسب كبير والقبائل التى تضعف كسب أكبر . ولايشغل الشعب بعضه بعضا حتى يصفو له الملك ولا يعكر عليه امامته واحد من بيت الامام .

وفى النهاية ما أيسر أن يتخلص من أبى علامة بان يدس له سنا فى طعام أو ريحان . وسيلة متعارف عليها وتقليد من تقاليد الأسرة .

ولنرجع الى ابن الأمير وهو يقص علينا خبر أبى علامة ولنتعرف على بعض الحقائق التى ينطوى عليها هذا الخبر :

- ١ — ان الشعب كان فى حالة ثورة حقيقية غير أن هذه الثورة كانت تحتاج الى قائد يوجهها ويترجم عنها .
- ٢ — ان ابن الأمير استغل حركة هذا المنجم ليوجه العباس الى اصلاح الحكم والتخلص من عناصر الفساد .
- ٣ — ان ابن الأمير خاف من حركة أبى علامة لأنها لا تختلف عن حركة القاسم ابن الرشيد وكل مايجنيه الشعب هو أن يسقط حكومة متعفنة ويقيم حكومة قوية تأخذ طريقها السريع الى التعفن .
- ٤ — ان اغتيال أبى علامة وراءه سر ومن السوابق التى حدثت قبله واللاحق التى حدثت بعده تجعلنا لانبرىء العباسى ومن حوله من تدبير هذا الاغتيال .
- ٥ — ان العلماء الذين يعملون للدولة لم يخشوا من الرجل شعوثه ولا تنجيهم وانما كل ما خافوا منه أن يكون طالب ملك .

واليك حديث ابن الأمير :

« لم تزل الأخبار تتكاثر بان فى المشجعة من أطراف بلاد الشرف رجلا يسمى بالسيد أحمد الحسنى وانه عمر فيها مسجدا من مدة سنتين ولم يزل يفشو أمره . ويخبر عنه كل من يفد اليه أنه باق فى مسجده الذى بناه . يصوم النهار ويقوم الليل ولا يأكل ذا الروح . ثم ظهر جماعة مجاذيب يجذبون له ويدخلون الأسواق . ثم عظم أمره وشاع ذكره وقصده العامة من جهات المغرب وغيرها بالندور . وصار يكرم من يفد اليه بالاطعام .

وعمر أماكن للضيافة حتى بلغ الوافد اليه فى كل يوم نحو من المائتين فصاعدا .

ثم أمن طرقا كانت خائفة بمجرد الارسال الى من يخيفها ثم تقدمت مجاذبية الى بلاد الأهنوم ودخلوا شهارة فى أول جمعة من رجب ١١٦٤ هـ وهم ينهون عن أحكام الطاغوت وعن اخافة الطرق فاتتهى حكام الطاغوت فى أغلب الجهات على ما تواترت به الأخبار .

وصارت تروى له كرامات وخوارق . ووصلت إلينا الكتب من علماء
شهارة من الشيخ العلامة ناصر المجبشي ومن القاضي العلامة أحمد بن يحيى
الشامي ومن السيد العلامة أحمد بن حسن قاضي شهارة يصفون هذه
الأمور ويحذرون من السكوت على هذا .

« وأنه يظهر منه أنه طالب ملك » .

« ولما وصلت الأخبار وتواترت بهذا المقدار عرفت المهدي بحقيقة ما
بلغ وأرسلت إليه أحد الملحقات التي فيها تحقيق أحواله وعرفته بكلام
كثير » .

« وعرفته أن من أعظم الأسباب التي يخاف معها التسليط : ما في بلاد
اليمن من الظلم من العمال ، وما هو فيه من البعد عن الشكاة والوفاد .
وانه بلغ الحال الى حبس شكاة وصلوا من ريمة ولم يخرجوا من السجن
الا بشرط عودهم الى يد عاملهم الذي فروا من ظلمه » .

ثم طالب أبو علامة بملك اليمن في رجب سنة ١١٦٤ هـ . ثم أرسل
جماعة من مجازييه لخراب حصن « ابن الأعور » في جهة الشرف وكان حصنا
منيعا معسورا عمارة متقنة يقال له حصن « عزان » فانتهاوا اليه فدخلوه
عنوة .

طلع أحدهم من عرض الدار وفتح لبقية أصحابه وكان فيه رتبة لابن
الأعور فهالهم الأمر ولم يدافعوا بل استسلموا . فأذنوا لهم يخرجون
بسلاحهم . ثم خربوا الحصن في ساعة لطيفة وهو يعجز عن هدمه في أيام .
ثم حرق بعض ما فيه من « الباروت » ولم يصب أحد . ثم خرجوا من الحصن
بعد خرابه ورجعوا الى من أرسلهم وقد نفذ أمره .

واتفق في تلك الليلة أنها ألهمت النيران في حصون الشرف ثم في بلاد
الأهنوم وبلاد حاشد وانتهت الى بلاد الشام ووصلت هذه الأخبار الى
صنعاء .)

والهاب النيران في جهات اليمن أعلام بطاعة الخارج ونحو ذلك .

« الا أن كل من ألهبها ممن ليس فى بلاد الشرف نم يلهبها الا اتباعا لما
رآه لا لأمر عرفه (١) . »

(ثم وصلت الأخبار بأنه بث كتبه الى قبائل بلاد القبلة وبث فى
أسواقها وأسواق بلاد عذر وغيرها يأمرهم بتأمين الطرقات وترك أحكام
الطاغوت فامتثلوا أمره وتركت أحكام الطاغوت فى أسواق تلك الجهات) .

(بعد هدم حصن . عزان) نزل ابن الأعور من « العصيمات » فى
ثلاثين نفرا لعمارة حصنه فلما وصل أرسل له السيد أكثر من ألف نفر ضبطوه
وأوصلوه اليه مربوطا وأصحابه الثلاثون نفر انضموا الى أصحاب السيد
فأرسل الجميع على حصن « أبو منصر » لخرابه فما كان بأسرع من
وصولهم وخرابه وكان حصنا منيعا وبناء رفيعا فنفذ اليه الأقوام وحصلوه
ساعة من نهار وقتل على بابه جماعة من أصحاب السيد نحو من عشرة
أنفار ثم دخلوه وأخربوه وقبضوا جمع ما فيه . وأخرجوا منه زنجيرا فيه
ثلاثة عشر حلقة . فزنجروا فيه أبو منصر وأصحابه ونفذوا به الى « المشجعة »
عند السيد فقيدهم بالقيود وأبقاهم فى سجنه) .

(ثم أمر المحطة تنفذ حصن « القاهرة » فى « المحابشة » وهو حصن
منيع مرتفع فيه نحو أربعين نفرا رتبة (٢) وكان لناصر الأحمر فنفيذ اليه
جيش السيد فما كان الا ساعة من نهار وأخربوه وخرجت الرتبة صاغرين
ثم خربت بقية الحصون فى جهات « الشرف » « والواعظات » حتى كان
الذى وقع عليه الخراب منها الى سلخ شعبان سنة ١١٦٤ هـ تسعة حصون
لا تخرب الملوك واحدا منها فى أعوام وما هو الا أمر الهى .

وفى ١٢ رمضان اجتمع فى شهارة عوالم من « عذر » « والأهنوم »
« وبلاد ظليمة » وقد نزل جماعة من شهارة الى عند السيد أحمد

(١) نخالف فى هذا رأى ابن الأمير ونعلينا لايقاد النيران ممن يعرف
أن الجميع كان يتطلع الى الثورة على الظالمين والانتفاض عليهم بأى صورة من
الصور .

(٢) حراس .

ووصلوا منه بكتاب الى كافة أهل شهارة والأهنوم وأنهم يختارون لهم عاقلا يقبض الواجبات ويضعها في مصارفها وينصف المظلوم) .

(وأذلت القبائل الذين كانوا قد طاولوا الجبال ونالوا من الجبروت والغنى أرفع منال وكانت دولة اليمن ليس لهم هم الا اصلاحهم بالقطع وبذل الأموال منذ أربعين سنة) .

(حتى هدم الله بناءهم وأطفأ نارهم وأظهر عجزهم وبوارهم بظهور هذا الدرويش الذى هدم الحصون وأباد تلك القرون وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون .

أذلهم الله برجل لا يعرفون له قبل ذلك اسما ولم يشاهدوا له جسما ولا أعد لهم لقتالهم سلاحا ولا رجالا ولا جمع نفوسا) (١) .

(ولا بذل مالا ولا عمر معقلا ولا اتخذ أهلا ولا منزلا . وليس له عشيرة يقصدونه على ما يريد . ولكنها قدرة الرب الفعال لما يريد لا اله الا هو الذى ملوك الأرض له من أحقر العبيد) .

(وفى يوم الجمعة سادس رمضان وصلت الأخبار باخراب حصون ابن جزيلان فى « المسوح » وهى ثلاثة حصون أمر السيد أحمد بخرابها فما كان أسرع من امتثال أمره وهدم كل حصن الى مستقره .

ولم يحصل امتناع من رتبة تلك القلاع ولا دفاع . وهذه من خوارق العادات فان صاحبها ناصر جزيلان كان ممن لا تلين له قناة) .

(١) أليس هذا دليلا على أن القبائل كانت تفعل ما يفعل اعلانا منها بعدم الرضا على الملوك فى صنعاء

(وكانت القلاع المهتمة الى هذا التاريخ سبع عشرة قلعة .
أمر تحار فيه الأفكار . ولا يأخذ المأمور بهدم القلاع شيئاً مما فى
القلعة ولا يعرجون عليه) .

(وقد كان لقاسم الأحمر حصن « قصبة » فى بلاد « ظليمة » قريب
من « المدائر » عمرها فى دولة المنصور حسين بن قاسم وهم على طريق
المسلمين فشراها منه المنصور بألف قرش وخربها .

ثم لما مات المنصور وصار الأمر الى ولده المهدي نزل قاسم الأحمر
انى حبور ونهبها ثم عمر القصبة المذكورة وجعل فيها رتبة جماعة من
« العصيمات » فأرسل السيد أحمد لهدمها فى رمضان رجلين من المجاذيب
أحدهما ببيرق وأمر أن يجتمع الأهنوم وظليمة وبنو عرجلة فاجتمع ألف
رجل وحملوا على دائر القصبة . فحصل قتل فى الأهنوم نحو اثنى عشر
قتيلاً ومصاويب وقتل مجذوب من النفيرين وأصيب يحيى الأحمر برصاصة)
(ورجعت محطة السيد منكسرة .

فلما وصل الخبر الى السيد أحمد أرسل السيد هادى بن عيشان فى
ثلاثمائة رجل والسيد يحيى بن عبد الله من بيت المؤيد فى نحو خمسمائة
رجل فأخربوا القصبة بعد حرب وقتل جماعة من الأهنوم .
ووصلت البشائر وضربت المدافع وألهمت النار بالبشرى) .

ثم بدا السيد ييسط نفوذه فى تهامه بعد أن طهر المنطقة التى بدأ منها
وما جاورها .
وقامت دولة أبى علامة . لا بسلطان المال ولا بسلطان السلاح ولا
بقوة الرجال وعصية القبيلة .

كل ما قدمه لشعب اليمن هو رغبة فى الإصلاح مع ترفع عن المكاسب
المادية وعدم التهاك على الدنيا .

ووجدت هذه البذور الطيبة أرضاً خصبة فأينعت وترعرعت . ولم يكن

أبو علامة هو الذى أقام الدولة وانما الشعب اليمنى هو الذى شيدها أو
بمعنى أصح لم يشيد وانما حطم الظلم والظالمين .

وتشتعل الحرب بين أبى علامة وبين القبائل لا تشارك فيها الدولة
بمال أو سلاح أو رجال وامتد نفوذ الرجل حتى شمل التهاشم وأحاط
بصنعاء .

وأصبح الناس على خبر أن أحد أعوان أبى علامة امتدت يده الى
زعيمه فاغتاله وهو يقف فى وسط جنده .
وتفرق الأعوان وقضى على الحركة .

ولعل بعض المخطوطات تكشف لنا المؤامرة التى كانت وراء مقتل
أبى علامة اذ كل ما أثبتته ابن الأمير هو قوله (وجاء قتله على يد رجل خرج
لنصرته) .

وهذا موضع التساؤل هل كان العباس وحاشية العباس وراء اغتيال
أبى علامة ؟

لعل الأيام تكشف عن هذا الغموض .
من كل هذا الذى سقناه اليك نستطيع أن نؤكد أن هذه الأسرة لم
تحكم اليمن حكما مركزيا .
وان حكمها قضى على وحدة اليمن وفرق الشعب وأوجد خلافات فى
النفوس ظلت تعمق عاما بعد عام وجيلا بعد جيل .

وكان لهذا أكبر الأثر فى القضاء على الانتفاضة الشعبية التى قامت
فى عام ١٩٤٨ م وكانت العامل الأساسى الذى مكن يحيى وابنه أحمد من
حكم الأرباب الذى حكما به اليمن تلك الفترة الطويلة . ولولا وجود هذه
الخلافات والحزازات وتلك الأحقاد لما استطاعا أن ينالا من اليمن ما أرادا .
ولكنهما وجدا بذور الشر التى غرسها أسلافهما فأخذا يجنيان حقول
الفتن :

انشمال والجنوب
الجبال والتهائم
الزيدية والشوافع
القبائل بمسمياتها ضد بعضها البعض
يؤلبون حاشدا على بكيل
ويثيرون بكيلا على حاشد
وليقتتل أبناء الأب الواحد فى سبيل اضعاف الرعايا وسيطرة الراعى .
وهذا الذى كان منذ مائتى عام لم يتغير ولم يتبدل لا شكلا ولا
موضوعا حتى قامت الثورة المباركة .
وقد تساءل كثير من الناس .
لماذا قامت ثورة اليمن .
قامت لتحارب اقطاغا لم يعرف العالم له مثيلا .
قامت لتحارب حكم الفرد طاغيا لا يرحم .
قامت لتحارب حكم الأسرة وأطماعها التى لاتشبع .
قامت لتحارب السيطرة على فكر الانسان اليمنى .
قامت لتحارب السيطرة على روح الانسان المسلم .
قامت لينطلق الشعب وليعيش وليتنفس ويتحرر ويفجر ينابيع الخير
فى ربوع اليمن الخضراء .

(٦)

الزكاة والأوقاف :

الزكاة فرض على كل مسلم اذا توفر النصاب . وكتب الفقه قد تكفلت
بهذه المباحث فى جميع المذاهب مستندة الى كتاب الله وأحاديث رسول
الله صلى الله عليه وسلم .

ثم الزكاة محرمة على آل النبي عليه السلام فقد روى عنه أنه أخرج التمرة من فم الحسين وهو طفل صغير وكان قد تناولها مما جمع زكاة وكان عليه السلام يقول له « كخ كخ يا حسين » .

وفى المذهب أن المضطر من أهل البيت يقدم المينة على أكل الزكاة ولكن الأسرة الحاكمة كانت قد ضربت بكل هذه التعاليم عرض الحائط لم تكتف بأكل الزكاة والاثراء من أموالها بل امتد الأمر بهم الى جمع الأموال ممن لم تتوفر لديهم الأنصبة التى توجب الزكاة ويجمعون هذه الأموال اليهم لا الى مصارفها ومستحقها بنص القرآن الكريم .

ثم هذه الطبقة الاقطاعية التى كانت تسمى « الأجبار » التى أعطى لها حق جمع الزكاة من اقطاعاتهم والتصرف فيها حسب ما يرون .

لم تكن أموال الزكاة فى عرفهم الا حقا منحتة الدولة لهم ليغنوا وليعيشوا فى حياة الترف والجاه ويستكثروا من الأنصار والعبيد .

فاذا علمنا أن أراضى الأوقاف كانت تقطع لهؤلاء السادة يأكلون خيراتها وغلاتها بما فيها من زكاة ولا ينفق منها شئ فيما وقفت عليه من أوجه البر .

وقد مر بنا من قبل الحكم الذى أصدره المتوكل اسماعيل والذى حول فيه أرض اليمن من أرض عشرية تجب فيها الزكاة الى أرض خراجية حتى يتيح لأبنائه الاستيلاء على ما يروق فى أعينهم من أراض وأملاك وأن يفرضوا على الناس ما يرون من ضرائب . وأن يتوسعوا فى الجبايات ماشاء لهم التوسع .

حتى استولوا على ما بأيدي الناس كرها بلا استتكاف على حد تعبير ابن الأمير .

وفى عبارة العلامة أحمد قاطى ما يوضح هذا الذى نقول به :
(وأعظم محنة (١) امتحن بها سادات اليمن أكل الزكاة فانها من أعظم

(١) نقلا عن نشر العرف .

المحن وقد قدمت ما ذكره الامام المتوكل على الله اسماعيل ابن الامام المنصور وقد ذكر أيضا هذه المحنة الامام عز الدين بن الحسن فى رسالة .

ولقد ذكرت لوالدى رحمه الله فى أيام الصغر لم خالف الأئمة فى مسألة الزكاة ما صرح به فى الأزهار أن الزكاة فيما بلغ خمسة أوسق فأمروا بالقبض مما دونها . فأجاب أن العبرة بمذهب الامام والمسألة خلافية والأدلة النبوية بما فى متن الأزهار . قال صلى الله عليه وسلم « ليس فيما دون خمسة أوسق صدقة » (

ثم قال :

(نسأل الله أن يأخذ بنواصى الأئمة الى الخير ويسلك بهم سواء الطريق ويصلحهم ويصلح الرعية والأمة المحمدية) .

ولنستمع الى أحمد قاطن مرة أخرى اذ يقول :

(ولما قبضت الزكاة وسلمت الى الوزير الفقيه أحمد النهمى ذكرت له أن يعرف المهدى بصرفها فى مصارف الزكاة وكثرت عليه .

فقال انها مقررة لبيت أبو منصر من المنصور مقابل مقاتلتهم للشائف فتعجبت من ذلك ومن تهالك السادة على أكل الزكاة . نسأل الله أن يصلحهم ويرزقهم من غيرها) .

وكان العمال يقدرون المفروض من الزكاة حسب أهوائهم دون التزام لقانون شرعى أو عرفى .

والحق يقال ان كثيرا من العلماء قد نبهوا الى هذا الظلم الذى تجاوز الحدود كالذى حدث من السيد يحيى بن عمر الأهدل عالم السنة التفى الورع الذى اشتهر فى العالم العربى والذى تابعه عمال المتوكل بالأذية والمضايقة حتى هرب من زييد .

وهو يكتب الى المتوكل فى تصرفات عماله فيقول :

(أما بعد فالذى نهيه اليكم ونشكوه لرعييتكم غلبكم أن رجلا يسمى فلانا استدرك على الشارع صلى الله عليه وسلم وزاد فى نصاب الزكاة

المشروع فان كان هذا مما ترضونه فقد وجب علينا رفعه اليكم به والانتبهتم لهذا الخطب الجسيم والحادث العظيم) .

ولم يبق بعد ذلك امام الامام الا الأوقاف وبعض أموال الزكاة فكان يعين جامعي الزكاة ممن يحسنون الجمع وليس لهم حق التصرف في المصارف .

عليهم أن يجمعوا ، اما أن ينظروا في مصارف الزكاة فليس لأحد أن يتكلم في هذا ، وانما هو أمر الى الامام ووزراء الامام .

وكان يختار عمال الأوقاف ليجمعوا اليه خيراتها أما مصرف الغلة فلا يصل اليه شيء حتى تعطلت أوجه البر وتخربت المساجد كما قد علنا من قبل .

وفي قصائد ابن الأمير السابقة ما يؤكد هذه المعاني ويتندر بها ويهاجمها .

وكان الأئمة لا يكتفون باكل غلة الأوقاف بل كانوا يأكلون زكاتها دون تخرج واذا راجعهم أحد خاصتهم أو تمنع عن تنفيذ خطتهم أحد عيالهم تخلصوا منه وعاقبوه كما حدث من المهدي عباس عندما ولي القاضي عبد الله العراسي وقف صنعاء .

وها هو أحمد قاطن يسوق موقف القاضي من العباس وموقف العباس منه :

(الا أن سيدي المولى « العباس » ذكر لى ان زكاة الوقف أسرها اليه ومراده ان تقبض وتكون للوافدين — وهذا التفسير من المؤلف — وكثر على الفقيه أحمد النهى — وزير العباس — من أجل ذلك لما كثر عليه مولانا المهدي) .

(وفي وقف صنعاء مقررات للفقراء فاطلعت على مصارف الزكاة وقلب لهم :

هذه المصارف وصرفها عنهم ظلم بحت .
فسكت المهدي أياما) .

وكان سكوت المهدي حتى لا تثار ضجة حول خلافه مع عامله في هذا الموضوع الدقيق . ثم عزل العامل عن عمله ..

عزله في الوقت الذي تحصل فيه الثمرة حتى يحرم الرجل من مرتبه وأجر عمله عقابا له على كلمة الحق .

ولكن هل يفي كل هذا بحاجات الأئمة من الأموال وقد كثر الترف وتعددت حاجات القصور وامتدت أطماع الجوارى .

والقبائل التي تطالب بما يسد أفواهها ويسكن سيوفها في اغمارها . ماذا يفعل الأئمة وقد ضعف نفوذهم على البلاد وأصبح ما يحصلونه دون أطماعهم ودون التزاماتهم للقصور وشيوخ القبائل .

لم يبق أمام الأئمة الا أعيان الأوقاف تمتد أيديهم اليها . وظهر هذا بصورة واضحة في عهد المهدي عباس . ونشط العلماء يصدرون الفتاوى التي تمهد لامتلاك الامام لأراضى الأوقاف .

أليست هذه الأوقاف أوقفت من أمثال عامر بن عبد الوهاب ومن بعض ملوك الصليحيين وغيرهم ..

وهؤلاء بغاة أو كفار تأويل ولا قرينة لكافر ولا قرينة لباغ ولا قرينة لظالم وهكذا .

حتى أصبحت هذه الأوقاف حلا للامام يتوسع في امتلاكها وتورث عنه من بعده .

اذ هي بهذا الرأى كان إيقافها لم يصح أصلا لأن من أوقفها لا تصح منه القرينة . فهي أرض وأملاك حرة فسن حق الدولة حينئذ ان تملكها وان تبيع منها ما شاءت .

واليك مثالا غيل البرمكى الذي يسمى في هذه الأيام « غيل بين معيال » كان عامر بن عبد الوهاب في حصاره لصنعاء قد ردم بعض أجزائه مما أثر على تدفقه وكمية مياهه .

فقام العباس ووسع مجراه وزعم انه انفق من ماله الخاص على الغيل وامتلكه بهذه الحجة .

ولما كان هذا الغيل يحتاج الى أراض واسعة تنتفع ببياهه الغزيرة وأكثر الأراضى التى تقع فى نطاقه موقوفه فليستحوذ على بعضها ببطلان ايقافها أصلا وليستحوذ على البعض الآخر مقايضة بأراضى بعيدة عن صنعاء .

ومن الحيل التى كانوا يلجأون اليها ان يبيعوا هذه الأراضى لبعض اتباعهم أو يهبوها لهم .

وما هى الا أيام قليلة حتى يرد المشتري على الامام ما اشتراه أو وهب اليه ..

ويجمع ابن الأمير العلماء ويصدرون حكما واضحا صريحا فى بطلان هذه الحيل وانكار هذه التصرفات .

ويوقع العلماء على هذا الحكم ويرسلون به الى الامام . ولكن الامام لا يرفعوى . ويتجاهل حكم الله فى هذا فيكتب اليه ابن الأمير فى أمرين خطيرين كان العباس قد تناول فيهما الى غاية مفسدة :

(ا) التوسع فى شراء الأراضى الزراعية . ويعلم الله كيف يتوصل عماله الى شرائها من صغار الزراع .

(ب) اخراج أراضى الأوقاف الى الملكية . الى ملكية العباس نفسه أو استبدالها بأرض أخرى غيرها أقل غلة وأبعد من العمران .

يقول ابن الأمير ان حاشية السوء وشياطين الانس والجن تزين لكم هذا العمل وتسوقكم الى هذا البوار فحذار من هذا الذى (يحسن لكم شراء الأطيان فى جميع الأوطان) .

وقد عرفتم أن الأئمة لا يحتاجون الى ذلك فانها لا تنبت حبة فى جربة الا وعشرها يساق اليهم .

(وما زال يحسن انكم ذلك حتى انتهى بكم الى الطامة الكبرى وهى شراء الأوقاف من الأموال واخراجها من الوقفية الى الملكية) .

(وقد عرفتم أقوال علماء عصركم وحكامهم بتحريم بيع الأوقاف وعندكم بخطوطهم قائمة ملصقة وعليها — خطى فى أولها) .

وأخذ ابن الأمير يعدد فساد هذه الأحكام التى يصدرها الامام ومن يدور فى فلكه من القضاة ويوضح رأى الشرع فيها الى أن يقول :

(فلا يحل بيع الوقف ولا المناقلة به) .

واستمرت هذه البلوى تحيط بالأوقاف حتى وصلت الى عهدنا المظلم فى عهد أحمد ويحيى .

ولم يتوقف العلماء عن مناقشة هذا الجور والفساد والاعتداء على أراضى الأوقاف .

وكان مما يقوله القاضى أحمد السياغى اتنا لا نناقش الأئمة فى قولهم « لا قرينة لظالم » فهذا رأى وهذا مذهب ولكن ما بالهم لم يطهروا الوقف من الشبهة التى أحاطت به وييقونه على القرينة الظاهرة بأن يستمر للأنفاق على المساجد والتكايا واطعام الفقراء .

فمن العجب أن يخرجوا الوقف من القرينة الى الملك الخاص .

— ٧ —

رسالة ابن الأمير :

منذ أعلن ابن الأمير مذهبه وهو يواصل رسالته لم يفتر ولم يهدأ ولم يجمال حاكما ولم يخش ظالما .

وكان من أهداف رسالته ان يشيع الايمان بها على أوسع نطاق حتى يكون الرأى العام الذى يوجه الحكم ويقاوم الظلم .

فكانت اتصالاته بالعلماء فى مختلف المدن لا تنقطع يرسل اليهم الكتب التى تندد بالمظالم وبالقصائد التى تهاجم الظلم والظالمين .

وقد يكون هدف هذه الرسائل أن يكون اتباعه على علم بما يجرى فى اليمن .

وقد يكلف تلاميذه بنشر رسائله على الشعب ليبصره بالحق وليفتح عينه على ما هم فيه وما عليه حكامهم من ظلم وظلام .

وكثيرا ما لجأ ابن الأمير الى نشر رسائله بواسطة تلاميذه وبأسمائهم لا سيما فى الفترة التى كان لاجئا فيها الى شهارة وكان أبوه فى صنعاء تحت سلطان المنصور حسين .

وابن الأمير مرهف العاطفة عميقها نحو والده فكانت الرسائل والقصائد التى يعلم انها ستثير ثائرة الملك الحقود كان يطوف بها تلاميذه بأسمائهم .

وليس على الأمير من بأس فقد أدى رسالته وأبلغ الأمانة .

وأقرب مثل على هذا القصيدة النونية التى مرت بك منذ قريب والتى حملها عنه تلميذه يحيى الحوثى .

وفى عهد المنصور حسين كان قناع الظلم قد ألقى به الى غير رجعة ، وسيطر حقد الملك وجشعه على كل مرافق الدولة .

وكان أبوه قد صنفى أخطر المنافسين لهم وتولى هو تصفية البقية الباقية .

وكان ابن الأمير يتابع من شهارة ما وصل اليه الحال وأخيرا لم يطق الرجل صبرا فحرر رسالة جامعة وطوف بها اتباعه على المدن فجمعوا توقيعات العلماء عليها ثم أرسلها الى تلاميذه فى صنعاء فهدروها بنوقيعانهم .

وبعد ان تم للرسالة هذه الصورة التى تجعلها تعبيرا عن رأى العام فى اليمن كاه تقدم أحد علماء المدرسة فى شجاعة فدفع بها الى المنصور حسين .

والرسالة وثيقة على جانب كبير من الخطورة ليس فقط فى الدلالة على آراء ابن الأمير واتجاهاته فى أسلوب الحكم وسياسة الرعية .

ولكن لأنها تكشف القناع عن أنواع الفساد وألوان الظلم ومدى التدهور الذى وصل اليه جهاز الدولة فى هذا العصر .

وتكشف أكثر من هذا عن مدى نظرة الملك لشعبه وتقديره للعلاقة بينه وبين الرعية وتقديره لمسئولية الحكم .

ولابن الأمير رسائل كثيرة يمكن ان يستند اليها فى هذا المجال ولكن حرصنا على هذه الرسالة وتقديرنا لها من الوجهة التاريخية . اننا وجدناها بخط ابن الأمير ضمن مجموعة من رسائله من بين الذخائر المحفوظة فى مكتبة الجامع الكبير بصنعاء . تحت رقم ١٢ .

وقد أشار ابن الأمير الى الموضوعات التى تعرض لها فى رسالته بهامش الرسالة ..

ويجدر بنا ان نقدم اليك الرسالة حسب تبويب صاحبها مع بعض التعليقات التى تقتضيها طبيعة الموضوع ..

يقول ابن الأمير مقدما للرسالة :

(الحمد لله . هذه رسالة حررناها من حصن شهارة غرة شهر محرم ١١٤٦ هـ واستمدينا عليها علامة (١) الأعلام من أهل شهارة وحوث وصعدة ثم أرسلت الى صنعاء الى مقام الامام المنصور بالله الحسين بن القاسم وهذا لغظها) .

بسم الله الرحمن الرحيم وسلام على عباده الذين اصطفى .

الحمد لله الذى لا يعبد بحق سواه ولا يخاف الا بطشه بمن تمرد عليه

وعصاه . ولا ترجى الا نابة الا منه لمن التزم طاعته وتقواه .

(١) توقيعات .

والصلاة والسلام الايمان الأكملان على الدليل عليه .

(والفائض كل خير من الرب تعالى الى العباد على يديه وعلى آله الذين اهتموا بهداه وسلکوا نهجه الذى يسلكه من يرجو النجاة) .

اما بعد :

ويقدم ابن الامير التحية للمنصور ولكل من وافق على ما جاء بهذه الرسالة خصوصا العلماء والاعيان والسادة والقضاة ثم يقول :

(وهم بحمد الله لا يجهلون هذه الشريعة المحمدية الغراء ولا ينكرون ما دعتهم من الطرق السوية . فسلوكها لكل عاقل أولى وأحرى) .

فهذه آيات كتاب الله تعالى عليهم تتلى وهذه سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تزال عليهم تملی .

ولا يقول أحد أن الشريعة — وحاشاها — قد نسخت ولا ان عزائمها قد فسخت ، ولا أن معالمها قد طمست ، ولا أن ربوعها قد درست .

حجتها باقية على مر الدهور ، والتكليف ثابت بها الى يوم النشور .

لا تزال — بحمد الله — رايات حقيقتها قائمة وعيون دلائلها مستيقظة غير نائمة والاعلام تقررها فى التدريس والتدوين ويحرزها جهابذة كل عصر بالايضاح . والتبيين على تغالب الأحكام عامة العوام وأشرقت أنوار الشريعة رعوس الأنام .

(الا أن هاهنا امورا كادت تنادى بلسان الحال أنه لا حرام ولا حلال ولا سنة ولا كتاب ولا ثواب ولا عقاب ولا لجنة ولا نار ولا دار غير هذه الدار) .

وهل هناك من فرق بين هذه العهود . وبين عهود الجاهلية .

(قانها انتهكت المحارم واتسع الخرق فى المظالم . فكل ظالم لا يقف على حد فى ظلمه . ولا يزال باب الزيادة مفتوحا فى حد الظلم ورسه) .

أولا : خطر المكوس :

(هذه المكوس قد ملأت الدنيا بمظالمها وأذهبت من الشريعة أبهى معالمها . وهى المسماة بالمجابى فى القرى والبوادر . ويالمعشر فى البنادر والسواحل .

وهى مالا يعلم على جوازها دليل ولا يدعيه عالم ولا جاهل الا ما يؤثر عنه صلى الله عليه وسلم ان الله حرم دماءكم وأموالكم وأعراضكم . فمن الذى أباح مال من خرج من بيت الله الحرام غاسلا ما كان عليه من الآثام .

فإنه لا يخرج الى هذه السواحل الا وقبض ما يحرزه . حتى ما يأكله الآكل . ثم يقوم عليه بالثمن الوافر .

ثم يؤخذ منه ما يختاره من بضاعة : الكاتب والناظر فتقوم كأبها تركة الايتام ويؤخذ منه العشر دائما . وهو اضعاف ذلك فى حقيقة الكلام . وكذلك من يخرج من الهند وغيره من الآفاق جالبا لبضاعته نافعا لعباد الله بنجارته .

فيا عباد الله : هل ورد هذا فى شريعة من الشرائع فنتبع أم وقع من رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلفائه فنحن لهم تبع .

أم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يحل مال مسلم الا ببينة من نفسه . وثبت عنه صلى الله عليه وسلم ان الله لا يقبل توبة ماكس وهم قابضو المجابى التى صارت فى هذا القطر اليمنى فى كل بلدة ومكان .

بأكلها من قبضت لهم من الحكام وآل الامام .

فليتق الله كل انسان من هذا الحرام فانه لا يجهل احد تحريمه من الانام .
فان الناس بين قابض ومقبض وناظر وآمر .
وهو حرام باجماع امة الاسلام .
ونحب أن نلفت النظر هنا أن هناك فرقا بين المجابى التى كان يجمعها
الائسة وبين الضرائب من عدة وجوه :

أ — ان عمال الامام كانوا يقومون على لناس اقواتهم وما يحملون دون
تفريق بين التجارة والمتاع الشخصى . وكانت فرق المجابى والمعتبرين
تتخذ من هذا وسيلة لسلب الناس وأخذ ما بأيديهم .
وكانت المسألة تقديرية حسب اهوائهم وما يتوسمونه فى الشخص .
فاذا كان غنيا استأصلوا ماله وان كان فقيرا الجأوه الى التسول وسؤال
الناس .

وكم لاقى حجاج بيت الله الحرام من عيال الامام عند عودتهم كسا
يشير الى ذلك ابن الامير .

ب — لم يكن على الدولة أية التزامات قبل الشعب تدعو الى هذه المكوس .
فلم نعثر بين الوثائق التاريخية التى بين أيدينا على ما يدل على انشاء
مدارس أو مستشفيات أو تعبيد طرق أو تأمينها بواسطة الشرطة أو
اقامة سدود أو اصلاح اراض زراعية .
حتى اوقاف المساجد والهجر والتكايا عدا عليها الائمة وتركوها
للخراب .

وانهارت كثير من المساجد حتى أصبحت الحيوانات تسعى فى داخلها
وحتى اتخذ الشعب من هذه المساجد مرافق يوسعون بها على أنفسهم .
وقد يباح للدول فى هذه الأيام ان تفرض النظام الضريبى لتنهض بما
عليها من أعباء فى بناء الدولة واقامة المنشآت وتشيد المصانع
والمؤسسات التى تخدم الشعب .

والدول الآن متلزمة امام شعوبها بنظامها الضريبى وكل فرد يعرف ماله
بطالب به وما عليه يؤديه .

أما فى تلك العصور فقد كان الامر لونا من الوان السلب والنهب
والابتزاز

ج — ان الامام كان يعتبر هذه الوظائف منحة لمن يرضى عنه أو رشوة لمن
يبنى اسكاته .

وكان من يتولى هذا العمل يعرف طبيعة عمله .
ويؤديه على الوجه الذى اريد له .

فيسوم الناس خسفا ويملا خزائنه وخزائن الامام وحاشية الامام فى
أقرب وقت .

وهو يسابق الزمن فى عمله حتى يصل الى غايته قبل أن يبعده الامام .
فلا فرق بين المكاس وبين قاطع الطريق لذلك كان حكم الاسلام قاطعا
فى هذه الناحية .

وحاشا لموظفى الضرائب اليوم أن يكونوا مكاسين فهم يؤدون واجبا
لشعوبهم .

لا سيما فى الأنظمة الجمهورية التى تأخذ من الشعب لترده على الشعب
فى التعليم والصحة والطرق والمصانع والمشروعات الزراعية وغير ذلك .

ثانيا : خطر القمع أو الاقطاع :

(ثم الطامة العظمى والمصيبة فى دين الله الكبرى هذه القمع التى هى
من أعظم المنكرات وأشنع البدع قد عم البلاء بها وطم وفرقت البلاد بيوتا
وقرى بين الأعيان من آل الامام وغيرهم ممن لا نفع منهم للانام وغيرهم من
القبائل الطغام — وان كانوا فى اقطاعاتهم أحسن سيرة من بيت الامام .

وزاد الشر حتى اقطعت الحريم وكل ذى منصب من خاص وعام .

وهذه الأولى صارت من السموم القاتلة لدين الاسلام فانه اعطاء عين
الزكاة لمن يحرم عليه من ثلاث جهات :

من المنصب فانه صح عن الصادق الأمين أنها لاتحل الزكاة لمحمد ولا لآل محمد وقد ذهب امام المذهب الهادي ان مضطر الآل يقدم أكل الميتة على الزكاة .

وثانيهما أيضا فانا لا نعلم صاحب قطعة الا وهو غنى وقد قال صلى الله عليه وسلم انها لا تحل لغنى ولا قوى ولا لذى مرة سوى .
وثالثها أنه يأخذ أضعافا مضاعفة على النصاب .

ويعتبر ابن الامير من اوائل المفكرين فى العالم العربى الذين هاجموا الاقطاع ونهبوا الى المفاصد التى تنتج عنه من تفريق البلاد وتمزيقها وبث العداوة بين البلاد المختلفة والقبائل المتعددة .

ثم الناحية الثانية التى يشير اليها وهى اقطاعيات الاجبار الذين كانوا يقطعون البلاد مع حقوق جمع الزكاة منها فكان السادة يستولون على غلات البلاد كما يجمعون اليهم زكاتها .

فاذا جاز لهم أن يستحلوا غلات الاقطاعية فكيف جاز لهم أن يحلوا لانفسهم أموال الزكاة وهى محرمة عليهم باحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وبنص المذهب الذى يلتزمون بأحكامه .

وها هما حقيقتان خطيرتان تتعرف عليهما من كلام ابن الامير :

— ان شيوخ القبائل الاقطاعيين كانوا أخف على الشعب وارضهم وأحسن سيرة من بيت الامام . ولا غرابة فان ابن الشعب مهما اشتط به الظلم فهو ارحم بابناء جلدته من هذه الطبقة التى تزعم انها رأس الورى والناس كالاخفاف .

— ان النساء من بيت الامام فى هذا العصر زاحمن فى الاقطاع . أشار الى هذا ابن الأمير هنا صراحة وأشار الى ذلك فى قصيدة مرت بك من قبل :

أعطى الصغير مع الكبير معصما — ذات الخمار وربة الاشناف .
(فيا عباد الله اذا لم يكن حياء من الله فممن تستحون واذا لم تقفوا عند زواجره فممن تزدجرون . واذا لم تمتثلوا أمره فالعاقبة أئتم منتظرون .

فقد قال سبحانه « فليحذر الذين يخالفون عن أمره ان تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم » (.

ثم وراء هذه الاقطاعات ومفاسدها مفسدة تخص من نصب نفسه
لأمر البرية وتعم جميع الرعية :

وهو أنه يحتاج الى ما يقوم بهذا التكليف ما يلجيه الى ظلم من بقى
تحتة من الرعية .

كما وقع الآن لهذا الامام الذى رجونا لسطوته صيانة الأنام فانه وسع
على نفسه التكليف الذى غايته ليس نفع ولا دفع على ضعيف : من
السيارات (١) اليومية والمقررات الشهرية لكل من يحسن لبس العمامة ويطيل
فى الملابس أكمامه ولا ينتفع به فى أمر من أمور المسلمين . ولا ينفع فى
شأن من شئون الدين .

فان غالب هذه المقررات لذوى الاقطاعات ممن يتخذ الخيل المسومة
للجرية (٢) فى الميدان والمنافسة لفلان وفلان ومبالغ فى اتخاذ الجوارى
الحسان وفى الحلية عليهن وتقليد اللآلىء والمرجان وفى التوسع فى المساكن
والتأنق فى فراش الأماكن وتبديل الثياب على بدنه والملبوس وتلوين الأطعمة
باجاعة ذوى البوس .

فوالله ما يبقى رغيغ المترفين من الرؤساء وآل الامام حتى اسودت
صحائفهم بالخطايا والآثام .

ومن شراء الخيول واعطائها كل قدم جهول لا يراق عليها دم فى سبيل
الله ولا ترتبط لطاعة الله أو لجهاد ترجونه .

وهذه الأعداء قد رفعت فى كل الجهات رءوسها وأبدت أوجهها لكم
عبوسها .

(١) المصاريف اليومية .

(٢) السباق والاستعراض .

أبعد قتل الاجناد فى عدن يطيب لذى همّة الوسن وبعد تعدى حاشد
وبكيل على الضعفاء وأبناء السبيل يرجى زمان جهاد أو مكانه .

فهذا والله منتهى أوانه ولا عطر بعد عروس .

بل أعرضتم عن الجهاد ومن رفع رأسه من ذوى العناد أعطيتموه
شمطرا من البلاد وفرقتهم له الفرق (١) الذين تحت الوطاة وأعطيتموه الفجرة
وأهل الجرية) .

ونفهم من الفقرة السابقة :

١ -- كيف اتجه الامام الى ظلم الضعفاء وأرباب الحرف والتجار
وسكان صنعاء وما حولها .

فقد توزعت البلاد اقطاعات ولم يبق له الا هؤلاء .

٢ -- المرتبات التى كانت مقربة للحاشية وما كانت عليه الحاشية من
صورة وسيرة ..

ثالثا : خطر العمال « جامعى الضرائب » .

ثم بلاد اليمن فى بلاء من العمال الذين هم جهال الجهال فانه اطرده
فى هذه الاعصار انه لا يولى الا قدم جهول لا يعرف من قواعد الشريعة
فروعا من أصول .

غالب العمال هم من العبيد الاغمار أو الأحرار الجهلة الأشرار .

ولا يخفى على أحد من المسلمين ان الولاية على رقاب المؤمنين من
أهم أمور الدين لا يقلد بها الا عارف بقواعد دين الاسلام عدل مطهر من
الأدناس والآثام .

فانه سبحانه شرط العدالة فى الشاهد ولو على أقل من درهم واحد
فكيف بمن يولى على الأموال والحرم وعلى الفصيح والأعجم .

(١) بوفد الامام أحد أنبائه الى إحدى الجهات لجمع ضرائب معنصلصالحه.

ثم من المصائب فى دين الاسلام هؤلاء الذين ولو منصب القضاة والأحكام .. فانه فى هذه الأزمنة التساهل فى تولية القاصرين ولا سيما اذا كان أبوه قاضيا فانه يولى ابنه وان كان من أجهل الجاهلين .

والأصح فى المذهب انه لا بد ان يكون من المجتهدين . كآته ميراث فرضه الله من فوق سبع سماوات . ثم يفرض لهم فى المقررات ما يكفى أمة من ذوى الحاجات من زكاة وغيرها .

ثم يقبضون أجرا واسعة على طيافة شجار أو رقم علامة أو احضار (١) . وقد أجمعت الأمة كما نقله جماعة من الأئمة انه يحرم على الحاكم قبض أجرة من المتخاصمين حيث انه جرایة فى بيت المال وانه لا يستحق ذلك الا مع نفعه لعباد الله تعالى بالأقوال والأفعال . فصاروا بهذا أشر من العامل وأعظم أعوانه على الباطل لأنهم يحملونه على ظلم الرعية بلسان الحال ويشاركونه فى ظلمه بلسان المقال .

فان كان الامام غير عارف بهذه الأطراف فقد رفعناها الى سمعه وعرفناه من الحق ما أوجب الله علينا من تعريفه به ورفعته .
فيجب عليه وعلى كل من لديه ازالة هذه القبائح والستر والطمس لهذه الفضائح .

(ثم انه يجب عليه تسهيل الحجاب وتقريب نفسه من ذوى الحاجات والطلاب) .

ويجب عليه اتخاذ أعوان صالحين ووزراء من المتقين ان نسي ذكره وان ذكر أعوانه . أهل عفة عن أموال العباد ومخافة ليوم المعاد .

لا كهؤلاء الوزراء الذين همهم جمع الأموال والتجبر والتكبر والجبروت فى جميع الأحوال .

(٢) وانتهى الامر فى العهد البائد أن كان الجند ينزلون على المتخاصمين بأجرة يومية وحق الطريق والطعام والشراب والقات والمداغة . ويبقون هكذا يمتصون دماء الرعوى حتى تلوح لهم قضية أخرى أو بنضب ما عند عرقهم .

ان ورد شك ما انصفوه أو وفد وافد ما أكرموه ولا أعانوه ولا
عاونوه .

رابعاً : الخطاط :

(ثم من أعظم الطامات المغضبات للواحد القهار خرق بيوت المسلمين
واخراجهم منها ليسكن فيها من ورد من الأشرار فإنه قد يخرج الرجل من
أهل صنعاء من مسكنه ويناله البلاء في أهله وماله وبدنه ..
يدور في الأزقة فلا ينفعه أحد ولا تلحقه رافة ورقة) .

خامساً : الأوقاف :

(ثم من المنكرات هذه الأوقاف في اليمن جعلت بنظر بعض المترفين .
قصارى همه سلب غلاتها وان اسخط رب العالمين لا ينظر رقبة الوقف ولا
الموقوف عليه ولا يجعل عليها نائبا الا من يركن عليه .

وما بهذا أمر الله العباد ولا هذا فعل من يخاف المعاد) .

سادساً : الدراهم « العملة » :

(ثم من أعم البلايا هذه الدراهم المضروبة والأسماء المكذوبة من المئين
والألوف . وكل يوم لها صرف أو صروف .

وكل هذا خيانة للمسلمين وتجارة في أموالهم وقد قال صلى الله عليه
وسلم « لعن الله من كنز سكة المسلمين الا من بأس ولعن المتاجر في رعيته
من السلاطين » .

ولا يخفى ان ضررها عام لأهل التجارات وأرباب الصناعات وذوى الفاقة
والحاجات .

والواجب الا تزداد على وزن وعدد معلوم فان زيادتها نقص في مال كل
مسلم ضعيف مهضوم) ..

وكانت هذه تجارة الأئمة يغيرون فى كل عام مرة أو مرتين وزن العملة وشكلها والشعارات المضروبة عليها وتلغى العملة القديمة وتفقد قيمتها فى الأسواق .

ولعل هذا من المرجحات التى دعت المهدي صاحب المواهب الى أن يغير لقبه من الناصر الى الهادي الى المهدي .. وبلغ به الحال ان غير العملة ثلاث مرات فى شهر واحد كما روى ابن الأمير .

ولما تنازل المنصور حسين وبقيت السلطة فى يدى القاسم الرهيب لم يجد المنصور وسيلة يستكثر بها الأموال ويعطى بها نفقات ابهة الملك سوى العملة ففتح دار الضرب فى صنعاء وفتح أخرى فى كوكبان . وحدث أن أصبح صرف الريال الواحد يقدر بالمكيال ..

وكان اليهود هم الذين يتولون هذه الصناعة وغالب الظن أنهم كانوا وراء هذا الفساد لأنه يعود عليهم بالربح من جهة ويحمى عمال سك النقود من التعطل .

ويختتم ابن الأمير رسالته العظيمة الثائرة بذكر العلماء الذين وقعوا عليها واسم الفقيه أحمد بن محسن الرصاص الذى سلمها الى المنصور بعد ان (دور بها على علماء صنعاء) .

بقى لك فى أعناقنا موضوعان وعدناك بهما عند تقديم فصول هذا القسم .

أما أحدهما وهو افساد الأئمة للقبائل فقد مر بك منه الكثير مما أصبح إعادة الكلام فيه قد يشق عليك .

حقا ان هناك الكثير مما لم يقل بعد ولكن الاستطراد بعد ذلك سيضاعف من عبء الطبع والنشر والقراءة ..

وأما ثانيهما وهو السجون وما فيها فنعود الى ابن الأمير أيضا لنقتطف لك من رسالته « الحراسة فى مخالفة المشروع من السياسة » ما يأتى :

(ليس الذى اتخذه عمر — رضى الله عنه — مثل هذه السجون التى
تعرفت بين الناس من التضيق على من فيها ومنعهم من الخروج والدخول
لأداء الصلوات ، وقبض المال من المسجونين ولو ساعة يسمونها « رسامة »
وصارت الجبوس الآن مستغلات للعمال يقبلونها من الأشرار بالأموال وتبعوا
« الحجاج » فى اتخاذ القيود والأغلال . فانه أول من أحدث ذلك فى
الاسلام ..

ولا يخفى على متشرع أن الحبس هذا الذى اتخذه الناس عقوبة من
أعظم العقوبات فانه مشتمل على هتك عرض المسجون وعلى قبض مال منه :
أولا أجرة لمن يأمره الأمير أن يذهب به الى الحبس ثم أجرة السجان .
ثم منعه عن التكسب لمعاشه وقد ينضاف الى ذلك تقييده وتحكم
السجان فيه وتهدهه بإدخاله محلا مظلما يسمونه « المطبق » حتى يسلم مالا
يدفع به عن ادخاله ذلك المحل . ثم منعه عن كل شئ حتى يمنع عن دخول
ولده أو والده اليه) ..

وكل هذا الذى رواه ابن الأمير عن السجن لم تتغير حقيقته ولا أسلوبه
فى عهد يحيى وأحمد . بل تضاعفت المظالم الى درجة لا تطاق .

فكان السجان يبائع فى القيد فى أول الأمر قيد للقدمين وآخر لليدين
وثالث للعنق ورابع يجمع اليدين الى القدمين ثم توضع « الشالات » فى
قيود الرجلين حتى تمنع المسجون من الحركة وتلصقه بمكانه .

ثم كل تخفيف عنه برشوة . والطعام يأتى برشوة والخروج من « المطبق »
برشوة . والخروج من باب الحجرة الى الفناء أو سطح القلعة له شن ، حكى لنا
القاضى محمد السياغى انه سيق فى احدى المرات التى قبض عليه فيها مع
سبعة من الوجوه فى جنزير واحد . وطوفوا بهم فى البلاد حتى وصلوا صنعاء
ثم وصلت أوامر الطاغية أحمد بأشخاصهم الى تعز سيرا على الأقدام .

فكانوا يتوسلون الى الشرطة أو « العكفة » ان تكون قيودهم فرادى حتى يتمكن الواحد منهم من قضاء حاجته ولكنهم أبوا عليهم ذلك .
وامتنعوا عن الطعام والشراب فى الطريق حماية لأنفسهم من هذا الحرج .
والتقى بهم أحد أصدقائهم فأمدهم بمبلغ من المال قدموا منه رشوة لجلاديهـم عشرة ريات عن كل فرد فى سبيل ان يسمح للواحد منهم بالانفراد عند الضرورة ..

هل هى وحشية ؟

هل هى شريعة الغاب ؟

كلا . بل هو الحكم فى ظل أسرة القاسم بن الرشيد .

الفصل الرابع

رَجُلُ السَّلام

كانت الدعوة الى السلام متأصلة فى نفس ابن الأمير وكان الرجل يؤمن بأن السلام هو سبيله الى نشر مذهبه :

ومن ثم يتساقط نفوذ الأسر المحتكرة للحكم وتقلم أظافرهما وتخف وطأتها عن البلاد . وتراجع نفسها فى تلك المظالم التى تصبح الناس بها وتمسيهم .

فلو أتيح للناس الفترة التى يهدأون فيها ويستمعون الى كلمة الحق لأزاحت عن أبصارهم غشاوة التضليل وأفاقوا من ثباتهم العميق على حقيقة اليمن العظيم وما صار اليه ..

واليمن فى حياة ابن الأمير لم يهدأ أبدا ولم تخمد فيه نيران الفتن .

وكان الأمر فى بدايته أمراء يتصارعون على الحكم ويحاول كل منهم أن يقنع قبيلة من القبائل بدعوته لتدافع عنه ان هوجم ولتجارب له ان قويت آماله ..

وكانت النخوة العربية تجعل هذه الحماية للاجئ أمرا تفخر به القبيلة وتعتز .

وكاد الخلاف، ينتهى وتعود القبائل الى حياتها تزرع وتتخاصم ولكن كثر الاغراء من الظامعين وتكالبوا على القبائل ومنوهم الأمانى وتغافلوا أولا عن جرائم الطريق التى ترتكب ثم شجعوا عليها ثم اشتركوا فيها .

وأصبح هذا الصراع محبباً الى النفوس فيه كل متعة المحارب الذى لا مبدأ له ..

أليست هذه المدن تباح لهم فيجوسون خلالها وما أعجبهم فهو لهم حق مستباح .

النساء تسبى والصبية تمتلك .. الفرش والمتاع والحيوانات حتى أبواب المنازل ونوافذها اذا راقت فى العيون حملت مع المغيرين .

وتكشف الأمر للناس .

ما لهؤلاء الأمراء يثورون فنشور معهم ويهدأون فنهذاً .

ومن ذا الذى أعطاهم حق استباحة المدن والقرى وما فيها من ذخائر .

وبدأت الموجات تتحرك مندفعة اندفاعاً تلقائياً تنهب وتسلب وتعتدى لصالحها .

واذا غضب الامام تقدمت قبيلة لتنهب ما نهب وتسلب ما سلب لصالح الامام .

ولكثرة الخارجيين فى المدن والحصون توطن فى أذهان القبائل ان للامام صنعاء فحسب ليس له من بلادهم شئ وليس عليه لبلادهم شئ .

فعليهم ان يدبروا أمورهم بوسائلهم الخاصة . وانا لنعلم ان هذا سيثير بعض العجب .

ولكن ليرجع الى القاب الأئمة فى ذلك العصر : صاحب صنعاء — صاحب المواهب — صاحب شهارة وليس فيهم واحد صاحب اليمن .

كما استقر فى أذهان الأئمة ان ليس لهم من الأطراف الا النذور والا فرصة تلوح لكسب صديق أو قضاء على غريم ..

وهل هذه حال يمكن أن يستقر عليها وضع شعب أو تلتئم به جراح أمة .

لهذا كان من رأى الأمير أن سكون الفتن ونسيان الشعب لها ولوا لفترة من الزمن هو فى حد ذاته كسب كبير تهدأ النفوس وتختفى الثارات ويعى الشعب أوضاعه ويفيق من غفلته .

وما لا حت فرصة أمام ابن الأمير لصلح الا اهتبلها وقد عيأت الظروف له التدخل فى أربع مواقف كبرى وهدأت الفتن على يديه .

الصلح بين المتوكل وبيت اسحق :

أما الفتنة الأولى فهى التى اشتعلت بخروج بيت اسحق على القاسم الرهيب فى عام ١١٣٦ هـ .

وكان ابن الأمير من رجال المعارضة الذين ينددون بالقاسم وسياسته فى الرعية ويأخذون عليه سبقه الى الدماء وسلبه للاموال وأكله للاوقاف والزكاة واستعماله وزراء السوء وقضاة الفساد .

كما يأخذ عليه تجزئة البلاد الى اقطاعيات أفسدت الراعى والرعية .

وكان من المتوقع أن يكون ابن الأمير مع الخارجين ولكنه ينأى بدعوته الى كحلان وحتى يقطع على السنة المتاولين والواشين خروجه الى كحلان عاد ليواجه القاسم وليصحح فكرة الناس عنه فليس الرجل طالب ملك أو منافسا عليه ولكنه داعية اصلاح .

ومن ثم توفرت له صلاحية التوسط بين الفريقين :

وليس اقدر من ابن الأمير على هذا التوسط :

كان يهاجم القاسم فى ظلمه وينتقد سيرته وكان القاسم يهابه ويحسب له كل حساب ..

وكان صديقا لأبناء اسحق ولكنه لم يرض عن تصرفاتهم ونهبهم للبلاد .
وسافر ابن الأمير مع جماعة من العلماء الى محمد بن اسحق وما زالوا
فى مفاوضات الصلح حتى عادوا به وسكنت هذه الفتنة ..

خروج الحسين على أبيه :

وفى آخر أيام القاسم أحس الحسين ابنه خطرا من ناحية أخيه أحمد فى
تعز وكان هذا الخطر تؤكد الأيام الماضية .
فقد كان القاسم يؤثر أحمد على حسين ويختص الأول بعطفه وبره
وبكل ما يوفر له الراحة والهناء .

وفى الوقت نفسه أهمل الحسين اهمالا ظاهرا .
وكانت خاتمة المطاف هى تولية أحمد لتعز حيث الراحة والهدوء
والخيرات الكثيرة والشعب الوداع الذى يسهل قياده ويسلس .
ثم ها هو ينبذ الحسين فى عمران حيث القلاع الساحقة والحصون
المتكاثرة والقبائل التى لا تهدأ ثورتها ولا تلين قناتها ..
وكان أخوف ما يخافه الحسين ان تكون هذه مقدمات للبيعة لأحمد
بعد هذا الشقاء الطويل .

وحرك الحسين القبائل من حوله فتحركت معه وسار بها الى صنعاء لا
تبقى فى طريقها ولا تذر .

وأصبحت العاصمة على أيام رهيبة يتدفق فيها الرعايا عليها من القرى
المجاورة يلتمسون ملجأ يسوقون أنعامهم ويحملون متاعهم ويتبعون نساءهم
وأطفالهم ونشط عمال القاسم فرحين موفورين . يقدرون المكوس والاتاوات
على اللاجئين فى قسوة وجشع .

وترقب الناس أن يسمعوا صوت نفير الحرب أو دفاع عن العاصمة التى
توشك ان تسقط فى أيدي المهاجمين الجياع . ولكن خاب كل أمل .

ويجمع ابن الأمير علماء صنعاء ويصرهم بواجب العلماء فى هذه
الفترات العصيبة .

وساقهم الى القاسم وألزموه أحد طريقين :

اما أن يدعو ابنه للصلح .

واما أن يخرج لابنه للحرب والدفاع عن الشعب .

وينتدب القاسم ابن الأمير رسولا للصلح . وكان القاسم قد أعدها خدعة
للوثوب على ولده فى غفلة من أمره .

ويفاجأ رسول السلام بالحرب تدور من حوله وهو يجادل ويقنع ويعظ .
فيسارع بالعودة الى القاسم وبواجهه برأيه فى الخيانة التى ارتكبها .
ويقنعه بسواصلة رسالته .

ويعود ابن الأمير الى الحسين ليقنع الولد أن يعود الى عمران برا بأبيه
ورأفة بالضعفاء وحقنا للدماء وصونا للحرمت وضمانا لمستقبله .

وينفذ كلام ابن الأمير الى قلب الحسين فيسلم به ويعزم على تنفيذه .

ولكن جاء جماعة أخرى من العلماء وصلت اليه لتخوض فى أمر الصلح
فيحتقر حديثها ويترفع أن يجرى معها فى حديث ويعمى عليها طريقها ويردها
الى سيدها فى صنعاء .

ثم يؤذن فى القبائل بالعودة ومن « حدة » فى طريق عودته يكتب الى
أبيه بسترضيه ويأسف اليه .

وسكنت الفتنة .

الحرب بين ملك تعز وملك صنعاء :

كانت العلاقة بين أحمد بن المتوكل أمير تعز وبين الحسين بن المتوكل
ملك صنعاء كما قد علمت .

أفسدتها الأيام وزادتها الحوادث وحشة .

وبعد أن استقر الحسين على عرش صنعاء ظل أحمد متربعا على امارته
فى تعز لا ينازعه فيها منازع ولا سلطان لصاحب صنعاء عليه .

وفى عام ١١٥٣ هـ زادت الوحشة بين الأخوين مما دفع الحسين الى أن
يؤلب قبائل المشرق على أخيه وزادت الأمور سوءا .

فما كان من أحمد الا أن أعلن الخلاف واستولى على خراج « المخا »
أعظم دخل للامام فى ذلك الوقت .

ثم امتدت يده الى أب وبلاد العدين وبدأت حرب طاحنة بين الأخوين
شقت على الناس وأحاطتهم بالأهوال حتى تمنوا أن يخلصهم الله من الأخوين
جميعا .

فكل واحد منهما قاس لا يرحم ، شرير لا يعرف الخير ، طامع لا تنتهى
أطماعه .

ثم هذه الحرب التى نشبت بينهما لا يعرف الناس لها نهاية كلاهما
مستقر فى مملكته مطمئن على عرشه محوط بالجوارى والغلمان وصنوف
الترف وحاشية السوء .

والشعب هو الذى يقاتل ويقدم الضحايا ، والمدن والقرى فى طريق
الجيوش تغدو عليها ناهبة وتروح عليها سالبة .

وماذا على الامام وأخى الامام ان استمرت هذه الحرب عشرات السنين
ولا أقل من أن يشغل الشعب بها عن صاحب صنعاء وصاحب تعز .

ولسنا نرى تصويرا لشقاء الشعب بما كان أدق من هذين البيتين اللذين
يصور بهما الشاعر حالة الشعب والجروح الدامية العميقة التى أصابته من
جاء العداء بين هذين الأخوين اللدودين :

اخوان قد سقيا بماء واحد والفضل خال من كلا الأخوين
جرحا صدور العالمين فما لها من مرهم الا « دم الأخوين »

وبلغت الأمور ذروتها ويتقدم ابن الأمير يدعو الحسين الى تسكين هذه الفتنة ويتصل بوزرائه يشرح لهم سوء الحال ويلقى عليهم التبعة ويدفعهم الى مؤازرته فيما يحاوله مع المنصور حسين .

وسافر ابن الأمير الى تعز والتقى بأحمد وسكن ما بنفسه والزمه بقبول الصلح .

وسكنت الفتنة .

مرة ثانية ملك تعز وملك صنعاء :

عادت الفتنة من جديد بين أحمد وأخيه فى عام ١١٦٠ هـ وظلت قائمة حتى توفى الحسين فى عام ١١٦١ هـ وتولى ابنه العباس متلقبا بالمهدى .

وفى هذه المرة يدعو أحمد لنفسه اماما على اليمن : اليمن الأسفل لا يطمع فى مزيد عليه . وكان يرد عنه كل وافد من الشمال .

وانقسم اليمن انقساماً خطيراً لا سبيل الى رأب صدعه .

ويتقدم ابن الأمير مرة أخرى ويسافر الى تعز وما زال بصاحبها حتى يعود بالبيعة لابن أخيه .

ونجا اليمن من انقسام كان كفيلاً بأن يهدد وحدته الى اليوم .

محاولة الاغتيال :

ويتصل بهذا الفصل محاولة الأمير التوسط لبعض العساكر من شهارة لدى المنصور حتى يستعملهم ويفرقهم على البلاد ضمناً لرفع أذاهم عن بلاد وصاب ولعدم تجمعهم فى مكان واحد .

والسبب فى ذلك ان الحسن بن القاسم بن المؤيد كان يختص باقطاعية بلاد وصاب والنظر فى جميع أعمالها .

وأمثال الحسن لا يكلفون أنفسهم مؤنة مباشرة اقطاعهم بأنفسهم لذلك فقد عين لها عاملاً من قبله ابن أخيه على بن عبد الله بن القاسم .

واصطحب على جماعة من جند شهره ليعاونوه .
واشتد ظلم على وجنوده على أهل وصاب وبلغ ابن الأمير ذلك .
فتوسط لدى الحسن وناصحته (بأنه لا يحل بقاء تلك البلاد تحت حكمه اسما وليس له التصرف فيها الا وهما) .
واقتنع الحسن بذلك وارجع الاقطاعية الى المنصور حسين . وكان من جراء هذا طرد جنود على بن عبد الله أهل شهارة .
ورجع الجنود الى بلادهم وعرفوا السر في تشريدهم فدبروا أمرهم بليل وفاجأوا ابن الأمير في داره ليقتلوه .
ولكن الرجل بقلب مطمئن يستقبلهم ويحاورهم حتى سلس قيادهم في يديه . ثم يتوسط لهم عند المنصور ليستعملهم ويوزعهم على البنادر . وقد تم للرجل ما أراد .

الفصل الخامس

ابن الأمير وبيت اسحق

— ١ —

مر بنا الكثير من علاقة ابن الأمير ببيت اسحق فقد كان ابن اسحق أستاذه وكان من تلامذته الحسن بن اسحق واسماعيل بن محمد بن اسحق . وقد بهر محمد بن اسحق تلميذه بعلمه كما أعجب ايما اعجاب بذكاء اسماعيل والحسن وانكبا بهما على العلم والتحصيل مدة تلمذتهما التي طالت . حتى ان اسماعيل واصل هذه التلمذة سبع سنوات . وتحولت الصلة الى صداقة قوية متينة يبادلون ابن الأمير حبا بحب واعجابا باعجاب وتقديرا بتقدير .

ولما مال أبناء اسحق الى جانب الثورة على عمهم صاحب المواهب بعد أن تأكدوا من خسران جانبه وافلات الموقف من يديه . وكان ابن الأمير ممن يشارك قادة الثورة رأيهم فيها يعددون من ظلم وما يتطلعون اليه من اصلاح .

وقوت هذه الفترة ما بين ابن الأمير وبين أصدقائه ولعل اشتغال الجماعة بالصراع الذى دار بينهم وبين القاسم عندما ولى الحسين بن القاسم الشهارى قد باعد بين الأصدقاء قليلا .

وكان القاسم يدعى ان اضطراب الأمر سببه تسلط بيت اسحق على الحسين وسببه أيضا امتداد اقطاعياتهم الى كثير من البلاد .

وأخذ القاسم يقلم من سلطان الحسين ومن اقطاع بنى اسحق حتى انتهى أمر الملك اليه .

ولم تكن هذه النهاية لترضى أصحاب ابن الأمير فعادوا الى مواطنهم غير قانعين بما خلص اليهم من اقطاع وغير مقتنعين بولاية هذا الجاهل الذى لا يملك من مسائل العلم قليلا ولا كثيرا .

لذلك أخذوا يتحينون الفرص للوثوب على منافسهم الرهيب وقد أعطى القاسم خصومه فرصا كثيرة بالسيرة التى سارها فى الرعية بقلب لا يعرف الرحمة اذا سلط على الأرواح .

وبأيد لا تعرف القناعة اذا سلطت على الأموال . وبوزراء وعمال وقضاة دربهم صاحب المواهب حتى أصبحت عقولهم تنفى العدل ولا تعرف اليه طريقا .

وبدأت ألسنة الطامعين تحرك غيظ القلوب وتحرك أكثر من هذا غيرة المخلصين للشعب المتحسرين عليه وعلى ما هو فيه .

وافطلقت القصيدة الرائعة :

سماعا عباد الله أهل البصائر .

وخرج بيت اسحق وخرج معهم من خرج وكان لابن الأمير موقف معين .
نصحهم بعدم الخروج لأسباب :

١ — ان القاسم يملك من الأموال والذخائر ما يستطيع ان يحرك به المعركة لصالحه .

والغلبة فى مثل هذه المعارك لمن يملك أكثر لا لمن كان الحق فى جانبه . لأن الشعب قد فقد الثقة فى الجميع .

٢ — ان كل نزاع على الحكم جناية على الشعب الوادع المسكين وترويع له وازهاق لأرواح بريئة وانتهاك لحرمت يجب ان تصان واغتصاب لحقوق يجب ان تحترم .

٣ — ان العلاج لا يتمثل فى خلع امام وتعيين امام لأن الظروف المحيطة كلها لا تساعد على اصلاح الوضع .

والأمل الوحيد هو استمرار المعارضة وتقويتها حتى يستيقظ الشعب ويرتدع الحاكمون .

ولكن القوم ظنوا ان هذا الذى يقال لن يحول بين ابن الأمير وبين الخروج معهم ..

وخيب ابن الأمير آمالهم وكان الرجل محقا فيما ذهب اليه فقد حدد بقراره هذا الفارق الكبير بين طريق المصلح وطريق الطامعين .

وآثر ان يلجأ الى كحلان حتى تنتهى الفتنة .

واذا بالاخبار تطارده ان الناس جميعا وفى صنعاء بالذات وفى بلاط القاسم تؤكد انه ممن خرج مع بيت اسحق .

ويتخذ الأمير قرارا آخر لا يقل عمقا وحكمة عن قراره الأول .

قرر ان يعود ليواجه القاسم . والتقى بالقاسم فى مدينة « الروضة » على سلم القصر .

وغالب الظن ان القاسم لم يكن رأى ابن الأمير من قبل ولذلك عندما عرفه به وزيره احمر وجهه غضبا .

ولعل القاسم قد احنقه ان التهمة بخروج الأمير قد سقطت عنه . وكان يتمنى ان يأخذه بها لا سيما بعد ان علم انه ناظم القصيدة .

لذلك فقد واجهه بتهمتها .

وكانت اجابة الأمير على تلك التهمة بارعة ودقيقة فى الوقت نفسه .

(هل وجدتها بخطى أو قامت لك شهادة انها لى أو كذب عليك كما قيل لك انى مع بنى اسحق وتبين لك انى فى كحلان) .

وافلت الأمير من بين براثن القاسم واسرع ليلتقى بأبيه فى صنعاء .

وتبلغه أخبار انتهاب « الصلبة » وبلاد « حفاش » فيكتب الى اسماعيل بن محمد بن اسحق تلك القصيدة التى عرضنا لها من قبل .

أمثلك يرضى بارتكاب المظالم — ونهب الرعايا وانتهاك المحارم
ويجيبه اسماعيل بما يؤكد نظرة ابن الأمير فى أفراد العصاة جميعهم :

أمكن أن ينهد ركن المظالم بغير القنا والمرهفات الصوارم
وتذهب آثار الضلالة فى الورى بدون انتهاب وانتهاك محارم
يتوسط فى الصلح بين القاسم وخصومه حتى يتمه وتعود الأمور الى ما
كافت عليه .

ويتولى الحسين بعد موت أبيه ويعيد محمد بن اسحق دعوته وتعود
الحروب والفتن من جديد ويتنازل الحسين لمحمد ويبيعه ثم لا يلبث أن
ينقض عليه حتى تناول أبناء اسحق واحدا واحدا على مدى عامين من
الحرب الفاجرة المجردة عن المبادئ .

وقد علمنا أن الأمير عندما توقع هذه الفتن سارع الى بيت الله
الحرام ليحج وليباعد بينه وبين بنى عمه وأقام بعد الحج فى الطائف .
فجاءته الأخبار بتغلب أصحابه على اليمن .

ويكتب اليهم من الطائف قصيدة بلغت الغاية فى صدق النظرة
وعمق الفكرة .

قصيدة تشيع السخرية منها وتؤكد ما سبق أن حدثهم به من قبل
عندما خرجوا فى عهد المتوكل :

ان تغيير الملك لا يغير ما نحن فيه . لأن تغيير العنوان لا يغير الموضوع
وتؤكد هذه القصيدة أن ابن الأمير كان على مبادئه لن يتحول عنها
سواء كان المتربع المنصور حسين أم الناصر محمد بن اسحق .

وان المصلح الكبير سيواصل مهاجمته لفساد المفسدين وقسوة
الحاكمين .

وليتأكد من شاء أن يستزيد تأكيدا من القصيدة التي أرسلت من
الطائف الى أصدقائه اذ يقول :

أخبرونا تفضلا ما الذى كا	ن وماذا جرت به الأقدار
هل وليتم أمر العباد يعدل	وأزلتم ما قد تجاروا وجاروا
وهدمتم ما شيدوا من ضلال	وأشدتم ما شاده الأخيار
قسما ان فعلتم ذا وهذا	ان أتتم فى عصرنا الأبرار
وتركتهم قبض المكوس وقلتم	ان أخذ المكوس عار ونار
وقبضتم أعيان ما تخرج الأار	ض كما كان يفعل المختار
وصرفتم أعيانها فى أناس	خصهم فى كتابه القهار
وأثانا بصيغة الحصر فيهم	أفهل عندكم على ذا غبار
وصنعتهم فى أنصباء المواشى	ماروته فيها لنا الاخبار
وجعلتم وزيركم كل بر	وعزلتم من كلهم أوزار
ثم وليتم العدول رعايا	كم فكم قد وليهم الأشرار
كل يوم يلقون كل عناء	وعليهم رحي الضلال تدار
تارة يأتى المتمر بالجو	ر وأخرى القباض والعشار
وانظروا كل ما حواه « سماعا »	فهو نظم فى طيه الأسرار
قد أتى فيه كل ما قبح العقف	ل ونص الكتاب والآثار
فلهذا أحلت نصحي عليه	عند أن أعجزتنى الأشعار
كيف يقوى على النظام فؤاد	شنته الهموم والأفكار
وترامت به الديار فترميم	ه ديار وتلتقيه ديار

وها قد رأينا أن ابن الأمير يؤكد أن بيت اسحق وغيره من آل القاسم
« العصابة » عاجزون عن اصلاح الوضع الذى وصل الى غاية من التعفن
والفساد .

هل يستطيع ابن اسحق أن يعدل عن جباية المكوس ؟

وهل يستطيع بيت اسحق أن يعيد صرف الزكاة الى مصارفها التي حددها الكتاب الكريم ؟

وهل سيعيد بيت اسحق تقدير زكاة المواشى على الأنصبة التي حددتها أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

وهل يتخلص بيت اسحق من وزراء السوء وعمال السوء وقضاة الجور .

وأن يولوا أمر الشعب خيار الناس ؟
وهل يأتى اليوم تعف فيه « العصاة » فتختار « متمرها »
« وقباضها » « وعشارها » من عدول الناس الذين يفرقون بين حقوق الدولة وحقوق الشعب ؟

لقد آمن بيت اسحق مع ابن الأمير بكل ما جاء فى قصيدته التي قذفوا بها فى وجه القاسم الرهيب ونغنى بها :
« سماعا عباد الله » .

وكانوا يتخذونها أمام الشعب دستورا لاصلاح أداة الحكم . كما يتخذونها حجة على الفساد القائم فى البلاد .

ابن الأمير يؤمن بأن بيت اسحق لن يختلف فى قليل أو كثير عن بيت القاسم الرهيب .

فكلهم ينتمون الى القاسم بن الرشيد .
وكلهم يزعمون بأنهم رأس الورى والناس كالأخفاف .

— ٣ —

وتنتهى الفتنة ويعود محمد بن اسحق الى صنعاء ويلجأ ابن الأمير الى شهارة ويستقر الحال بين ابن اسحق وبين المنصور ليعيش طليقا فى صنعاء وله اقطاعه الكبير يجبى اليه ويعين فيه عماله دون تغيير .

وان كان اخوته وأبناءؤه مضيقا عليهم فى سجن المنصور .

ويبلغ ابن الأمير ما يفعله عمال ابن اسحق فى اقطاعياته وهو بشهارة فيكتب اليه فى رقة وأدب ويجعل التساؤل والحوار سبيله الى النصيحة وكلمة الحق التى التزم بها :

فها هنا مسألة أوردت	من صاحب برحقى وفى
قال أليس الظلم فى شرعنا	محرم قلت له بل وفى ...
قال وما يأتيه عمالنا	تنكره أو لست بالمنصف
قلت ولا ينكره جاهل	فلا تسمنى خلق الأغلف
قال فهذا عز أهل الهدى	لكل ما يأتونه مقتفى
وقد دعا الناس الى ضدها	بمقبول العمال والمشرقى
وكم رسالات له جرت	ترشف بالاسماع كالقرقف
ونال منها بعض ما رامه	فى قبض ما يصرف فى المصرف
بلاده مثل سواها وسل	ان كنت للمحسوس لم تعرف
وكل ما يقبض من مالها	يصرفه فى نفسه كالصفى
لا فرق فى التحقيق ما بينهم	وكل من يفرق لم ينصف
فعدئذ أفحمنى قوله	وكنت قدما أفحم الفلسفى
فقلت هبه مثلما قلته	ما لك والتفتيش للمختفى
هل حاسد أنت لما ناله	أم طامع فيما لديه وفى
فقال بل جبا وخوفا على	شيبته من وقفة الموقف
قلت أراه عالما ان بسره	مقامه ما قلته يشقى
فقال هذا مقصدي لا سوى	فارو كلامى غير مستكف

(٤)

والحق يقال ان أبناء اسحق لم يسخطهم على ابن الأمير تلك المواقف الصارمة فقد عرفوا الرجل عن كذب وعرفوا مدى ايمانه برسالته وأنه

لا يصدر عن هوى ومنافسة وانما يقول ما يؤمن به • لا ينبغي من وراء قوله
الا الخير العام لبلده وأبناء جلدته .

لذلك فقد اتصلت أسباب الود بينهم وبينه ولم تنقطع المراسلة شعرا
ونثرا .

وكان الحسن واسماعيل يجدان فى هذه الرسائل سلوتهما فى
السجن يشكوان مما يلقيان ويصوران مشاعرهما الى صديق وأستاذ وعلم
من أعلام الاصلاح .

وكثيرا ما كان الحسن يلجأ الى الكتابات والتورية الى ما يريد حتى
اذا وقعت القصائد أو الكتب فى أيدي الجلادين لم يفهموا ما تنطوى عليه.

وكان ابن الأمير وحده الذى يفهم عنهم ويفهمون عنه •

فى عام ١١٤١ أراد المنصور أن يوقع بابين الأمير فجمع العلاء وبعض
حاشيته وكتب عهدا عليه لابن الأمير أن يعود الى صنعاء معززا مكرما .

لا تمتد اليه يد سوء ولا يقربه الامام بأذى وأشهد الناس على عهده
وأكد العهد بالايمان المغلظة وتناهى الخبر الى الحسن بن اسحق فى
السجن فسارع الى أستاذه يحذره موريا .

وقد كان كان غريبا على ابن الأمير أن تصل رسالة الحسن قبل أن يصل
عهد الحسين .

وما أجمل أن نسوق الى القارىء قصيدة الحسن ورد ابن الأمير فهما
يقدمان مثلا رائعا لأدب الرجلين وشاعريتهما واخلاص كل منهما للآخر .
كما أنهما يمثلان أخلاق المنصور التى لم تختلف عن أخلاق سابقيه
وأخلاق لاحقيه من ملوك بيت القاسم .

يقول الحسن بن اسحق :

لا تتركبن الى أمانى الغيد فأمانها والله غير مفيد
وحذار ثم حذار منها أنها جبلت على ألا تفى بعهود

فلکم قتیل من سیوف لحاظها
لا یخدعنک لین منطقہا ولا
وکذاک ان قبلت شفاعۃ شافع
وضمانۃ الوجه المنیر عن الرثا
وکذاک ان کتبت أنامل کفہا
لا تأمنن فکم رأیت مؤمنا
فأقبل عداک الحب نصح مجرب
ولکم أسیر موثق بقیود
قسم یحف بأحرف التأكید
رأت الوفاء لذاک غیر سدید
سفه أعیذک بعد لطم خدود
خط الأمان مؤکدا بشہود
غدرت به والغدر شان الغید
قتلتہ بیض بالعیون السود

قال ابن الأمير :

(فوصلت الى هذه الأبيات الى شهارة قبل وصول كتاب الأمان من المنصور فازددت عجباً من سرعة وصول خبر ذلك الى المسجون مع التضيق عليه ومن سرعة وصول أبياته الى شهارة) .

وقد أجاب الأمير على هذه القصيدة بقوله :

مثلی یغر بنقش کف الغید
ما خلت ذاک النقش الا حیلۃ
مثل الشباک رأیت نقش اکفہا
ایاک اطلاق اللحاظ فأنہ
کم من أسیر فی سلاسل حبہا
ولقد خبرت الغانیات فما لها
سحقا وبعدا للغوانی ان غدت
أنا قد أطعتک یاعدولی فی الهوی
قد صنت طرفی أن یکون مسهدا
لو تسلك العشاق مثل طریقتی
تابع فد تک النفس کل نصیحة
هیئات ان أغتر بالتسويد
فی الاقتناص لقلب کل عمید
أقصدت بالتشبیہ صید الصید
سبب لأسر القلب بالتقیید
یعتاض طیب النوم بالتسہید
عهد فلم تقضت سعاد عہودی
کسعاد فی أخلافہا لعہودی
ورأیت رأى سواک غیر سدید
وحفظت عن جرح الدموع خدودی
لم یشتکوا هجرا وقبح صدود
واهد الغریب برأیک المحسود

ونرجو أن تقدم اليك فى المختارات التى سننهى بها هذا البحث
مقتطفات من قصائد ابن الأمير لبيت اسحق والتى تتدارك بها ما أغفلناه فى
هذا الفصل ايثارا للاختصار .

ولكن لابد لنا من أن نوضح نتيجة هامة للعلاقة بين ابن الأمير وبيت
اسحق .

فقد رأينا هذا البيت ينتهى الى اعتناق مذهب ابن الأمير والاخلاص له
والتفانى فى العمل به .

فما السر فى هذا التحول الكبير من بيت يعمل للملك ويصطرع عليه
مع القاسم وابنه • ويبدل فى سبيل ذلك خير بنيه وكل ذخائره وأملاكه الى
رجال يؤمنون بالكتاب والسنة ويواصلون العمل من أجلهما حتى أصبحوا
من الأسر التى جافبتها العصاة ونفتها من ساحتها كما جاء فى كلام
« المنصور » محمد بن يحيى جد الطاغية أحمد : عن الأسر الهاوية التى
أفسدها ابن الأمير :

لعل من الأسباب التى ساعدت على هذا التحول أن الجماعة حاولوا
الملك مرتين وفشلوا وإذا أردت الصدق فقد حاولوه ثلاث مرات اذا اعتبرنا
الحركة التى اشتركوا فيها عقب تنازل المهدي صاحب المواهب كآثت تهدف
الى التملك أصلا .

ثم السجن الطويل الذى عاياه أفراد الأسرة فى عهد القاسم ثم فى عهد
ابنه المنصور . وصلة ابن الأمير التى لم تنقطع ورسائله التى اتصلت تتحدث
عن الدعوة والفراغ الذى عاشه التلاميذ الأبرار فترة طويلة جعلت مبادئ
الأستاذ مجالا للتفكير الهادى المنقطع عن أطماع الملك فكان الايمان بعد
الاقتناع وكان الالتزام بالدعوة بعد ذلك لا يحدون عنها .

الفصل السادس

مختارات

لما كان اهتمامنا قد انصب على شعر ابن الأمير من الناحية السياسية والاجتماعية ولم يتسع المجال لدراسته من الناحية الأدبية . فاننا سنراعى فى هذه المختارات نماذج مختلفة من شعر ابن الأمير تعين الراغب على دراسة هذا الشعر .

كما أن هناك بعض الحوادث فى حياة ابن الأمير لم نشأ أن نعرض لها بالشرح والاطالة حتى لاتشوق على القراء ورأينا أن تتولى المختارات الإشارة الى هذه الأحداث .

وقد ألجأت الأحداث والظروف التى أحاطت بابن الأمير أن يحيل كثيرا من شعره ورسائله على تلاميذه فى شتى مدن اليمن . كما أن هناك قصائد قد نددت عن ديوانه الذى جمعه ابنه .

واننا نعد القارئ بأن نقوم بالبحث وراء هذا الانتاج حتى نستكمل منه ما نستطيع فاذا قدر لهذا البحث أن يطبع مرة أخرى شملت هذه المختارات مجموعة كبيرة من هذا الشعر ومختارات من الرسائل التى لم تنشر . ومقتطفات من الآراء الخاصة لابن الأمير التى عنى بها فى مؤلفاته :

ايمان عسيق

قال قدس الله روحه في مدح بارى البرية وضمنها من شعر أبى الطيب
المتنبى :

القلب أعلم ياعذول بدائه
والذنب أولى ما بكاه أخو التقى
فومن أحب لأعصين عواذلى
من ذا يلوم أخوا الذنوب اذا بكى
فوحق من خاف الفؤاد وعيده
ما كنت ممن يرتضى حسن الثنا
من ذا الذى بسط البسيطة والورى
من ذا الذى جعل النجوم ثواقبا
من ذا أتى بالشمس فى أفق السما
أسواه سواها ضياء نافعا
من أطلع القمر المنير اذا دجى
من طول الأيام عند مصيفها
من ذا الذى خلق الخلائق كلها
وأدر للطفل الرضيع معاشه
يا ويح من يعصى الاله وقد رأى
ورأى مساكن من عصى ممن خلا
كم شاهدت عيناك من ملك غدا
ملأت له الدنيا كؤوسا حلوة
ما طلق الدنيا اختيارا انما
جعلت له الأكفان كسوة عدة
ويضمه لا مشفقا فى ضمه
وهناك يغلق لحده عن أهله

ما غير داء الذنب من أدوائه
وأحق منك بجفنه وبسائه
قسما به فى أرضه وسمايه
ان الملامة فيه من أعدائه
ورجا مثوبته وحسن جزائه
ببديع نظى فى مديح سوائه
فرشا وتوجها بسقف سمايه
يهدى بها السارين فى ظلماته
تجرى بتقدير على أرجائه
لا والذى رفع السما بينائه
ليل فشابه صبحه بضيايه
وأنت قصارا عند فصل شتائه
وكفى الجميع ببره وعطائه
من أمه يستص طيب غذائه
احسانه بنواله وندائه
خلوا تصيح اليوم فى أرجائه
يختال بين جيوشه ولوائه
وسقته مر السم فى حلوائه
هى طلقته ومتعته بدائه
واللحد سكناء وبیت بلائه
حتى تكون حشاه فى أحشائه
بحجارة وبطينة وبمائنه

ويرويه الملكان قصد سؤاله
 فاذا أجاب بما يطيب فحبذا
 وإذا أجاب بـ « لست » أدري أقبلا
 ويرى منازل بهقعر جهنم
 يارب ثبتنا بقول ثابت
 أنا مؤمن بالله ثم برسله
 عن دينه لا عن سؤال سوائه
 ما بعده من روحه وجزائه
 ضربا له في وجهه وقفائه
 ويقيم في ضيق لطول عنائه
 عند امتحان العهد تحت ثرائه
 وبكتبه وبيعته ولقائه

وله رضى الله عنه وأودعها رسالة في الاستعاذة :

لو الثقلان الانس والجن أجمعوا
 وكان لها رب السموات ناصرا
 يريدون ايلاما لأصغر نملة
 لما ظفروا منها بأدنى مضرة
 وله رحمه الله تعالى كتبها الى الشيخ العلامة زين العابدين بن سعيد
 المتوفى رحمه الله الى طيبة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام مخاطبا
 أن يبلغ سيد الكونين صلوات الله وسلامه عليه وما شكاه اليه صلى
 الله عليه وآله وسلم وذلك من شهارة أيام اقامته بها في شهر
 شوال سنة ١١٤١ هـ وأرسلها الى الشيخ المذكور اذ هو نزيل طيبة
 المنورة :

يا قرير العين في بلده
 في جوار لا يضام به
 دمت في الأنعام متصلا
 أبلى المختار أحمد من
 سيد الكونين قاطبة
 عبده ترب النعمال له
 صلوات لا انتضاء لها
 وسلاما لا يعد ولا
 وتلطف بعد ذلك وقل
 فهو في بحر الذنوب وقد
 طيبة في السفح من أجده
 هذه الدنيا ويوم غده
 طارفا منه وفي تسلده
 يستمد الكل من مدده
 من أسير الشوق متقدده
 وهو في الأنساب من ولده
 بانتضاء الدهر عن مدده
 يدخل الامكان في عده
 هل لكم أن تأخذوا بيده
 كاد يلقيه الى زبده

أنكم ان تأخذوا بيده
 وله من بعد مسألة
 مطلب ما زلت أطلبه
 فتشفع لى الى ملك
 فى بلوغ النفس مطلبها
 تغسل الأكرار عنه عسى
 لست أرجو غير جاهك فى
 ياشفيق الخلق فى وطن
 وأتوا نوحا وآدم والبر
 ثم عاد الكل تحوك فى
 فكشفت الكرب وانقشمت
 وبك الآن استغاث فتى
 يا رسول الله كن عضدا
 كارها فارقتها وأبسا
 وأخا أنوار طلعتيه
 وصغيرا لست أعرفه
 وأخلاء ودادهم
 كل هذا فى رضاك لما
 من أحاديث لنا رويت
 واليكم كفه رقميت
 فأمدوه برفسدكم
 صلوات الله تغشيك بلا

لايفت الزند فى عضده
 أنت فيها كل معتمده
 أقطع الأيام فى رصده
 كل خير فهو من صفده
 وخلوص القلب عن كمده
 تشرق الأنوار من رشده
 حل ما قد حل من عقده
 شابت الولدان من نكده
 سل الأعيان من ولده
 طلب التخليص من كبسده
 سحب الاظلام من سدده
 أنت أنت الكل من عمدته
 لغرب الدار مبتعمده
 قطب أهل الأرض فى بلده
 ترشد الغاوى الى رشده
 قطعته الانسان من كبده
 ليس يخشى حل منعقدته
 صح من متن ومن سندته
 ما بها تقى كمنتقده
 من يراكم كل مستتده
 واقبلوا ما جاء من ثمده
 أمد يقضى الى أمدته

ولما تداعى القوم للهجوم على صنعاء لاخراج ابن الأمير بحجة أنه
 أفسد المذاهب قال :

هذا بلا ريب لكل أريب
 هذه سهام قد أصابت كل من
 عين الجهاد لمعتد ومريب
 أخطا الصواب فكان غير مصيب

زورا وبهتانا أتوا وتهتدوا
أو ليس رب كافيا لعباده
قد شابها الكفار فى أقوالهم
ولنخرجنك يا شعيب ومثله
فلنا برسل الله أحسن أسوة
وجهالة بالرب والمربوب
من كيد أهل الريب والتكذيب
لرسل بالتهديد والترهيب
قالوا للوط وهو غير مرب
ولهم بأهل الشرك شر نصيب

فخر وتواضع

وقال الى ولده ابراهيم يوما :

ولا تحسبن أنى أرى لى مزية
فما أنا الا تبنة حل لبنة
على الناس فيها رفعة وثناء
وبحر ظلام ليس فيه ضياء

وقال يتحدث الى ابنه ابراهيم وينصحه :

وماذا الذى نالنى منهم
غدا سترانى عند الاله
وتعلم أن الذى نالنى
من الناس قد حجبتوا طلعتى
فما القيل والقال مطلوبنا
وقل لى ما نال من يتصل
سباب الأنام وطول الملا
فمن يعتزل يغتنم راحة
ويخلو بمولاه رب الأنا
يجالس أعيان صحب الرسو
أناس هم الناس لا غيرهم
ترى عالما فاضلا عاملا
أما ألبسونى ثوب الجذا
عند الرسول أنال المنى
من الحبس أحسن ما يقتنى
وماذا الذى يشتهى فى اللقا
فهذا الذى عندهم لا سوى
بهم غير أنواع كل البلا
م وحمل الكلام الى ذا وذا
وروحا ويسلم من قد قلا
م وخالقهم وجزيل العطا
ل وأعيان أعلام هذا الورى
وقد نزلوا فى بطون الثرى
وملكا عظيما حوى ما حوى

وله نور الله برحمته ضريحه الى القاضي العلامة الحسن بن على البهكلى
رحمه الله معاتباً لترك المعاهدة وكان بينهما ألفة أيام الطلب فكتب اليه بعد
أن صار حاكماً فى أبى عريش :

سلا ان مررتم عن فؤادى على سلع
ولكن اذا عرجتما بتهامة
وقولا له هل جاز فى شرعة الوفا
وهيهات يفتنى بالجواز وانما
وماذا الذى أنساه ذكر أخوتى
فانهم سمو الرسالة رفعة
أزهده فى الخمول وانه
وحصل مملوكا ودارا وبغلة
وانى على ما كان يعهد خامل
فما أنا الا السيف كان قرابة
وانى فى روض العلوم مخيم
ودونك ذهني فهو يثمر دائماً
وتقطف من روض العلوم معارفا
ويطعمها أذهان قوم تسابقوا
وتأقت الى أوطان مكة هتتى
وقلت عسى ألقى خيلاً مهذباً
فلم ألق الا جاهلاً متصوفاً
يخطف للقلب الضعيف بدفه
والا فتى قد نال حظاً من العلى
ويحسب دعوى الاجتهاد محالة
كان كتاب الله والسنة التى

وقولا له طال الوقوف بهذا الربع
فعوجا بها واستفتيا حاكم الشرع
مقاطعة الاخوان أو صح فى السمع
أريد بهذا الزامه حجة القطع
وهلا رفا خرق التهجر بالرقع
لترفع قلباً هذه الهجر بالصنع
سما جل أترابى الى الجاه والوسع
وأسرج مركوباً وسرج بالشمع
ولم أتحول عن طريقى وعن وضعى
خمولاً فهز السيف تسمع بالوقع
مقيم على حصد الفوائد والزرع
فوائد تجنى فى الدفاتر للنفع
وفى طبق التعبير تبرز للدفع
الى طلب العليا يهشون بالطبع
فحملها ما ليس يحمله وسعى
يساعد بالانصاف فى الأصل والفرع
يرى أن أهل الأرض من خدم الشمع
وبالرقص والثوب المرقع والقبع
ولكن يرى التقليد من موجب الشرع
ولا فرق فى الظنى لديه ولا القطعى
أمرفا بها قد ألهدا باطن السمع

فقلت لنفسي ان في العود راحة
ولي جلساء لا يمل حديثهم
سأجعلهم ما عشت أهلي وجيرتي
وبعد اختبار الناس قد طاب لي ربي
يناجون طرفي بالأحاديث لا سمعي
وأسلوبهم عن مفرد الناس والجمع

شكوى

أشكو اليك نوى تطاول بي
تربت يدا دهرى يعاملني
فكأنني كرة تقاذف بي
قسرا بهذا البين قد رضيت
ولها اذا اشتتت الأسي ثقة
منه أرجى الوصل عن كتب
وأطال في همي وفي كربى
بالبعد عن وطني وعن تربى
كفاه في شرق وفي غرب
نفسى لخوف الذل في القرب
بالله فهو على الأسي حسبي
بالدار والأجباب والصحب

وله رضوان الله عليه جوابا على القاضي على بن اسماعيل بن محمد
العبدى عن أبيات كتبها اليه وتقاضى جوابها عند قدومه الى شهارة أيام بقاء
ابن الأمير فيها وهى :

الى الله أشكو من زمان محارب
عفونا عن الأيام كل النوائب
فقد حان لي منها الذى كنت أبتغى
فان كان هذا الدهر قد جاء تائباً
وأتخفنى من صعدة بأحبتى
رأى أنه قد حال بين أحبتى
فأبدلنى لما رثى لي ورق لي
سلوت به عن ذكر صنعا وأهلها
نظامك وافانى فكان لمهجتي
وصفت به حال الزمان وأهله
وما هذه الأيام الا مناهل
معاد لأمجاد كرام أطايب
فلا تخش منا بعدها عتب عاتب
ووافى ربانا خير خل وصاحب
قبلنا قبلنا منه توبة تائب
وآنسنى في غربتى بالأطائب
بصنعا وبينى بالنوى والنوائب
نجل كريم الأصل زاكى المناصب
وعديتها للدهر احدى المناقب
ألذ وأحلى من لقاء الكواعب
ولا عجب فالدهر جم العجائب
مكدرة هيات تصفو لشارب

إذا ما صفت يوما تكدر صفوها شهورا وأعواما بهذى الشوائب
فصبرا على فقد الأحبة والنوى ستحمد عقبى الصبر من كل غائب
فعما قريب تطلع الشمس بالهنا وتكشف عنا غيم هذى السحاب

بيت اسحق

كتب الحسن بن اسحق من سجن صنعاء الى ابن الأمير فى حصن شهارة
فأجابه :

أتى من أسير للغريب خطاب وقد حال بين بيننا وحجاب
أتاه فأحياه وقد كان ميتا يكاد عليه أن يهال تراب
فكل شراب ليس فى الذوق سائغ وكل طعام فهو عندى صاب
ولم لا وفى بطن السجون أحبة لديهم فؤادى فى السجون مصاب
يعاتبه اسماعيل بن محمد بن أسحق ولعل هذا العتاب مرده الى
تخلف ابن الأمير عن الخروج معهم ضد القاسم وتوهم اسماعيل أن العلاقة
قد فسدت بينهم وبينهم وبين أستاذهم :

عجبا يعاتبني بلا ذنب من سار عن عيني الى قلبى
ولقد عجبت لطول عتبك لى أجهلت أنك ساكن القلب
أظننت أنك صرت منفصلا لما تأيت كسائر الصحب
قد ساء ظنى فى مودتكهم لما أطلت على فى العتب
أوهمتنى أنى سواك به وبمثل هذا كتبكم تنبى
كن كيف شئت فأنت أنت أنا وأنا وأنت أنا فما ذنبى
أوجب وأسلم أيما صفة أنا أنت فى الايجاب والسلب
أجهلت ما قد كنت تعلمه أيام سريك فى الهوى سربى
أيام نجنى كل فائدة من يانع التحقيق والرطب
وأنا أبشك كل شاردة وأريد أن ترقى على القطب
فاذكر فدتك النفس مجلسنا فى الدرس تذكر كنه ما أنبى
واجعل مكافأتى دعاؤك لى ان سرت منفردا الى ربى
ورحلت عن وطنى وعن سكنى وحلت فى الأكفان والترب

وله رحمه الله فى صدر كتاب من مكة المشرفة فى شهر ذى الحجة سنة
١١٣٩ هـ الى اسماعيل بن محمد بن اسحق :

ولقد ذكرتك عند أن جد النوى	والصحب بين مودع ومشيع
ولشفقيهم أدمع منهلة	كالغيث الا أنها لم تقلع
وذكرتكم لما ارتحلت مطيتي	ورحلت عن وطنى وجدت بأدمعى
وذكرتكم فى كل أسفارى فما	من منزل الا وأنت به معى
وسل الديار العامرات وأهلها	ان شئت واسأل كل أرض بلقع
وسل البروق الشاميات فانها	لا تستمد بغير نار الاضلع
أفتذكرونا مثل ذكرانا لكم	ياحبذا ان كان غير مضيع
أم قد تناسيتم عهدا بالحمى	ولياليا مرت بذات الأجرع
أيام تجمعنا العلوم فبحثنا	يصبو اليه كل حبر ألمعى
واذا تجاذبنا النظام اتى لنا	ما لم يمر الذ منه بمسمع
واليك يا عين المكارم والعلی	رقمت على عجل بغير تصنع
قصدا لتذكير العهد واننى	لم أنس ذكراكم بأشرف موضع

ويشترك مع أبناء اسحق فيما يتسابق فيه الشعراء وهذه أمثلة من وصف
القهوة بالمصطكى :

شبهت ما دارت به	بقهوة مثل الضرب
فنجانها بالمصطكى	اذا جاء فى لون عجب
بوردة قد فتحت	رشت بمحلول الذهب

وقال فيه أيضا :

قهوتنا رقت وقد	راقت لكل شارب
فنجانها بالمصطكى	جاء بلون عجب
مثل زباد نفشت	به خدود الكاعب

وله رضى الله عنه أيضا :

بمصطكى القهوة فـ سى فنجانهـ المذهب
سـطور لاذ فوقهـا بـرادة من ذهب

عتاب

وقال رضى الله عنه مجيبا على اسحق بن اسحق عن أبيات عتاب له
ولأخوانه وأولاده من آل اسحق كيف طاب لهم التنزه فى الرياض واخوانهم
فى السجن :

نظامك وافانا فضاق به الصدر	وضاق علينا المنزل الرحب والبر
ولكننا لما أصبنا بفقدكم	ومد عليكم ذلك العسر
فزعنا الى الروض الذى منه خلقكم	عسى يتسلى بالنظير لنا الفكر
فما زادنا الا جوى وصبابه	ومن نار شوقى كاد يحترق الزهر
على أنه لولا رجاء خلاصكم	سريعا لذاب القلب مما جنى الهجر
ولكننا فى كل حين ولحظة	نرجى لكم قربا يجود به الدهر
فتنجاب عنا ظلمة الهجر والنوى	ومن خمرة اللقيا يحل لنا الشكر
ونغفر للدهر المسىء ذنوبه	وئلبس هذا الكون مانسج الشكر

فى المواهب

وله رضى الله عنه الى والده رحمه الله كتبها من المواهب سنة ١١٢٥ هـ
وكان وصوله اليها لأجل رحم له هنالك فرأى فيها عجائب :

يا رفاقا حلوا بأكناف صنعا	ليت شعرى بعد التبعاد رجعى
حال بينى وبينكم ريب الدهر	يبطل الوصل بالقطيعة قطعا
ولئن صرت مفردا عن رباكم	فمثنى ودادكم صار جمعا
وجفا جفنى المنام وقد صا	ر لطول البعاد نومي دمعاً
وبلاد بها أقمت على الكر	ه وطوعا لحكم دهرى وسعا

بلدة أخصبت من الظلم والجور
حرفة الساكنين فيها نفاق
واذا ما الجهول وافى رباها
واذا الفاضل الليب أتاها
ويسود السودان فيها فلا عز
فهم الآمرون فيها بما شا
فأقم مأتم الشريعة أو قم
قل لمن قام حاملا راية الحق
مثال هذا المطال ياليت شعري
فتدارك بقية الدين ان كن
آه للعلم كم يهان ذووه

رفضت بها الشريعة ذرعا
واختلاق وبالنميمة يسعى
نال خفضا من عيشه ثم رفعا
نال صرفا عنها وأعطى منعاً
واذا أضحت الشريعة تنعى
ءوا ولا يعقلون عقلا ولا شرعا
سل سيفاً تترك به القوم صرعى
متى للنزال تدعو وتدعى
أى حين تثير خيلك نفعاً
ت لاجيا ميت الدين تسعى
والى كم يلقون ذلاً ووضعاً

مسعى للصالح

وله من قصيدة يعدد فيها أعماله وجهاده :

وكذا باصلاحى ثلاث طوائف
ما بين قاسم الامام وفتية
فتن بها نهبت هناك طوائف
وكذا الحسين وصنوه فتنوا الملا
تسع من السنوات كان بقاؤها
أمنت باصلاحى لتلك معاشر
وعففت عن أموالهم لا قطعة
أو كيلة من أى مخزان فلا
عرضوا على وزارة وولاية
جعل الوزارة والولاية لذتى

قد أشعلوا فى الأرض نار شقاق
من آله وهم بنو اسحق
وطوائف فروا من الأشفاق
وتقطعت طرق عن الطراق
فتضيق عن تفصيلها أوراقى
وبه الدما حققت عن الالهراق
أقطعت أو مكس من الأسواق
أشكو من الخزان والسواق
فوقانى الرحمن أفضل واق
فى العلم ربه صادق الميثاق

ماذا تفعل القبائل

كم أباحوا من كل ما حرم الله
كم وكمن من محارم هتكوها
ولكم يعبثون بالناس دهرا

وكم أيتموا من الأطفال
واستباحوا النفوس بالأموال
بقبيح الأفعال والأقوال

نصيحة الى أهل مكة

الى الأشراف أعيان الأنعام	وأهل البيت والبلد الحرام
سلام لا يزال على رباكم	من الرب السلام على الدوام
أتانا عنكم خبر غريب	تواتر من يمانى وشامى
بأن عبيدكم أضحوا لصوصا	يخيفون الحجيج بكل عام
إذا ظنوا بمال عند شخص	بيطن الجيب أو تحت الحزام
توالت الجموع ليأخذوه	ولو فى الحجر كان أو المقام
ولو بالقتل ان عنهم تأبى	بلا خوف هناك ولا احتشام
وحاشا أنكم ترضون هذا	فما يرضاه ذو الهمم السوامى
وحق الضيف اكرام وعز	ولا يلقى بهضم واهتضام
أيامن من يحج بكل فج	ويلقى الخوف فى البلد الحرام
أتوا من كل أرض لم يريدوا	سوى البيت المحرم والمقام
يلاقون الأمان بكل أرض	وفى حرم يلاقون الحرامى
فما البلد الأمين محل عاص	وليس بها لعاص من مقام

وقفه على قصور المتوكل بحدة

طال الوقوف على الأطلال والدمن	فاستروها خبرا عن ذلك السكن
ونادها عن بنيتها والبناة لها	والنازلين بها فى أقرب الزمن
تخبرك ناطقة بالحال صادقة	بكل ما كان من قبح ومن حسن
نعم نعم أخبرتنا وهى صامتة	والصمت أبلغ عند الحاذق الفطن
قوم رأيناهم والدهر يخدمهم	قد طال ذكرهم فى الشام واليمن
ان المواهب قد شاهدت صاحبها	وكان فى جوده كالعارض الهمتن
سفاك كل دم عاداه صاحبه	مفرق منه بين الروح والبدن
هناك كل حى ان لم يطاوعه	كم من معاقل أخلاها ومن مدن
وحين أدبرت الأقدار عنه أتت	له المقادير بالآفات والمحسن
ووجهت نحوه الأقدار أسهما	وما لسهم القضا فى الدفع من جنن

وعاد أعوانه عوناً عليه ولم
وجاءه الضر ممن كان ينفعه
وضاق عيشاً وقد ضاق الفضاء بها
وصار فرداً وفي أبنائه عدد
وتم للقاسم المسعور ما سمحت
وشاد في حلة دوراً مزخرفة
مرتله سنوات في تنعمه
ثم اثنت هذه الدنيا لعادتها
وكان أعظم خطب قابلته به
قاد الجيوش إلى صنعا وحاربه
وقد سعت أنا بالصلح بينهما
ولم يعيش غير أيام منغصة
وبعد الناصران الأمر قد طلبا
وأشعلا نار حرب بينهما سنة
وبعدا لحسين تم مأربه
وتم عشرين حولا في قلبه

ينفعه أهل ولا مال من المن
ورب قبج أتى من ظاهر حسن
قد كان يحويه من خيل ومن خدن
لكنهم وافقوا في جفوة الزمن
به المقادير من نجد إلى عدن
تررى بما شاده الأملاك في المدن
كأنها خفقات العين بالوسن
وبادرت بما يخشى من المحسن
أن الحسين ابنه لم يأت بالحسن
فاضطر منه على صلح على دخن
أطفأت نارا لها الايقاد بالفتن
لم يخرج الحول الا وهو بالكفن
محمد وحسين من بنى الحسن
حتى أضرا بمن قد حل في اليمن
ونال كل الذي يهواه في الزمن
في الملك حتى أتاه سالب الوسن

لاتجزعوا

أقول لمن طال شكواهم
دعوا ما أراه ولا تجزعوا
فما ظلموكم بما نالكم
ومن جور عمالهم يصرخونا
فمما قريب ترون اليقينا
ولكن أنفسهم يظلمونا

المنقذ

هذه نقطة مصدور ، وكلمة صادرة عن قلب من ضياع الشريعة
محروور وفيها تفاؤل بمن يقوم بالدين ، ويحيى شريعة سيد المرسلين ، وفيها
ايقاظ للمهم لو كانت نائمة ولكنها ميتة لا ترجى لها قائمة والجهاد باللسان
أحد الأقسام نسأل الله قبول الأعمال وحسن الختام :

شكت بلسان الحال طول جفاها ونادت ولكن من يجيب نداها
فيا غادة قد نالها من يسوؤها وطال عليها كربها وغناها
إذا أفلتت من كف مختلس لها تلقفها لص يطيل جفاها

سينقذها من بعد ذلك ماجد تسامى الى نيل العلى فسامها
همام سيجلو عارها بحمامه ويلبسها من بعد ذاك حلاها
فتى قد جنى من كل فن ثماره وحاز من العلى رفيع ذراها
قريب الى أهل الشريعة والتقى بعيد لمن يهدى بغير هداها
عفيف عن الأموال الا بحققها يرى زهرة الدنيا نظير هباها
يحف به قوم على كل سابح تعد المنايا فى الحروب مناها
إذا الأرض من تقع المعارك أظلمت تراهم وقد أضحوا نجوم دجاها
ولا جمعوا مالا ولا كسبوا لهم قصورا ولا باهوا برفع بناها
وما ادخروا الا حساما وذابلا ومهرا يبارى الريح عند سراها
وما قصدوا من سفكهم لدم العدى وتطويقهم بالسيف بيض طلاها
سوى أنهم يحيون شرعة أحمد وينفون عنها داءها بدواها
سيغسل عنها السيف أدران بدعة ويشرق فى الآفاق نور سناها
وتنفذ فى الطاغى سهام قسيها فويل لمن يهدى بغير هداها

فيا من لهم فى الدين أقصر همة ثكلتكم كم بالمنى تتلاها
نرى كل يوم منكرات فظيعة فنعرض لا نهى ولا تتناها
وما المرء الا من على كل ظالم أدار من الحرب الضروس رحاها
وأوردتهم خوض المنون بسيفه وضيق عنهم أرضها وسماها
تعالوا بنا نحى رياضا من العلى ذوت ان احببتم لذيد جناها
وهبوا فقد طال المنام عن العلى وقد سخت عين تطيل كراهاها

كفنا بأحوال المواهب عبرة
ألم نرها مملوءة بملوكها
فما هي قفر ما بها غير يومها
خليلى ان لم تأخذ بروايتي
تخبركما عن بنى غرفاتها
وما مات حتى ذاق سوء صنيعه
ووصف الذى قد كان تحصيل حاصل
سيلحقه من يقتدى بفعاله
فما الله عما تفعلون بغافل
ففى الذكر أخبار بسوء مآلهم
بعيشكما ردا سلامى على امرىء

ألم تر فيها بؤسها ورخاها
يضيق بهم منها رحيب فضاها
يجاوبها ان صاح صوت صداها
فعوجا على أرجائها وسلاها
وفارقها من بعده وسلاها
وأصلى من فار الحروب لظاها
فكل رآها جهرة ورواها
فعما قريب فهو من قتلاها
ولكن قضى أن للامور مداها
وقد ضمنت « طس » منه « وطه »
على شرعة المختار رد رواها

صونوا الشعر

اطلع ابن الامير على مختارات أحد الأدباء ومن بينها رثاء كلب لجماعة
من الشعراء فقال :

فالشعر أولى بالرثاء ء وبالبكاء والاتحباب
اذ صار طوقا للكلاب ب الميتات على الرقاب
هذا هو الخسف الذى وردت به آى الكتاب
خسف لشمس الشعر وال قمر المنيرة والشهاب
صلوا صلاة كسوفها ان كان يشرع فى كتاب
فليحتسب أهل القريـ ض لما أتاها من مصاب

رثاء أبيه

أحقا جرى ما يسبل العبرات ويجرى دماء العين لا الدمعات
لقد كاد روى أن يفيض من الأسى ويسلبنى حزننى ثياب حياتى

أتى خبر أجرى الدموع وألهب الـ
فكذبتة من هوله ثم ردني
ضياء الهدى من قد سما بفعاله
عليه حكيم حافظ للسانه
أليف التقى خذني الهدى صاحب العلى
سيبكي عليه كل محراب مسجد
فقد كان قنديل المساجد فى الدجى
وصول لأرحام قطوع لظالم
وأزهد خلق الله فى زينة الدنيا
ذكى يحل المشكلات بذهنه
مضى طاهر الأثواب مثر من التقى
وخير الرثا ما كان حقاً وشره
وما كل من يرثى حقيق بوصفه
الى الله أشكو فقدته وفراقه
وموت أتى من بعد بين وغربة
وقد كنت أشكو فقدته فى حياته
فما راعنى الا الرحيل بذاته
وبعدك لا آسى على فقد فائت
وخفف حزنى اننى مذ عرفته

قلوب عقيب العصر من عرفات
رسائل أعلام أتت وثقات
الى الملائ الأعلى ذرى الدرجات
وأفعاله الا عن القسريات
حليف كتاب الله فى الخلوات
ويلبس سربالا من الظلمات
ينورها بالذكر والصلوات
لطيف السجيا طيب الحركات
وأطمعهم فى الخير والحسنات
وقور وقور الصخر فى الفلوات
فقيصر من الزلات والهفوات
كلام أتى بالزور والكذبات
ولا كل راث صادق اللفظات
شتات أتى من بعد طول شتات
تقضت بها سبع من السنوات
وأرجو لقاه قبل حين وفاتى
الى منزل كل اليه سيأتى
أبعدك شىء موجع بفوات
مطيع له فيما يقول ويأتى

أحبائى ما عنكم تبدلت راضيا

ولما أقام ابن الأمير بحصن شهارة فى سنة ١١٤١ هـ تزوج هناك
واقضى الحال فراق زوجته ابنة العلامة هاشم بن يحيى الشامى وكانت خرجت
الى شبام أيام بقاءه بها ثم عادت الى صنعاء وسافر هو الى شهارة وهى والدته
ابنه ابراهيم .

كتب اليه الحسن بن اسحق وكان مسجوناً بقصر صنعاء أبياتا يعاتبه فيها على فراق زوجته والتزوج وجعلها على لسان زوجته الأولى .

فأجاب ابن الأمير :

أبرق بدا أم زحزح اليوم برقع أم ابتسمت عجبا لما قال قائل لحي الله هذا الناس أين عقولهم وقد أثروا اذ كثروا في مقالهم فقد أرسلت ريح الصبا برسالة يكاد يسيل الدمع لو كان ممكنا توالت عليه الحادثات فلم يزل فأفنيته والحادثات بأسرها بروحى ذاك العتب من خير عاتب أجباى ما عنكم تبدلت راضيا ساملى عليكم ما يسر قلوبكم لقد زادنى حبا لكم وصل غيركم وعرفنى أن ليس فى الأرض غيركم ولو كنت بالشرع الشريف محاججا وقلنا لكم خير النبيين أحمد وقلنا لكم أصحابه لاغترابهم على أنكم لو تعلمون محلكم وقلتم لنا زد ما تريد فأننا فلست ترى فى الناس ما عشت غيرنا فلا تخش من عتب اليك موجه وانا لفى خير اذا كنت سالما فهنيئ ما أعطيت من كل نعمة	لسلمى فهذا نورها يتسطع بأنى للعهد القديم مضيع يقولون ما ليست له الاذن تسمع وقد ساءها ما شيعوه وشنعوا وفى طيها عتب لطيف مروع ولكنه لم يبق للعين مدمع عليها بقدر الحادثات يوزع كأنى أسقيها بدمعى وأزرع وان كان فيه ما يهول ويفزع ولكن لأمر ليس فى الكتب يرفع اذا ما سحاب اليبين عنا تقشع خلاف الذى كنا له تتوقع فما الشمس الا أتم حين تطلع لقلت لكم قد حل فى الشرع أربع توفى عن تسع وذاك المشرع عن الأهل فى أسفارهم قد تمتعوا بقلبى لما نزت من العين أدمع تزيد لنا حبا بما أنت تصنع ولسنا نرى يا بدر غيرك يولع وحاشا يوافى سوحك اليوم تبع وعما قريب شملنا سوف يجمع عدوك مخفوض وشأنك يرفع
---	---

سبع وسبعون

وصديق لى صدوق فى الذى أهواه يسعى
سمع الأنسة منى فامتلت عيناه دمعاً
قال ما تشكو أبى لى قلت سبعين وسبعاً

مؤامرة

وقال رضى الله عنه لما نزع الشيطان وسول لجماعة أن يقتلوه وتجمعوا
لذلك وحال الله - وله الحمد كثيرا - بينهم وبين ما يرمون وجسوا وأعاد
الله كيدهم فى نحورهم :

أبدا وحسدا	شكرا لربى دائما
مع لعشره حصرا وعدا	شكرا لما لا أستطيع
لأذيتى بغيها وحسدا	جاء العدا وتجمعوا
هم جهالة منهم وحقدا	وأرادوا الأمر العظيم
يمان عدوانا وعمدا	سلفك الدم المعصوم بالا
فله الثنا ما عشت يهدى	شكفى الهى شرهم
لغة النبى ممن تعدا	لم أنه الا عن مخا
ة بخارج الأوقات عمدا	ونهى عن جمع الصلا
رو عن ندا من حل لحدا	ونهى عن بدع القبور
ها عندهم نجسا وسعدا	وعن النجوم وان فى
وأبنتها رسما وحدا	عرفتكم سنن الهدى
سى لم أدع للنصح جهدا	وعلى المنابر والكبرا
مختار تفصيلا وسردا	أملى الكتاب وسنة ال
من به البلغا تحدا	ومفسرا لكتاب ربى
أوضحتها حلا وعقدا	أبرزت فيه نفائسا
تى لان قلب كان صلدا	ومزجته بالوعظ حـ
خير الورى علما وزهدا	ومبلغا عن أحمد

حتى ملأت بسنة الـ
تبع السعيد طريقتي
كان الحديث بارضكم
حتى نشرت فـسـونه
ولدرسه ولأخذه
وتنافس العلماء في
هذا بتسيخ وذا
ما قلت ذا فخر ولا
بالله قل لي ياعـذو
أعلى الرسول وجهه
مختار أغوارا ونجدا
فنجيا ونال هدى ورشدا
مستغريا والله جدا
وجلوت منه ما تصدى
من بعدنا كل تصدى
كتب الحديث هوى ووجدا
بشائها بالمال نقدا
أرجو بنشر العلم جدا
لعلام تعذلى مجدا
وهـدايتى حرا وعبدا

الفصل السابع

مؤلفاته

امتدت حياة ابن الأمير العلية فى نفس الخط الذى اتجه اليه فى مذهبه ودعوته الاصلاحية ، وكانت دروسه ومؤلفاته تخدم هذا الاتجاه .

وقد ربط الرجل بين دروسه وخطاباته ومؤلفاته وتلاميذه وصداقاته فى رباط واحد تنتظم جميعها فى سلك واحد :

نقض الخرافات عن آراء زيد بن على رضى الله عنه ومسح التشويه الذى حصل على هذا الامام الجليل من غير تبصر .

توثيق الصلة بين الناس وبين الكتاب والسنة وبين مدارس العلم اليسنية وتكوين مدارس لخدمة هذا الهدف النبيل .

الكشف عن المؤلفات المتحررة لعلاء اليمن العظام الذين مهدوا الطريق لحركة ابن الأمير .

اهداء عدد من المؤلفات الاسلامية العظيمة للباحث اليسنى وكشف الستار عنها وتقريبها الى الأذهان .

مناقشة كثير من المسائل التى انحرف بها الباحثون واعادة الرأى فيها الى جادة الطريق .

عنى بتحرير كثير من الرسائل التى توضح رأى الاسلام الصحيح فى المبادئ والأحكام التى أصدرها رجال الحكم والتى انعكست على الشعب اعتداء على حقوقه واغتصابا لأملاكه وسلبا لحريته .

ومما يدعو الى الإعجاب بصاحبنا أنه لم تسر به محنة ولم تعرض له فرصة الا كانت فرصة يهتبلها لخدمة مذهبه .

كما أن كثرة المؤلفات والرسائل التي خلفها وراءه تزيد من إعجاب الدارس لشخصية هذا العالم الجليل الذي استطاع برغم الظروف التي مرت به أن يخلص الى هذه الدراسات الواسعة الخصيية وأن يقدم هذا الانتاج الغزير .

واليك أسماء المؤلفات التي تعرفنا عليها لابن الأمير :

- ١ — الأحرار لما في أساس البلاغة للزمخشري من كناية ، ومجاز ألفه في مجلد لطيف .
- ٢ — اجابة السائل شرح بغية الآمل بنظومة الكافل في مجلد شرح فيه منظومته للكافل .
- مع زيادة في المنظومة على الكافل في أصول الفقه .
- ٣ — الادراك لضعف أدلة تحريم التباك .
- ٤ — ارشاد النقاد الى تيسير الاجتهاد .
- ٥ — استيفاء المقال في حقيقة الأرسال .
- ٦ — الأنفاس الرحمانية على الافاضة المدنية .
- وهو جواب رسالة للشيخ أبي الحسن السندي المدني فيسا يتعلق بخلق أفعال العباد .
- ٧ — الأنوار : شرح « ايثار الحق على الخلق » لمحمد بن ابراهيم الوزير ولم يتم .
- ٨ — ايقاظ الفكرة لمراجعة الفطرة : في مجلد يشتغل على شرح حديث « كل مولود يولد على الفطرة وانما أبواه يهودانه وينصرانه » .
- ترك فيه مقالة الأصحاب ورجح أدلة السنة والكتاب .
- ٩ — بشرى الكئيب بلقاء الحبيب ، منظومة وشرحها في المعاد .

١٠ — التعبير شرح « تيسير الوصول الى جامع الأصول » فى مجلدين ولم يكمل .

١١ — التنوير : شرح الجامع الصغير فى حديث البشير النذير ، فى أربعة مجلدات ، ألفه بمدينة شهارة قبل اطلاعه على شرح المناوى وجعله أولاً كالحاشية لا يستوفى فيه المتن .

ولما اطلع على شرح المناوى ألحق منه بعض المسائل واستوفى المتن ، فكان التنوير غريب المنوال غزير المنال جم الفوائد الفائقة والعبارات اللائقة .

جسج تصحيح الأحاديث والتنبيه على الفوائد اللغوية والتنبيه الى مسائل فقهية ونكات غريبة وتراجم مفيدة واستنباطات وترجيحات وأقوال راجحة واشتغاله بما تدل عليه الأحاديث الشريفة لا التوسع فى نقل أقوال العلماء المشتتة لفهم الطالب .

١٢ — توضيح الأفكار على تنقيح الأنظار فى علوم الحديث والآثار فى مجلدين نبه فيه على بدائع . وحقق شروط أئمة الحديث وانتقد بعض المواد ، وأصلح بعض العبارات ، وثقل الأبحاث المفيدة .

١٣ — ثمرات النظر فى علم الأثر .

١٤ — جسج الشئيت شرح أبيات التثيت للسيوطى : فى مجلد ، وهذا الشرح المفيد يحتاجه كل فرد من أهل الاستعداد للسعاد . فانه نكلم فيه على الأبحاث المتعلقة بعالم البرزخ والمعاد وضم اليه منظومته « بشرى الكئيب بلقاء الحبيب » وشرحها .

١٥ — حاشية على البحر الزخار وهى تعليقات قيية جامعة من كتاب الطهارة الى كتاب الزكاة .

١٦ — حاشية على شرح الرضى على الكافية . كان يؤلفا أثناء تلقيه دروس العلم على شيخه عبد الله بن الوزير ، وكان يعرض ما كتبه .

عليه فيعجب به ، فلما انقطعت الدروس عند باب المنادى انقطعت
الحاشية أيضا .

١٧ - الدراية شرح العناية فى أصول الفقه . لما قرأ على شيخه « هداية
العقول شرح غاية السؤل » وكان شيخه ينظم درس كل يوم فى
المتن نظما حلوا جامعا لفوائد الأصل مع سهولة وانسجام وسهله
« العناية » وكان الأمير يشرح المنظوم . ولما وقف شيخه على
الشرح ساء الدراية .

وقد بلغا فى نظم المتن وشرحه الى بحث الاجماع وعاقبت العوائق
عن الاكسال بانقطاع القراءة .

١٨ - ديوان شعره الذى تولى جمعه ابنه عبد الله ورتبه على حروف
المعجم .

١٩ - رسالة فى الرسالة : جواب سؤال : هل التحدى بالقرآن مستر
أم يرتفع اذا اختلف اللسان ؟

٢٠ - رسالة فى المفاضلة بين الصحاح والقاموس : أبان فيها أن الصحاح
والقاموس يشتركان فى الجمع بين الحقيقة والمجاز .

٢١ - رسالة ألفها للمهدى عباس فى وجوب ازالة أصنام البائيان من ثغر
المخا .

٢٢ - الروضة الندية شرح التحفة العلوية فى مجلد .

٢٣ - سبل السلام شرح بلوغ المرام .

فى مجلدين وهو شرح حوى التصحيح والتحقيق والتتقيق
والاقتان والتوضيح والترجيح ، اختصر من شرح شيخه القاضى
الحسين بن محمد المغربى الصنعائى الموسوم بالبدر التمام وأضاف
فى سبل السلام فوائد خلا عنها البدر التمام وحذف ما لا يرى
فائدة فيه من الأصل .

٢٤ — السهم الصائب فى القول الكاذب ألفها فى شعبان سنة ١١٥٣هـ رد بها على جماعة تسموا بالشيعة وقالوا ان تدريس القرآن بالجامع من المنكر .

٢٥ — السيف الباقر فى يمين الصابر والشاكر ، اختصره من عدة الصابرين لابن القيم ، وغايته أن الانسان ان رزق شكر ، وان ابتلى صبر .

٢٦ — العدة ، حاشية العمدة لابن دقيق العيد ، وكان شروعه فى تأليفه وهو بمكة عام ١١٣٤ هـ عند قراءة شرح ابن دقيق العيد على العلامة محمد بن أحمد الأسدى ، وأشار الى ذلك فى خطبة الحاشية .

٢٧ — فتح الخالق : شرح مساح رب الخلائق ، فى مجلدين والأصل لمحمد بن ابراهيم الوزير .

٢٨ — منحة الغفار على ضوء النهار شرح الأزهار فى مجلدين ضخمين .

٢٩ — منسك فى الحج ومعه قصيدة له فى المناسك عدد أبياتها ٢٨٣ ، مطلعها : « أيا عذبات البان من أيسن الحمى — رعى الله عيشا فى رباك قطعناه » .

٣٠ — نهاية التحرير فى الرد على قولهم ليس فى مختلف فيه نكير ، أبان فيه أن هذا القول ليس على إطلاقه ، وأوضح أن مدار ذلك على ما صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

٣١ — اليواقيت فى المواقيت فى بيان أوقات الصلوات بما دلت عليه الأدلة ، ألفه فى شهارة .

٣٢ — مجبوعة من المساجلات الشعرية بينه وبين علماء عصره ورسائل فى اصلاح أداة الحكم والتنبيه الى رأى الاسلام فى مفسد العصر .

وبعد :

فقد رحل ابن الأمير عن الدنيا وترك مدرسته . وانهارت العصاة وفقدت مكائنها بين الشعب وأصبح صاحب صنعاء لا يملك من أمر صنعاء

قليلا ولا كثيرا ، وكثر الأئمة وتوزعوا على القبائل والمدن وفقدوا هويتهم
فى نفوس الناس .

ولولا بقية من وهم لما تذكر الناس امامهم أبدا حتى فى يوم الجمعة .
فقد كانوا لا يذكرونه الا فى هذا اليوم يسوقونه فى موكب تقليدى
للصلاة ، فاذا قضيت الصلاة أسلوه للنسيان مرة أخرى .

وكان بعض الناس يتخذون البيعة مجالا لا يتراز الأموال وما يزالون
بصاحبهم يتقاضونه ما عنده ان أراد أن تستمر بيعتهم له حتى ألجأوا
واحدا منهم أن يبيع خنجره بسلحقاته فى سبيل أن يبقوا عليه .

وكنت تكاد تحصي فى منطقة واحدة عددا من الأئمة يستطيعون أن
يتراشقوا بالحجارة .

وضعف سلطان المدرسة : مدرسة ابن الأمير بضعف السلطة التى
كانت تقاومها .

وعاد الاستعمار التركى الى اليمن وبدأ الشعب يقظته يندب وحدته
وأمجاده .

وتذكر واحد من بيت القاسم ما صنعه القاسم نفسه أن يستغل سخط
الشعب وايمانه بحريته فى السطو على الملك .
وسطا المنصور على ملك اليمن ومن بعده الطاغية يحيى ، وحدثت
المؤامرة الكبرى على اليمن .

« أطرافها الانجليز والرجعية ويحيى حبيد الدين » .

واقتطعت أطراف البلد الحضارى العريق لتكون سورا لسجن كبير
يحرس طرفان أسوار السجن من الشمال والجنوب والشرق ويبقى السجنان
— الطرف الثالث — فى داخل اليمن متربعا على عرش صنعاء يسوم
الشعب سوء العذاب .

واجتمع له دهاء المتوكل اسماعيل وجشع صاحب المواهب وقسوة
القاسم الرهيب وحقد المنصور حسين ونلهف المهدي عباس على الأوقاف .

واستيقظت المعارضة واستيقظت معها آراء نشوان والوزير والجلال
والمقبلى وابن الأمير ، وكانت زاد الأحرار فى سجونهم .
فلما أضيف الى كل هذا جنون أحد واستهتاره قويت المدرسة
وعشق الايمان بها وكانت الكتب تتسلل الى سجن حجة .
لتضىء ظلام السجن الرهيب .
وعلم الأحرار أن طريقهم الى الحرية .
انى القضاء على الجلادين هو العلم ، هو المعرفة .
هو كشف التضليل وازاحة الغشاوة عن العقول والأبصار .
وبدأوا يتخذون من السجن مدرسة أقلقت بدويها الملك المتربع فى
تعز .
وضيق السفاحون الخناق على الفكر ، وحاربوا رأى يتسلل من
أنواب « نافع » .
وفر من فر من الأحرار الى خارج الين .
فربطوا بين حرية الين وانتشار التعليم .
وفتحت القاهرة ذراعيها لأخوة الأصل والتاريخ والدين واللغة
والعاطفة ، وبدأت مدارسها تستقبل مئات من الفارين .
وتحايل المقيسون فى عدن على المدارس يفتحونها فى غفلة من
الاستعمار تهيب الطلاب القاهرة ودمشق وبغداد .
وما زالت الحركة العلوية تصاحب حركة التحرر وتضى معها الى
أهدافها الكبرى حتى تدفق هدير الثورة فى ليلة السادس والعشرين من
سبتمبر .

وتحطمت الأسوار .
وانهارت الحصون •
وارتفع علم الحرية .
وبدأ الشعب العظيم يعيد بناء مجتمعه .
وحضارته .
ووحده .

ويخفق فؤاده بالحنين الى فروعته التي امتدت من الخليج الى
المحيط .

والله ولي التوفيق .

فهرس الكتاب

٧	تقديم
٩	مقدمة

القسم الأول أسرة القاسم

١١١ - ١٥

١٧	نسب الأسرة الهاشمية
٣٠	الطريق الى الحكم
٥٧	من القاسم الى المهدي صاحب المذهب
٨٥	من القاسم الرهيب الى العباس الجشع

القسم الثاني محمد بن اسماعيل الأمير

٣٢٩ - ١١٣

١١٥	من كحلان الى صنعاء
١٣٥	عالم السنة وداعيته
١٨٠	فساد الحكم ودعوة الاسلح
٢٨٥	رجل السلام
٢٩٣	ابن الأمير وبيت اسحاق
٣٠٣	مختارات
٣٢٢	مؤلفات

To: www.al-mostafa.com